الأثر الثمين في نصرة عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين

دراسات في سيرة عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين وعدالة الصّحابة أجمعين والوقاية من الفتن في كلّ زمان وحين



أحمد محمود الشّوابكة

تقديـم ومراجعـة

أ.د. عبد النّاصر أبو البصل
رئيس جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة

أ.د. محمود السّرطاوي
كليّة الشّريعة - الجامعة الأردنيّة

أ.د. أحمد نوفل
كليّة الشّريعة - الجامعة الأردنيّة

د. محمّد الملكاوي
كليّة الشّريعة - جامعة اليرموك

أ.د. عبد المقصود حامد
مستشار رئيس جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة

دار الفاروق
عمّان - الأردن

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

٢٣٩.٣١ المملكة الأردنية الهاشمية

❖ رقم الأيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (١٣٩٨/٤/٢٠١٢)

❖ الشوابكة ، احمد محمود خليل.

❖ الأثر الثمين في نصرة عائشة رضي الله عنها ام المؤمنين /احمد محمود خليل الشوابكة .- عمان :المعد٢٠١٢.

❖ عدد الصفحات (٢٧٢) .

❖ تصميم الغلاف / محمد خضير .

❖ ر.أ.: ١٣٩٨/٤/٢٠١٢ .

❖ الواصفات : زوجات النبي ﷺ/ الاسلام//السيرة النبوية/.

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار الفاروق

للنشر والتوزيع

عمان – العبدلي – عمارة جوهرة القدس

E- mail: daralfarouq@yahoo.com

دار الفاروق





الإهداء

إلى مَنْ أوْصَاني ربِّي بهما خَيراً، فقال:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

إلى مَنْ أسْألُ ربِّي لهما خَيراً، فأقول:

﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

وإلى صفيي وفرطي عبيدة، الّذي أجاب ربّه، وأوجعني فقده !

عسى الله أن يجمعني بهم جميعا في مستقرّ رحمته، مع الأحبة : النّبيّ ﷺ وصحبه ﷺ.

الغَنِيُّ بالفَقْرِ إِلى الله
أحمد محمود الشّوابكة
أبو عبيدة

تقديم

أ.د. عبد الناصر أبو البصل

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا وقدوتنا محمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى أزواجه وأصحابه أجمعين، والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فلا شكَّ أنَّ الحديث عن خَيْرِ القرونِ محبَّبٌ إلى النَّفس، ويلامِسُ القَلْبَ، ونتنسَّمُ من خلاله عَرْفاً طيِّباً نديّاً؛ كيف لا وهو ينقلنا إلى بيت النُّبوَّة، فنسمع أَقْوالَ النَّبيِّ ﷺ وتوجيهاتِه وحركاته وسكناته وما يحبّه وما يكرهه، ونعرف أسْلُوبَ حياته مَعَ أقاربه وجيرانه وزوجاته وبناته وأصحابه، نعرف عنه ما لا نعْرفه عن أنْفسنا.

نعم إنَّه حديث محبَّبٌ للنّفوس؛ لأنَّه ينقلنا إلى أَزْوقةِ المدينة وميادين الجهاد الَّتي كان رسُولُ الله ﷺ يخوضُ حُروبَهُ فيها، وإلى سَاحَاتِ الأسْواقِ الَّتي يتاجِرُ فيها.

وفي هذا الكتاب جَعَلَ الباحِثُ الفاضِلُ الأستاذ أحمد محمود الشّوابكة محْوَرَه العامّ الحديث عن الصَّحابة الكرام، الَّذين يعدّون الحلقة الأولى الَّتي تلقَّت الوحيَ ونقلته عن الرَّسول ﷺ، ومحوره الخاصّ الحديث عن إحدى سيِّدات النُّبوَّة عن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، الّتي كانت تمثِّلُ جانباً مِن جَوانِبِ مشاركة المرأة المسلمة في الدَّعوةِ والسِّياسة والتَّعليم والتَّوجيه والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وفق رؤى اجتهاديَّة منهجيَّة تمثِّلُ مرحلةً مِنْ مَراحلِ النُّضج العِلْمِيِّ والفكريّ وصلت إليها السَّيِّدة عائشة وسائر نساء وسيّدات هذا البيت الطَّاهر.

كما تمثِّلُ السَّيِّدة عائشة ومن معها من الصَّحابة الَّذين كان لهم أثرٌ وفاعليّة في الحياة العامَّة في ذلك الجيل أنموذجاً حيّاً لِلتَّرْبِيَةِ النَّبويَّة المباشرة؛ فهي زوجه وملازمته، وهي أصْغرُ نساء النَّبيِّ ﷺ سِنّاً، وأكثرهنَّ روايةً، ولعلَّ الحكمة من اجتماعِ هذه الصِّفات وغيرها في أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها جليَّة، فَمَنْ سيروي الأحاديثَ المتعلِّقة بالحياة الخاصَّة للرَّسول ﷺ وأسرته، ومَنْ سيلاحِظُ دقائقَ الأمورِ إنْ لم يكنْ في مِثْلِ سنِّها رضي الله عنها، وفي مثْلِ ذكائها، ومَنْ ستكون لها القوَّةُ والجرْأَةُ لِتحاوِرَ وتَأْمُر بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وتقول رأيها بكلِّ قوَّة لما تعرفه مِنْ أَمْر النَّبيِّ ﷺ غيرها رضي الله عنها؟ إنَّها مسْأَلة اختيار واصطفاء وتقدير من الله سبحانه وتعالى.

لا أقولُ مِنَ العَجَبِ، بل مِنْ غير المعقول ومِنْ أَغْرَبِ الْغَرَائِبِ أَنْ يَنْبَرِي نَفَرٌ للتَّطاول على هذه السَّيِّدة على أمِّ المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها، غَافِلين أو مُتَغَافِلين عن:

ـ مكانتها عند الرَّسول ﷺ ومحبَّته الكبيرة لها والَّتي تحدَّث عنها ﷺ بكلِّ صراحة ووضوح؛ ليضرب المثل الأعلى في الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ، حيث سُئِلَ ﷺ: "مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ".

ـ أنَّ القُرآنَ الكريم نزل في بيتها، بل والرَّسول ﷺ نائم في فراشها ورأسه في حجرها وعلى صَدْرِها.

ـ أنَّها بِنْتُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، الَّتي حَفِظَ الله تعالى بها كثيراً من سُنَّة رسوله ﷺ.

ـ أنّه قد ثبت لها وَصْفُ لقب أمّ المؤمنين الوارد في قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ٦ ﴾ [الأحزاب] فلها حقوق أمَّهات المؤمنين...

أ.د. عبد النّاصر أبو البصل

رئيس جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة

٢٣/ جمادى الأولى/ ١٤٣٣هـ

الأحد/ ١٥/ نيسان/ ٢٠١٢م

تقديم

أ.د. محمود السّرطاوي

الْحَمْدُ لله حَمْدًا يُوَافِي نِعَمَهُ، وَيُكَافِئُ مَزِيدَهُ، والصَّلاة والسَّلام على الرَّحمة المهداة سيِّد الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ، وعلى ذُرِّيَّته وأزواجه وأصحابه ومَنْ تبعهم بإحسان.

وبعد، فما أحوج الأمَّة الإسلاميَّة في هذه الأزمنة الَّتي تموج فيها الفِتَنُ إلى الدُّعاة الَّذين يرفعون لها رَايَاتِ النَّجاة ! وتعلو صيحتهم بالحقِّ على الباطل ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ...﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] .

لقد كثرت في هذه الآونة الأبواق التي تدقُّ نواقيس الفتن بين المسلمين، والكل يدَّعي حبَّه لرسُولِ الله ﷺ وآله والتَّمسك بهديه، ولا أدري كيف تستقيم أو تصحُّ هذه المحبَّةُ مع النَّيل مِنْ صحابته الكرام، وأزواجه، وهنَّ أمَّهات المؤمنين بنص القرآن ؟!

ولم يحسن بَعْضُ أَهْلِ العلم مُجَادلةَ هؤلاءِ بالَّتي هي أحسن، مع أنَّ الله تعالى قد أمر أنْ يُجَادَلَ أَهْلُ الكتابِ بالَّتي هي أحسن، فكيف بمجادلةِ مَنْ جعلهم اللهُ تعالى أولياء لبعضهم ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴿٧١﴾ ﴾ [التّوبة]، وبِمَنْ وصفهم الله تعالى بأنَّهم رُحَماءُ بينهم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

ولا يغرب عن البال أنَّ فريقاً مِنَ المسلمين مِن هذا وذاك لا يقرُّ هذا النَّهج الَّذي يعرفه الخاصَّة والعامَّة.

وإذا كان هذا هو الحال فلا سبيل لِنَبْذِ الفتنة إلا أن يتصدَّى لها نَفَرٌ مِنَ العلماء والدُّعاة المخلصين بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنَّها هي الكفيلة بإذن الله بوأْدِها وقطع دابرها.

وقد جاء هذا الكتاب " الأثـر الثَّمين في نصرة عائشة رضي الله عنها أمِّ المؤمنـين " ليعلي رَايةً للإصلاح، ويجيب على ما أُثِير حولها رضي الله عنها وحول الصَّحابة رضي الله عنهم من شُبُهات وافتراءات بالحكمة والكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ ، معتمداً الحجَّة والدَّليل من القرآن الكريم، وما صَحَّ مِنْ حديث سيِّد المرسلين.

فبعد أن بيَّن ما لأزواج النَّبيِّ ﷺ من مكانة وفضل، خصَّ السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها بمزيد من البيان، فهي قُطْبُ الرَّحَى وواسطة القلادة، وأَرْدَفَ بالحديث عن مكانة الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وذكر الفتن وأسبابها وسُبُلَ النَّجاة منها.

ولَمَّا كانت هذه هي الغاية مِنَ الكتاب، فإنَّه لا يَضِيرُهُ عدم التَّوسُّع في الحديث عن فقه السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها ؛ فإنَّ تناوله يضاعف حجم الكتاب أضعافاً مضاعفة.

وإنَّه لمنهج أَحْكَمَ الباحِثُ سبكه وأحسن نظمه قَصْدَ الدَّعوة إلى الإصلاح والتَّحذير من السَّير في ركاب الفتنة، وقد أتى على موضوعات البحث بعبارة أدبيَّة رَصِينَة تأخذ بالقلوب، وَبِحُجَجٍ تستجيب لها العقول، كلّ ذلك مِنْ غير إيجاز مخلٍّ أو إِطْناب مملٍّ.

فالله تعالى أسأل أن يثيب الأخ الأستاذ أبا عبيـدة أحمـد وأن يجعله في ميزان

حسناته وأن ينفع به وبعلمه آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

أ.د. محمود علي السّرطاوي

أستاذ الفقه المقارن

نائب رئيس جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة

وعميد كليّة الشّريعة ـ الجامعة الأردنيّة سابقاً

السّبت/ ١٠/ ربيع الثّاني/ ١٤٣٣هـ

٤/ آذار/ ٢٠١٢ م

تقديم

أ.د. أحمد نوفل

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ ، وبعد : فقد اطَّلعت على كتاب الأخ أحمد الشّوابكة (الأثر الثّمين في نصرة عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين)، والأخ أحمد ذو حِرْص وغيرة وهمَّة في طَلَبِ العِلْمِ ونُصْرَةِ الدِّين والدِّفاع عن حُرُمَات المؤمنين، فكيف إذا كُنَّ أمَّهات المؤمنين، وبالأخصِّ الأعزّ منهنَّ على قَلْبِ نبيِّنا الأمين خاتم المرسلين.

ومعلوم أنَّ التَّاريخ يمكن أن يدوَّن وأن يُقرأ من زوايا عديدة، وأن يُحَمَّل ما يحتمل وما لا يحتمل، فكيف من التَّاريخ الصَّفحات المتحدّثة عن الاختلافات والوقائع الَّتي أثارت الانقسامات بين الطَّوائف والجماعات؟

لكن الذَّي لا يحتمل أن يُكذَّب القاطع من الأدلَّة، وهل أصدق من القرآن؟ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النِّساء] أفبعد شهادته جلّ جلاله القاطعة ببراءتها يتقوَّل متقوِّل ويتخرَّص متخرِّص ! ألا فليخرس هذا الَّذي أخرج نفسه بهذا من ربقة الإيمان وجماعة المؤمنين .

ألا يعلم أنَّ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ اختيار الله تعالى له، فكأنَّ مَنْ يتَّهم منهنَّ واحدة إنَّما يشكِّك في حكمة الله عزّ وجلّ.

وقد غلب على الكتاب الرِّوايات الحديثيّة وهذا امتياز، ولكن هناك بعض مواطن الاستطراد فيما يسمّيه أحياناً ما يؤخذ من الحديث .

وكنت أودُّ لو بَرَزَ التَّحليلُ أكثر تاريخيّاً ونفسيّاً ولُغويّاً، لكان ذلك تنويعاً مطلوباً.

ومع هذا وذاك فإنَّ الجُهْدَ مشكور، والدَّأب الغيور في البحث مقدَّر، واللُّغَة الْعَالِيَة في الكتاب معتبرة. فاللُّغة هي الطَّبق الَّذي يحوي الوجبة الفكريَّة العلميَّة، أو هي الأصداف الَّتي تحوي اللُّؤْلُؤَ ، فلا يعقل أن يكون المعنى جميلاً، والثَّوبُ اللُّغَوِيُّ خَلَقاً.

أمّا هذا البحث فقد كان ـ إنْ شَاءَ اللهُ ـ نُوراً على نُورٍ : رصانة في العلم، وجودة في السَّبْكِ واللُّغةِ والصِّيَاغَةِ، هذا بعض حقِّه، تقبَّل اللهُ عَمَلَه وعِلْمَه، وتسخيره إيَّاهما في سبيل الله تعالى، ونصرة المؤمنين، وفَّقَه اللهُ، ونفع به، ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصّافات].

أ.د. أحمد نوفل
أستاذ التَّفسير والدِّراسات القرآنيَّة
كليَّة الشَّريعة ـ الجامعة الأردنيَّة

الأحد/ ٢/ جمادى الأولى/ ١٤٣٣هـ
٢٥ / آذار/ ٢٠١٢م

تقديم

د. محمّد ملكاوي

يَأْبى اللهُ تعالى إلَّا أنْ يجْعَلَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ رَبَّانِيِّينَ يدافعون عن دينه وسنَّةِ نبيِّه ﷺ ويحمون أَعْراضَ المؤمنين والمؤمناتِ، وفي مُقَدِّمَتِهم أَصْحَاب نبيِّه وأزواجه ﷺ، فإنَّ مَنْ حمى مؤمناً مِنْ منافق يغتابه حماهُ اللهُ مِنْ نار الآخرة.

ومن هؤلاء الرَّبَّانِيِّينَ أخونا الفاضل الأستاذ أحمد محمود الشّوابكة، الَّذي أحبَّ الله تعالى ورسُولَه ﷺ وأصْحَابَه وأزواجَه والمؤمنين، فقد طَمِعَ الأستاذ الشّوابكة بحُبِّهم أن يستنقذ نفْسَه وأَهْلَه من عذاب الآخرة، وأن يكون رفيق الَّذين أنعم الله عليهم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين في جنَّات النَّعيم، فسخَّر الأستاذ الفاضل وقته وجهده للتَّبحُّر في سيرة الرَّعِيل الأوَّل لاستخراج الدُّرر النَّفيسة، الَّتي أَذْهل الكثيرين عنها الانشغالُ بمطالب الحياة الدُّنيا، فلم يبق لهم وقتاً للبحثِ والتَّنقيب، وأغفلَ عنها الكثيرين أيضا دعاةُ الضَّلالة الَّذين اشتروا عَرَضاً دنيويّاً زائلاً بجنَّاتٍ نعيمها مقيم.

وكان من بعض دُرَرِ الأستاذ الشّوابكة كتابه " الأثر الثَّمين في نصرة عائِشَةَ رضي الله عنها أمِّ المؤمنين" فقد اقتفى فيه جُلَّ ما دوَّنته الكتبُ الموثَّقةُ في سيرةِ هذه الطَّيِّبَةِ المطيَّبة رضي الله عنها، ورَدَّ فيه على الشُّبهات التي أُشْرِبتْها قُلُوبُ الحاقِدِين الَّذين سيْطَرَ عليهم إِبْلِيسُ، فأوحى إليهم زُخْرُفَ القُوْل غُرُوراً، فظنُّوا أنَّهم يَفْتِنُون المؤمنين عن الحقِّ المبين، فخاب سعيُهم؛ إذ تَتَبَّعَ الأستاذ الفَاضِلُ شُبُهَاتِهم وَرَدَّها كلَّها بما قاله فيها الطَّيِّبُ ﷺ، وبما قاله أيضاً أَحْبَارُ الأمَّة من المحدِّثين والمفسِّرين والمؤرِّخين الَّذين شَرَوا أَنْفُسَهم ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله.

فأسأل الله العليَّ القدير أَنْ يجْزِيَ الأستاذ أبا عبيدة خَيْرَ الجزاءِ على نيَّته وإخلاصِه وحبِّه أحباب الله، وأن يُنِيلَه بحُبِّهم شفاعتهم، وأن يُعِينَهُ على تزويدِ المكتبةِ المعَاصِرةِ بمزيدٍ منَ الذَّخَائِر الَّتي لا يستغني عنها طَالِبُ الحقِّ، ولا يَتَنكَّبُها إلا مَغْبُونٌ، وصلَّى اللهُ على النَّبيِّ الأمِّيِّ محمَّد ﷺ وعلى آله وأصْحَابِهِ وأزواجِهِ وأتباعِه ومَنْ تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وآخرُ دعْوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

د. محمّد أحمد محمّد عبد القادر ملكاوي

أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان

قسم أصول الدِّين ـ كليَّة الشَّريعة ـ جامعة اليرموك

الاثنين/ ٢٨ / ربيع الأول/ ١٤٣٣هـ

٢٠/ شباط/ ٢٠١٢م

تقديم

أ. د. عبد المقصود حامد

لقد اطَّلعْتُ على كتاب (الأثر الثَّمين في نصرة عائشة رضي الله عنها أمّ المؤمنين) لمؤلِّفه الأخ الأستاذ أحمد محمود الشَّوابكة، فَنَالَ إِعجابي لما يأتي :

أوَّلاً : اعتماد الكتابِ على النُّصوصِ الصَّحيحةِ مِنَ السُّنَّة، وحُسْن توظيفها فيما قيلت فيه.

ثانياً : العرض الهادِئ والهادِف والبنَّاء دون تجريح لأحدٍ مِنَ المخالفين، الَّذي أكسب الكتابَ صورةَ البَحْثِ العلميِّ.

ثالثاً : شمل الكتاب إلى جانب مناقب أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها البحث في موضوعين هامَّين، أحدهما في عدالة الصَّحابة أجمعين، والآخر في الوقاية من الفتن في كلِّ زمان وحين .

شَكَرَ الله للمؤلِّفِ، وأعاننا وإيَّاه على كلِّ خير، والحمد لله ربِّ العالمين.

أ.د. عبد المقصود حامد عبد المقصود

أستاذ العقيدة والفلسفة

ومستشار رئيس جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة

الأحد/ ١٨/ ربيع الثّاني/ ١٤٣٣هـ

١١/ آذار/ ٢٠١٢م

المقدمة

الحَمْدُ لله الَّذي أَلَّف بين قلوبِ أَهْلِ الإيمان وجعلهم بنعمته إِخواناً، وجمعهم على حُبِّ النَّبيِّ ﷺ وآله أصولاً فلم يتفرَّقوا أغصاناً وأفناناً، ووعدهم من لدنه مغفرةً ورضواناً. والصَّلاة والسَّلام على المبعوثِ رحمة للعالمين ﷺ، وعلى أصحابه البَرَرَةِ المتَّقين، وعلى أزواجه الطَّيِّبات المطيَّبات الطَّاهرات المطهَّرات أمَّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ، وعلى التَّابعين بإحسَانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد، فَمِنْ حُقوقِ الله تعالى على عباده صَدُّ عاديات الأدعياء وأباطيل الدُّخلاء، عن الإسلام ونبيِّ الإسلام ﷺ وأصحابه الكرام، بالَّتي هي أحسن للَّتي هي أقوم، وبالحجَّة والبرهان، والدُّعاء باللِّسان والقلب والجنان، أن يهديهم الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

وقد أَلَّف وصنَّف وأرَّخ وتَرْجَمَ كثيرٌ من الأئمَّة الأعلام وأربابُ الأقلام، ممَّن سَلَفَ وخَلَفَ كتباً عن أمِّ المؤمنين عائشة ﵂، فمنهم من أجاد المطلع والمقطع ولم يَأْتَل، ومنهم من عُدَّت سقطاتُه وأُحْصِيت هفواته وحُفِظَت فَلَتاتُه، ومنهم من غَثَّ حديثُه وموَّه باطله حتَّى شبَّهه بالحقِّ، بِلُغَةٍ فيها سِحْرٌ ودهاء، ومكر وبلاء، وَعَدَّ نَفْسَهُ من العلماء الأجلَّاء ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ... ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة] .

وكم هم الَّذين يضمرون حقداً وغيظاً، ويظهرون مخالصةً وودّاً، فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن اختلاف الأقلام ، والكتب الَّتي جرَّت النَّوائب العِظام الجِسَام ، وتربَّى

عليها أجيال وأقوام.

وأنا أعلم أنَّه لا يخلو زمانٌ من منافقين، فالخير والشَّرُّ له وارثون، فلا عَجَبَ أن نسْمَعَ مَنْ يتحدَّث بالإفك ويلوكه، ويجمعه ويفرِّقه، ويلمّ شَعَثه ويشيعه، ويقْشِره ويخفيه، وينْشُره ويفشيه.

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس] يجهل أكثرُهم أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم نصيباً من الإثم؛ لمتابعته ومشايعته رأس النِّفاق ابن أبيّ، فلم يكن هذا ليقع إلّا من منافق مارق، أو فاسق هالك ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر].

ويا خَيْبَةَ مَنْ يحبُّ أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [النّور]. والطَّامَّة أنَّه لا ينعق ناعق إلَّا وجدت مَنْ يسارع الوثْبَةَ إليه، فلكلِّ ساقطة لاقطة، ولكلِّ ثوب لابس.

والله يشهد أنَّني ما وضعت هذا الكِتابَ الصَّادع الرَّادع إلّا لأظهرَ بالحجَّة على كلِّ متحيِّز إلى فئة ترجع إلى الأهواء والآراء: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال].

ولا ريب أنَّ مُفَارَقَةَ أهل الأهواء في الدُّنيا خَيْرٌ من مُرَافَقَتِهم في الآخرة، وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصَّافات].

وقد جَهَدْتُ جَهْدِي لأقيم حقّاً، أو أهدم باطلاً؛ حتَّى يعرف الحقَّ مَنْ جهله، ويَرْعَوِي عن البَغْي مَن اقترفه، وعذري أنَّه ليس على مجتهد بَذَلَ وُسْعَه في

طَلَبِ الحقِّ مِن عتب :

فإنْ لامَنِي القَـــومُ قُلْـتُ أَعْـذِروا   فليس على أَعْرَجٍ مِـــنْ حَـــرَج

وأين يذهب مَنْ تزيَّا بزيِّ العلماء، وتعمَّم بعمائمهم، ثمَّ تولَّى عن آيات الله و﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ... ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء] واتَّبع الهوى ليَضِلَّ عن سبيل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[ص].

كذلك وضعته عظةً وعبرةً وتذكرة لِمَنْ لم يَسْلَمِ الصَّحابةُ من لِسَانه ويده، ولمن بَسَطَ لسَانَهُ في أعراضِهم، وأكل وشبع من لحومهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾﴾ [طه] ولا أيأس من رَوْحِ الله، ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾﴾ [الطّلاق].

ولم آلُ جَهْداً في نظمه وتأليفه، وتَرْصِيفِه وترصيعه، وزبرجته وتحبيره؛ فخراً بلغتنا العربيَّة لغة القرآن، ولغة سيِّد الأنام ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ. ولم أدَّخِر وُسْعاً ولا سَعْياً ببلاغةِ بلاغه، بل سلكت إليها كلَّ سبيل؛ التزاماً بما ألزمنا الله تعالى بِه، فقد قال ﷻ : ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت]، ذلك أنَّ البلاغ المبين يكشف كُلَّ شبهة، ويزيل كلَّ لُبْسَة، ويدرَأُ كلَّ مفسدة ، ويدفَعُ كُـلَّ إشكال ، ويجلِّي المُوَرَّى ، ويوضِّح المُعَمَّى، ويجعل الحقَّ كَالشَّمْسِ في رَيْعَان الضُّحَى، لا يتمارى فيه اثنان .

ولذلك وَصَفَ الله تعالى كتابه بالمبين في غير آيـة، فقال : ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الزّخرف] ، ووصف البلاغ المكتوب على الرُّسـل بالبـلاغ المبـين،

فقال : ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النَّحل] .

ولا ريب أنَّ البَلاغَ المبين من خصائص أسلوبِ النَّبيِّ ﷺ، الَّذي أَعْجَزَ بَلاغُهُ البُلغَاءَ، وتَبَلَّدَ أَمَامه الفُصَحَاءُ؛ فقد أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِم، قَالَ ﷺ :" بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ "(١) .

وما مِنْ شكٍّ أنَّ الموعظة بالكلمة البليغة لها أثرها وتأثيرها حتَّى على الكافرين والمنافقين، قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النِّساء] فالآية فيها فضل البلاغة والفصاحة.

ومع هذا لا يخلو زماننا الَّذي قَلَّ فيه العلم وكثر فيه الظُّلم ممَّن رَغِبَ عن بيانه ﷺ، وزهد في بلاغه، وممَّن استحبَّ العمى على الهدى فناله في أحبِّ النَّاس إليه، ألا بِئْسَ ما قدَّمت أيديهم ليوم الحِسَاب !

وأنا أعْلمُ ـ وليتهم يعلمون ـ أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها شَغَلَت العُلماءَ المتقدِّمين والمتأخِّرين، وأثارت برزانة عقلها وغزارةِ علمِها إجلالَ السَّلفِ والخلف، بل لا توجد امرأةٌ بَرَزَ اسْمُها في تاريخ الإِسْلامِ والمسلمين، وحظيت باهتمام الباحثين والدَّارسين عَبْرَ القرون كما حظيت به عائشة رضي الله عنها، فهيهات أن يجود الزَّمان بمن يشقّ غبارها، أو يدنو من آثارها، فكيف باللَّحاق بها ! وأين في النِّساء مثل عائشة رضي الله عنها ؟! الرَّاجحة في موازين العقل، السَّابقة في ميادين الفضل؛ فلا عَجَبَ أن أَسِيْرَ خَلْفَ السَّلف بِقَلْبٍ بِسِيرَتِها أَسِير .

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٧٦) كتاب التّعبير.

كما أعلم أنَّ الله تعالى أغناها ﷺ عن دفاع كُلِّ أحد، فقد تولَّى الله ﷻ الدِّفاع عنها وعن المؤمنين، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجّ]، وأعلم أنَّ الله تعالى حَسْبُها، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال]، وأنَّه وليُّها، ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة] وأنَّه أنزل في إخلاء ساحتها عشر آيات بيِّنات نيِّرات.

لكن مضَّني سماعُ ثَلْبِهم وقَرْفِهم لمن زكَّاه اللهُ وقَرَظَه وأَطْرَاه، وأمرضني أن أظهروا العداوة ودَقُّوا عِطْرَ مَنْشِمِ، ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وصار في صدْري بلابِلُ تقطِّع الأنفاسَ أَسَفاً على ما آل إليه أمْرُ المسلمين !

لكن مهما طالت الأيدي وقصرت، فستظلّ دعوتُهم صَرْخَةً في وادٍ، أو ضربةً في حديد بارد، أو نفخةً في رَمَاد، أو سحابةَ صَيْفٍ سُرْعَان ما تنقشع وتتكشَّف، فالحقُّ له مقامٌ ومقال :

الحقُّ أَبْلَجُ لا تَزِيغُ سَبِيلُهُ وَالحقُّ يَعْرِفُهُ أُولُو الألبَابِ

فلا يضرُّ عالماً جَهْلُ جَاهِلٍ، ولا يضرُّ شريفاً عيبُ وضيعٍ، وكفى بالمرءِ شرّاً أنْ يقع في الصَّالحين، وهو ليس منهم ! وصدق القائل :

ذو العقلِ لا يَسْلَمُ مِن جاهلٍ يسومُهُ عَسْفاً وإِعناتا

وقد جعلت هذا الكتاب في أَقسام ثمانية، وضمَّنته من الآيات المحكمات، والأحاديث القاطعات، والحجج الباهرات، والبراهين السَّاطعات، والأخبار المسندات ما يشرح الصُّدور، ويداوي المصدور.

وقد نثرت من نثره النَّظيم كلَّ درَّة تُزِيل ظُلْمَةَ اللَّيل البهيم: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤ ﴾ [الجمعة].

وكان صدور هذا الكتاب أُمْنِية قبل أن توافيني المنيَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ...۝٤٣ ﴾ [الأعراف].

وختاماً، اللهَ أسألُ أن يُعِيْنَ مَنْ أعانني في هذا الكتاب، وأن يثيبه النَّعِيمَ المُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وأن يعود هذا الكتاب على مَنْ سعى في نشره بالخير العتيد، والنَّفع الَّذي لا ينقطع ولا يبيد، وأن يجزي خيراً مَنْ أقال الكَبْوة، وتدارك الهفوة، وسَدَّ الخلل، وأصلح الزَّلل، وأن ينفع به من قرأه أو نظر فيه النَّفع العميم، والخير السَّابغ الجسيم، وأن يجعله في صحائف أعماله يوم الدِّين: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ۝١٩ ﴾ [الانفطار] وآخر دعوانا ﴿أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ [يونس].

المؤلِّف

أحمد محمود الشّوابكة

أبو عبيدة

القسم الأوَّل
ترجمة عائشة رضي الله عنها

نسبها

هي عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق أمّ المؤمنين رضي الله عنها، تكنَّى أمَّ عبد الله، والدها عَبْدُ الله بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ القرشي التيمي، أبو بكر الصِّدِّيق بن أبي قحافة، خليفة رسُولِ الله ﷺ . ويجتمع نسب أبي بكر رضي الله عنه مع النَّبيِّ ﷺ في مرَّة بن كعب، وعليه فأمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها يتَّصل نسبها بنسب خير خلق الله تعالى محمَّد ﷺ، وهي من قبيلة تيم، ومن أسرة سبقت إلى الإسلام.

مولدها رضي الله عنها

ولدت عائشة رضي الله عنها في الإسلام بعد مبعثه ﷺ، وقبل الهجرة بنحو ثمان سنين ، كانت تقول :" لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ"(١).

أمّها أمّ رومان رضي الله عنها

أمُّها الصَّحَابيَّة الجليلة أُمُّ رُومَانَ بِنْتُ عَامِرِ بْنِ عُوَيْمِرِ الكنانيّة ، واسمها زينب ، وقيل : دعد . أسلمت قديماً كما يدلُّ عليه كلام عائشة رضي الله عنها، أنَّها وجدت أبويها : أبا بكر، وأمَّ رومان منذ عقلت، وهما يدينان دين الإسلام . وقد هاجرت أمُّ رومان رضي الله عنها بعدما استقرَّ أبو بكر رضي الله عنه في المدينة.

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٢٢) كتاب الصّلاة .

إخوتها رضي الله عنها

تزوَّج أبو بكر رضي الله عنه في الجاهليَّة قتلة، أو قتيلة بنت عبد العزَّى القرشيَّة العامريَّة، واختلف في إسلامها، فولدت لـه : عبد الله ، وأسماء (ذات النِّطاقين) ، وتـزوَّج أمَّ رومان، وولدت له : عبد الرَّحمن، وعائشة.

وتزوَّج في الإسلام أسماء بنت عميس، وولدت له محمَّداً في طريق المدينة إلى مكة في حَجَّةِ الوَدَاع كما ثبت عند مسلم في حديث جابر بن عبد الله الطَّويل، وتزوَّج حبيبة بنت خارجة، وولدت له بعد وفاته أمَّ كلثوم .

نشأتها رضي الله عنها

نشأت رضي الله عنها في بيت أبيها أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، أعلم العرب قاطبة بِأَنْسَاب قريش، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لحسّان رضي الله عنه :" لاَ تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا ـ وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا ـ حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي"(1). وقد شابهت أباها في صفات عديدة وخلائق حميدة، فقد ورثت عنه الصِّدق، فهي الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق.

وكان الصَّادق الأمين صلى الله عليه وسلم قد أطلق على أبيها لقب الصِّدِّيق، حَدَّثَ أَنَس رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم صَعِدَ أُحُدًا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم :" اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ"(2). والصِّدِّيق مرتبة دون الأنبياء وفوق الشُّهداء، قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ...﴿٦٩﴾﴾ [النّساء] .

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٤٩) كتاب فضائل الصّحابة.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٩٧) كتاب فضائل الصّحابة.

فأبوها أبو بكر ﷺ ليس ككلِّ الآباء ، فقد شابه النَّبِيَّ ﷺ في خلال محمودة وخصال مشهودة، فإلى جانب صفة الصِّدق، وَصَفَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ في حديث الهجرة بصفات اشتهر بها النَّبيُّ ﷺ، فقد قال له مستغرباً لَمَّا لقيه خارجاً في طريقه إلى الحبشة : "إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ ، وَلَا يُخْرَجُ ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ "[1] .

وهي نظير صفات النَّبيِّ ﷺ الَّتي وصفت بها خديجة ﷺ النَّبِيَّ ﷺ في حديث بدء الوحي حيث قالت للنَّبيِّ ﷺ :"إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ "[2] .

ولَمّا انطلقت خديجة به ﷺ بعد ذلك إلى ابن عمِّها وَرَقَة، استبعد ﷺ أن يخرجه قومه؛ لما جمع من مكارم الأخلاق ، فلمّا قال له وَرَقَةُ : " ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومُكَ، فقال رسول الله ﷺ : أومخرجيَّ هم ؟! قال : نعم؛ لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلّا عودي"[3] .

ولعلَّ ابْنَ الدَّغِنَةِ استدلَّ بمكارم الأخلاق الَّتي حازها أبو بكر عَلَى أَنَّه لَا يَخْرُج. ولا عجبَ أن يجمع أبو بكر هذه الأخلاق كُلَّها، فقد كان صاحِبَ صَاحِب الخلق العظيم، الَّذي قال له ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] ، فلم

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص٥٨) كتاب الكفالة .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج٢/ ص٢٠٠) كتاب الإيمان . والبخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٣) كيف كان بدء الوحي .

(٣) المرجع السّابق .

يمرَّ يومٌ إلّا ويزوره النَّبيُّ ﷺ صباحاً ومساءً، فطوبى لأعين اكتحلت برؤيتك يا رَسُولَ الله ﷺ مؤمنة !

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ في سياق حديث الهجرة : " وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ طَرَفَي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المسْلِمُونَ خَرَجَ أَبو بَكْرٍ مُهَاجِراً قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ[1]، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ[2]، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبا بَكْرٍ ؟ فَقَالَ أَبو بَكْرٍ : أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ، فَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ : إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ، وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ، فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ.

فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ المعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ؟!

فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقَالُوا لِابنِ الدَّغِنَةِ : مُرْ أَبَا بَكْرٍ ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ ؛ فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلَاةِ وَلَا الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ ، وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَتَقَصَّفُ

---

(١) مَوْضِع جِهَة الْيَمَن .

(٢) قَبِيلَة مِنْ بَنِي الْهُون .

عَلَيْهِ نِسَاءُ المشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِن المشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ :

إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالْقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا فَأْتِهِ فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَأَتَى ابنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، قَالَ أَبو بَكْرٍ : إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ، وَهُمَا الْحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَعَ إِلَى المدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ "[1].

الهجرة

لم تبلغْ أُسْرَةٌ في التَّضحية والبطولة والفداء ما بلغته أسرةُ أبي بكر ﷺ، فقد بادر جميعُ أفراد هذه الأسرة إلى الإسلام، عدا عبد الرّحمن شقيق عائشة ﷺ، فقد

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص٥٨) كتاب الكفالة .

تأخَّر إسلامه .

وقدَّمت هذه الأسرةُ أعْظَمَ مثل في الجِهَاد يوم الهجرة، الَّتي تعدُّ نقطة تحوّل في تاريخ الدَّعوة، حتَّى أَمَرَ عُمَرُ ﷺ الصَّحابة في خلافته أن يؤرِّخوا بها، قال عمر ﷺ :

" الهجرة فرَّقت بين الحقِّ والباطل فأرِّخوا بها"[1]، وقال سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ : " مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا مِنْ وَفَاتِهِ مَا عَدُّوا إِلَّا مِنْ مَقْدَمِهِ المدِينَةَ "[2] .

وقد روى البخاريّ قصّة الهجرة بطولها، وأقتطع منها دور هذه الأسرة الكريمة، قالت عائشة ﷺ: " وَتَجَهَّزَ أَبو بَكْرٍ قِبَلَ المدِينَةِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي، فَقَالَ أَبو بَكْرٍ : وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ ، وَهُوَ الْخَبَطُ[3]، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْماً جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ[4]، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ : هَذَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَقَنِّعاً فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيـهَا ، فَقَالَ أَبو بَكْرٍ : فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، والله مَا جَاءَ به فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ : فَجَاءَ

---

(١) ابن حجر " فتح الباري" (ج٧/ ص٢١٥) .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٦٧) كتاب المناقب .

(٣) الخبط : ورق الشَّجر يضرب ويخبط حتَّى يسقط .

(٤) كان لا يخطئه يوم إلَّا أتى منزل أبي بكر طرفي النَّهار، فلمَّا عزم على الهجرة جاءهم في الظَّهيرة متقنِّعاً وقد غطَّى رأسه .

رَسُولُ الله ﷺ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ : أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ أَبو بَكْرٍ : إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ[1] ـ بِأَبِي أَنْتَ[2] ـ يَا رَسُولَ الله، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ، فَقَالَ أَبو بَكْرٍ: الصَّحَابَةَ[3] ـ بِأَبِي أَنْتَ ـ يَا رَسُولَ الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : نَعَمْ، قَالَ أَبو بَكْرٍ : فَخُذْ ـ بِأَبِي أَنْتَ ـ يَا رَسُولَ الله، إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : بِالثَّمَنِ[4].

قَالَتْ عَائِشَةُ : فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ[5] الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لهما سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ به عَلَى فَمِ الْجِرَابِ؛ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ .

قَالَتْ : ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبو بَكرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ[6]، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ[7] بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِـنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِـن الْعِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي

---

(١) إشارة إلى ابنتيه : عائشة وأسماء ، كما فهم من طرائق أخرى للحديث .

(٢) التَّقدير : أنت بأبي مفديّ.

(٣) أي أريد المصاحبة .

(٤) أحبَّ ﷺ أن تكون هجرته من ماله .

(٥) أحثّ : اسم تفضيل من الحثّ ، وهو الإسراع .

(٦) أي حاذِق سريع الفهم .

(٧) من الكيد ، أي يُكَاد لهما بمكروه .

رِسْلٍ[1]، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا[2] حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ..."[3].

هجرتها ﷺ وتحمّلها للمشاق

لا شكَّ أنَّ الهجرة أشقُّ على النِّساء من الرِّجال، فالرِّجال من شأنهم السَّعي والضَّرب في أكباد الأرض ، فبعد أن أقام النَّبيُّ ﷺ وصاحبه في المدينة مع المسلمين مهاجرين وأنصار، هاجرت عائشة وأسماء معاً مع بنات النَّبيِّ ﷺ ومع آل أبي بكر، فنزلوا جميعاً المدينة.

وقد تحمَّلت عائشة ﵂ كغيرها المصاعب في طريق الهجرة، روت عائشة ﵂، قالت :" قدمنا مهاجرين، فسلكنا في ثنيَّة صعبة، فنفر جمل كُنْتُ عليه نُفُوراً مُنكراً، فوالله ما أَنْسَى قول أمِّي: يا عريسة، فركِبَ بي رأسَه، فَسَمِعْتُ قائِلاً يقول: ألقي خِطَامَه، فألقيته، فقام يستدير كأنَّما إنسانٌ قائمٌ تحته"[4].

ولَمَّا وصلت عائشة المدينة نزلت مع أهلها في دار بَنِي الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ ، ومرضت بالحمَّى حتَّى تمزَّق شعرها، روى البخاري عنها أنَّها ﷺ قالت: " فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ فَوُعِكْتُ فَتَمَرَّقَ (انْتَتَفَ) شَعَرِي فَوَفَى[5]

---

(١) الرِّسْل : اللَّبن .

(٢) الرَّضِيفُ : اللَّبن المَرْضُوفُ ، وهو الَّذي طُرِحَ فيه الحجارة الْمُحْماةُ ، ليذْهب وخْمُه .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٥٥) كتاب المناقب .

(٤) الهيثمي "مجمع الزوائد" (ج٩/ ص٢٢٨) وقال: رواه الطَّبراني وإسناده حسن.

(٥) أي كَثُر وَفِي الْكَلَام حَذْف تَقْدِيره ثُمَّ فَصَلْتُ مِن الحمَّى فَتَرَبَّى شَعرِي حتَّى وصل المنكبين.

جُمَيْمَةً[1]"[2]. وعند مسلم أنَّها مرضت شهراً كاملاً، تقول عائشة رضي الله عنها: "قَدِمْنَا المَدِينَةَ فَوُعِكْتُ شَهْراً فَوَفَى شَعرِي جُمَيْمَةً"[3].

وكانت المدينة عند قدومهم وبِئَة، فلمّا رأى النَّبيُّ ﷺ شكوى أصحابه، دعا لها أن يصحِّحها وينقل حمَّاها إلى الجُحْفَة فأجاب الله دعوته، تقول عائشة رضي الله عنها: " قَدِمْنَا المَدِينَةَ وَهِيَ وَبِيئَةٌ، فَاشْتكَى أَبُو بَكْرٍ، وَاشْتكَى بِلَالٌ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ شَكْوَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَحَوِّلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ[4] "[5].

وفي الحديث من الفقه: جواز التَّداوي بالدّعاء لرفع الوباء وكشف البلاء، وفيه الدُّعاء للمسلمين بالبركة والرَّخاء ورفع الدَّاء، وجواز الدُّعاء على الأعداء لشغلهم عن الدَّعوة، فقد دعا ﷺ بنقل الحمَّى إلى الجحفة وكانت دار شرك فكفى الله المؤمنين.

وكان ﷺ قد دعا على قريش لمَّا أبطؤوا عن الإسلام واستعصوا عليه ورأى منهم إدباراً، فقال: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ"[6].

---

(١) جُمَيْمَة : تصغير جُمَّة، والجُمَّة من شعر الرأس ما سَقَط على المَنْكِبَيْن ،وصار إلى هذا الحدّ.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٥١) كتاب المناقب .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي"(م٥/ ج٩/ ص٢٠٧) كتاب النكاح .

(٤) ميقات أهل الشّام وكانت إذ ذاك يسكنها يهود .

(٥) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي"(م٥/ ج٩/ ص١٥٠) كتاب الحجّ .

(٦) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٣/ ج٦/ ص١٩) كتاب التَّفسير .

بناء النبي ﷺ بها رضي الله عنها ووصف زفافها

كان النَّبيُّ ﷺ تزوَّج من عائشة رضي الله عنها مُتَوَفَّى خَدِيجَةَ رضي الله عنها، قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث، وبعد الهجرة بنى بها بالمدينة أوَّل مقدمه في السَّنة الأولى، تقول عَائِشَةُ رضي الله عنها :

" فَأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ، وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ، وَمَعِي صَوَاحِبُ لِي، فَصَرَخَتْ بِي فَأَتَيْتُهَا، لاَ أَدْرِي مَا تُرِيدُ بِي، فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفَتْنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَإِنِّي لَأُنْهِجُ حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفَسِي، ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي الدَّارَ، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي البَيْتِ، فَقُلْنَ عَلَى الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَسُولُ الله ﷺ ضُحىً، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ "[1].

ومن فقه الحديث جواز تزويج الأب لابنته الصَّغيرة، ومشروعيَّة اجتماع النِّساء لإعلان النِّكاح، واستحباب الدُّعاء بالخير والبركة للزَّوجين ممَّن حضر الدَّعوة، وأنَّ تهنئة النِّكاح لها صيغ مشروعة، فقد نهى النَّبيُّ ﷺ أن يُقالَ للمتزوِّج : بِالرِّفَاءِ[2] وَالْبَنِينَ، تهنئة الجاهليَّة كما تقول العامّة اليوم على عادة الجاهليَّة.

روى أحمد عنِ الْحَسَنِ ، أَنَّ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٥١) كتاب المناقب .

(٢) بِالإِلْتِئَامِ والاتِّفاقِ وحُسْنِ الاِجْتِمَاعِ والطُّمَأنينةِ .

بَنِي جُشَمَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ القَوْمُ، فَقَالُوا: "بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ ، فَقَالَ : لَا تَقُولُوا ذَلِكَ[1]، قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا يَزِيدَ؟ قَالَ: قُولُوا: بَارَكَ اللهُ لَكُمْ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمْ؛ إِنَّا كَذَلِكَ كُنَّا نُؤْمَرُ"[2].

هذا وقد قدَّم النَّبيُّ ﷺ لعائشة رضي الله عنها ولصواحبها اللَّبن، ملاطفة لها، فَخَفَضَتْ رَأْسَهَا وَاسْتَحْيَتْ منه، ففي حديث أَسْمَاء بِنْت يَزِيدَ بْن السَّكَنِ، قالت: وإِنِّي قَيَّنْتُ (زيَّنت) عَائِشَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ جِئْتُهُ، فَدَعَوْتُهُ لِجِلْوَتِهَا[3]، فَجَاءَ، فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِهَا، فَأُتِيَ بِعُسِّ لَبَنٍ، فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَخَفَضَتْ رَأْسَهَا وَاسْتَحْيَتْ. قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَانْتَهَرْتُهَا، وَقُلْتُ لَهَا: خُذِي مِنْ يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: فَأَخَذَتْ، فَشَرِبَتْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ لها النَّبِيُّ ﷺ: "أَعْطِي تِرْبَكِ"[4].

وقد تغيَّر حال النّساء كثيراً في عهدنا عن عهد النُّبوَّة، وهذه عائشة رضي الله عنها، تقول : " لَوْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ المَسْجِدَ"[5].

فإذا كان حال النِّساء قد تغيَّر في حياة عائشة رضي الله عنها من لبس الزِّينة وحسن الثياب، فالحال بعد موت عائشة رضي الله عنها أبعد مِنْ ذلك!

---

(١) لعلّ علّة النّهي عن تهنئة الجاهليّة أنّها خلت من اسم الله تعالى.

(٢) أحمد "المسند" (ج٢/ ص٣٥٤/ رقم١٧٣٩) وإسناده صحيح .

(٣) أي للنّظر إليها .

(٤) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٥٩٦/ رقم٢٧٤٦٣) وقال الألباني : أخرجه أحمد مطوّلاً ومختصراً بإسنادين يقوّي أحدهما الآخر "آداب الزّفاف" (ص٧).

(٥) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٢/ ج٤/ ص١٦٤) كتاب الصَّلاة .

إتيان الملك النبيّ ﷺ بصورة عائشة ﵂ قبل أن يتزوجها في سرقة من حرير

قال النَّبيُّ ﷺ لعائشة:" رَأَيْتُكِ فِي المَنَامِ يَجِيءُ بِكِ المَلَكُ فِي سَرَقَةٍ[1] مِنْ حَرِيرٍ، فَقَالَ لِي: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِكِ الثَّوْبَ فَإِذَا أَنْتِ هِيَ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله يُمْضِهِ"[2].

صفة عائشة ﵂

كانت عائشة ﵂ بيضاء، فلمّا دَخَلَ الْحَبَشَةُ المَسْجِدَ يَلْعَبُونَ، قَالَ لها النَّبِيُّ ﷺ :" يَا حُمَيْرَاءُ، أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِم ؟"[3]. أي يا بيضاء، تصغير الحَمْرَاء، وهو تصغير إكرام ورحمة. فالعرب كانت تقول لمن علا لونه البياض أحمر، ومنه قوله ﷺ : " بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ "[4].

وكانت إلى الطُّول أقرب، فقد وصفت صفيَّة بالقِصَر، وقالت : "يَا رَسُولَ الله، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ ـ وَقَالَ بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَعْنِي قَصِيرَةً ـ ، فَقَالَ : لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ ، لَوْ مُزِجَ بِهَا مَاءُ البَحْرِ مَزَجَتْ"[5].

---

(١) قِطْعَة من جيّد الحرير .

(٢) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٣١) كتاب النّكاح.

(٣) النّسائي "السّنن الكبرى" (ج٨/ ص١٨١/ رقم٨٩٠٢) كتاب عشرة النّساء، وإسناده صحيح، وقال الحافظ في "الفتح" (م٢/ ص٣٥٥) بعدما عزاه للنِّسائي : إسناده صحيح، وصحّحه الألباني في "الصحيحة"(ج٧/ ص٨١٧/ رقم٣٢٧٧) .

(٤) أحمد "المسند" (ج١١/ ص٣٩٧/ رقم١٤١٩٨) وإسناده صحيح .

(٥) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٦٢٦/ رقم٢٥٤٣٦) وإسناده صحيح على شرط مسلم .

وكانت في حداثة سنِّها نحيفة خفيفة قليلة اللَّحم، وكانت النِّساء عامَّة في ذلك العصر خفافاً لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْم، حتَّى الّذين كانوا يحملون هودجها فارغاً يحسبونها فيه، روى البخاري عنها رضي الله عنها، قالت :

" وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ (القليل) مِن الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ"(١).

ثمَّ لّما كبرت بَدُنْتُ ورهقها اللَّحمُ، أخرج أحمد بسند صحيح عن هِشَام عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ : خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ : تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي : تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ تَقَدَّمُوا : فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ : تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ : هَذِهِ بِتِلْكَ"(٢).

وكانت عائشة رضي الله عنها وضيئة الوجه، وسيمة، حسنة؛ فمن وصيَّة عمر رضي الله عنه لابنته حفصة، في رواية عبيد الله بن عبد الله، قال لها :" وَلَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ وَأَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ عَائِشَةَ "(٣) وفي رواية

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٥) كتاب التّفسير .

(٢) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص١٧٧/ رقم٢٦١٥٥) .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٠٥) كتاب المظالم .

عُبَيْدِ بنِ حُنَيْنٍ عند الشَّيخين: " لَا يَغُرَّنَّكِ هَذِهِ الَّتِي أَعْجَبَهَا حُسْنُها حُبُّ رَسُولِ الله ﷺ إِيَّاهَا يُرِيدُ عَائِشَةَ "[1]. وفي رواية مَعْمَر عند مسلم :" وَلَا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْكِ ، يُرِيدُ عَائِشَةَ"[2].

وكانت رضي الله عنها ذكيَّة، قويَّة الذَّاكرة، قويَّة الحافِظَة؛ فقد حفظت عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وحملت عنه الحديث الشَّريف ووعته وأدَّته عن ظهر قلب لم تَخْرِم منه حرفاً.

صداق عائشة رضي الله عنها

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ قَالَ: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: كَمْ كَانَ صَدَاقُ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَتْ: كَانَ صَدَاقُهُ لِأَزْوَاجِهِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشّاً، قَالَتْ: أَتَدْرِي مَا النَّشُّ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَتْ: نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَتِلْكَ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَهَذَا صَدَاقُ رَسُولِ الله ﷺ لِأَزْوَاجِهِ"[3]. والصَّداق (المهر) حقّ للمرأة في الإسلام، قال تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ...﴿٤﴾ ﴾ [النّساء].

قَسَم النبيّ ﷺ لعائشة رضي الله عنها ليلتين وليلة لسائر نسائه

لَمَّا كَبِرَتْ أمُّ المؤمنين سَوْدَة رضي الله عنها وتقدَّمت في العمر وَهَبَتْ يومها لعائشة ابتغاء سُرُور رسول الله ﷺ، عنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ :

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٦٩) كتاب التّفسير .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٥/ ج١٠/ ص٩٢) كتاب الطّلاق .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي"(م٥/ ج٩/ ص٢١٥)كتاب النّكاح.

" وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ الله ﷺ"[1].

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ:" مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلَاخِهَا[2] مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، مِنِ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدَّةٌ[3]، قَالَتْ: فَلَمَّا كَبِرَتْ، جَعَلَتْ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ لِعَائِشَةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ جَعَلْتُ يَوْمِي مِنْكَ لِعَائِشَةَ، فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ، يَقْسِمُ لِعَائِشَةَ يَوْمَيْنِ، يَوْمَهَا وَيَوْمَ سَوْدَةَ"[4].

حجرتها رضي الله عنها

أسكن المصطفى ﷺ عائشة رضي الله عنها في حجرة ملاصقة للمسجد النَّبويِّ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد بنى حجرات لأمّهات المؤمنين بعد بناء المسجد، وقد جاء ذكر تلك الحجرات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات]، وفي الصَّحيح، قال ﷺ:" مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ ـ يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ ـ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ"[5].

وكان النَّبيُّ ﷺ إذا اعتكف يمدُّ رأسه إلى عائشة رضي الله عنها مِن المسجد ويُدْنِيه منها، فتغسله وتسرّحه، تقول عائشة رضي الله عنها:" كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصْغِي إِلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٦٥) كتاب الشّهادات.

(٢) المسلاخ : الجلد ، ومعناه أن أكون أنا هي، كَأَنَّهَا تَمَنَّت أَنْ تكونَ في مِثْل هدْيها وطريقتها.

(٣) قوّة نفس وصلابة في الدّين.

(٤) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٥/ ج١٠/ ص٤٨) كتاب النّكاح.

(٥) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٠) كتاب الفتن.

مُجَاوِرٌ[1] فِي المَسْجِدِ، فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ"[2]. وعند مسلم عنها ﵂: " كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُخْرِجُ إِلَيَّ رَأْسَهُ مِنَ المَسْجِدِ، وَهُوَ مُجَاوِرٌ، فَأَغْسِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ"[3].

وقد اسْتُهِلَّتِ السَّمَاءُ ذات ليلة والنَّبيُّ ﷺ معتكف، فَأَمْطَرَتْ حَتَّى سَالَ سَقْفُ المَسْجِدِ، وكان من جريد النَّخل، فلمَّا أقيمت صلاةُ الصُّبح سَجَدَ ﷺ في الطِّين والماء، فلمَّا فرغ من صلاته رأى بعض الصَّحابة أثَرَ الطِّينِ فِي أَرْنَبَتِهِ وَجَبْهَتِهِ، قَال أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ:" مُطِرْنَا لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، فَوَكَفَ المَسْجِدُ فِي مُصَلَّى رَسُولِ الله ﷺ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدِ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَوَجْهُهُ مُبْتَلٌّ طِينًا وَمَاءً"[4].

ولعلَّ بناء الحجرات كان على نعت بِنَاء المسجد مِن لبن وجريد النَّخل، وفي "الأدب المفرد" بسند صحيح عن دَاوُد بن قَيْس، قَالَ: " رَأَيْتُ الْحُجُرَاتِ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ"[5].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ بسند صحيح : " أَنَّهُ رَأَى حُجَرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ جَرِيدٍ مَسْتُورَةً بِمُسُوحِ الشَّعْرِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ بَيْتِ عَائِشَةَ؟ فَقَالَ: كَانَ بَابُهُ مِنْ وِجْهَةِ الشَّامِ. فَقُلْتُ : مِصْرَاعاً كَانَ أَوْ مِصْرَاعَيْنِ؟ قَالَ : كَانَ بَابًا وَاحِداً . قُلْتُ : مِنْ أَيِّ

---

(١) أي معتكف.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاري" (م١/ ج٢/ ص٢٥٦)كتاب الاعتكاف .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٢/ ج٣/ ص٢٠٩) كتاب الحيض .

(٤) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٨/ ص٦٠) كتاب الصّيام.

(٥) البخاري "صحيح الأدب المفرد" (ص١٧٣/ رقم٤٥١).

شَيْءٍ كَانَ؟ قَالَ: مِنْ عَرْعَرٍ أو ساج"[1].

وكانت الحجرات غير متطاولة في البنيان، أخرج البخاري بسند صحيح عن الحسن البصري، قال:" كنتُ أَدْخُلُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَأَتَنَاوَلُ سُقُفَهَا بيدِي"[2].

وعُرِفت حجرتها ﵂ بمهبط الوحي؛ لأنَّ الوحي هَبَطَ على النَّبيِّ ﷺ فيها غير مرَّة. وما زالت حجرتها الشَّريفة قائمة تحت القبَّة الخضراء المنيفة تضمُّ خَيْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةً.

صفة أثاث حجرتها ﵂

كان النَّبيُّ ﷺ متقلِّلاً متخفِّفاً من أمتعة الدُّنيا الفانية، وَصَفَتْ ﵂ أثاث حجرتها وذكرت أنَّ المصطفى ﷺ كان فراشه من جِلْدٍ مدبوغ حَشْوُه قِشْر النَّخل، قالت ﵂: " إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَماً حَشْوُهُ لِيفٌ"[3].

وكان المصطفى ﷺ يكره ما زَادَ عَلَى الْحَاجَةِ مِنَ الْفِرَاشِ وَاللِّبَاسِ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُ:" فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ، وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ، وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ"[4].

وكان من أثاث حجرتها وسائد من جلد حشوها ليف، فعنها ﵂: " كَانَ

(١) البخاري "صحيح الأدب المفرد" (ص٢٩٠/ رقم٧٧٦).

(٢) البخاري "صحيح الأدب المفرد" (ص١٧٣/ رقم٤٥٠).

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٧/ ج١٤/ ص٥٨) كتاب اللّباس والزّينة.

(٤) المرجع السّابق.

وِسَادَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي يَتَّكِئُ عَلَيْهَا مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ"[1].

وكان لها سرير تنام عليه، قالت عائشة رضي الله عنها:" لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي، وَإِنِّي عَلَى السَّرِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ مُضْطَجِعَةً، فَتَبْدُو لِي الحَاجَةُ، فَأَكْرَهُ أَنْ أَجْلِسَ، فَأُوذِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْسَلُّ مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ"[2].

ولم يكن في حجرتها مصباح تستضيء به، وإنَّما جُلُوساً فِي الظُّلْمَةِ، قالت رضي الله عنها:" كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِجْلاَيَ، فِي قِبْلَتِهِ فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي، فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا، قَالَتْ: وَالبُيُوتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَابِيحُ"[3].

ومَا كان عندها زَيْتٌ تَسْرُجُ بِهِ، ولو كان عندها زيت لجعلته إداماً، قالت رضي الله عنها: " لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ "[4].

وكان لها في حجرتها رَفٌّ (شِبْهُ الطَّاقِ) تضع فيه مَا تريد حفظه مِن شعير وتمر، تقول عائشة رضي الله عنها:" تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ"[5].

نداؤه ﷺ عليها رضي الله عنها وتسميتها

كان النَّبيُّ ﷺ يتلطَّف مع عائشة رضي الله عنها حتّى في ندائـه لهـا ممَّا يشعر بمحبَّته

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٧/ ج١٤/ ص٥٩) كتاب اللّباس والزّينة.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٣٠) كتاب الصَّلاة.

(٣) المرجع السَّابق.

(٤) أحمد "المسند"(ج١٨/ ص٦٣/ رقم٢٥٧٠١).

(٥) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٤٥) كتاب فرض الخمس.

الكبيرة لها، فقد ناداها (عائش) على التَّرخيم، ففي الصَّحيحين عن عائشة ﵂، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا : " يَا عَائِشَ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ، فَقُلْتُ : وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ "(١) .

ونادها (يا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيق)، أخرج أحمد عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ :" يَا رَسُولَ الله، فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] يَا رَسُولَ الله، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الخمرَ، وَهُوَ يَخَافُ الله، قَالَ : لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يخاف الله ﷻ"(٢) .

وناداها (يا حميراء) وهو تصغير حمراء لغلبة البياض عليها ويفيد التَّحبُّب، فعن أمِّ سلمة ﵂، قالت:" ذَكرَ النَّبِيُّ ﷺ خروجَ بعض أمَّهات المؤمنين، فضحكت عائشة، فقال : انظري يا حُمَيْرَاء، ألَّا تكوني أنت..." (٣).

وناداها (يا موفَّقة) روى أحمد عن ابن عبَّاس، يقول : سمعت رسُولَ الله ﷺ، يقول : " مَنْ كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بِأَبِي، فَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ ؟ فَقَالَ : وَمَنْ كَانَ لَهُ فَرَطٌ يَا مُوَفَّقَةُ، قَالَتْ : فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢١٩) كتاب المناقب. ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٥/ ص٢١٢) كتاب فضائل الصّحابة.

(٢) أحمد " المسند" (ج١٧/ ص٥٥٥/ رقم٢٥١٣٩) وحسّنه الألباني في " الصّحيحة " (ج١/ ص٣٠٤/ رقم١٦٢) .

(٣) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٩) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرِّجاه.

فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ ؟ قَالَ : فَأَنَا فَرَطُ أُمَّتِي، لَمْ يُصَابُوا بِمِثْلِي "(١).

والفَرَط : الولد الذي مات قَبْلَ والديه، وفي الحديث بيانٌ لثَوابِ مَنْ مات له ولدٌ، فاحتَسَبَهُ، وَصَبَرَ على فَقْدِه، روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ :" يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الجنَّةُ "(٢).

العلامة الّتي كان يعرف بها النبيّ ﷺ رضاها وغضبها رضي الله عنها

كان النَّبيُّ ﷺ يعلم إن كانت عائشة رضي الله عنها راضيةً عنه أم غضبى، قال لها ذات يوم : " إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قَالَتْ : فَقُلْتُ : مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، فَإِنَّكِ تَقُولِينَ : لَا وَرَبِّ محمّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ : لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ، قَالَتْ : قُلْتُ : أَجَلْ والله يَا رَسُولَ الله، مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ "(٣).

ومن فقه الحديث حسن الهجر، فقد كانت رضي الله عنها تتنكَّبُ ذِكْرَ اسمه ﷺ ، فتهجر الاسم ولا تهجر المسمَّى، وهذا بسبب الغيرة الَّتي جُبِلَ عليها النِّساء، ولذلك فقد يحدث بين الزَّوجين ما يوقع الخلاف، ولكن المرأة العاقلة لا تُعْرِض عن زوجها، ولا تسلقه بلسان حاد ولا تتجرّأ عليه، وَلَا تَنْسَى الْفَضْلَ بينها وبينه.

ومـن فقـه الحديث حُسْنُ الخُلُقِ، فلم يكن النَّبيُّ ﷺ يقابِل غضبها بغضب

---

(١) أحمد "المسند" (ج٣/ ص٣٤٤/ رقم٣٠٩٨) وإسناده حسن .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٧٢) كتاب الرّقاق.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٥٨) كتاب النّكاح .

مثله، وإنَّما كان يأخذها بالرِّفق واللُّطف والمودَّة والرَّحمة، وفي التَّنزيل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] وهذا مِن السِّياسة الشَّرعيَّة في الحياة الزَّوجيَّة.

غيرتها ﵂

مَا غارت عائشة ﵂ على امرأة للنَّبيِّ ﷺ كما غَارت على خديجة ﵂، أخرج البخاري عن عائشة ﵂ أنَّها قالت: "مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِرَسُولِ الله ﷺ كَمَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ؛ لِكَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ الله ﷺ إِيَّاهَا وَثَنَائِهِ عَلَيْهَا، وَقَدْ أُوحِيَ إِلى رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ لَهَا فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ"[1] أي من لؤلؤ مجوَّف.

ولا غرابةَ أنْ يُكْثِرَ النَّبيُّ ﷺ من ذكر خديجة ﵂ بعد موتها، فَمَنْ أحبَّ شيئاً أكثر ذِكْرَه وفاءً ومحبَّةً له، فكيف بسيِّد الأنبياء والأوفياء ﷺ! ولذلك كان ﷺ كثيراً ما يذكرها، ويثني عليها أحسنَ الثَّناء، فكانت عائشة ﵂ تأخذها الغَيرةُ، روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ:" اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ؛ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ، قَالَتْ فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ[2]، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْراً مِنْهَا "[3].

أي أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَّما سمع صوت هالة أخت خديجة تستأذن، تَذَكَّر خديجة؛ لشبه صوتها بصوت أختها، فاهتزَّ لذلك فرحاً، فقالت عائشة ﵂ ما قالت معبِّرة

---

(١) البخاري " صحيح البخاري" (م٣/ج٦/ ص١٥٨) كتاب النّكاح .

(٢) كناية عن سقوط أسنانها من الكِبَر ، فلم يبق إِلَّا حُمْرَةُ اللِّثَاةِ .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٣١) كتاب المناقب .

عن غيرتها، وأمر الغيرة معلوم أنَّه معفوٌّ عنه.

وقد فهم بعض أهل العلم من سكوت النَّبيِّ ﷺ على مَقَالَةِ عائشة رضي الله عنها أنَّها أفضل مِن خديجة، وهذا فهم محجوج بما رواه أحمد مِن أنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ لأجْلِ ذلك، وَرَدَّ عليها، وقال لها :" مَا أَبْدَلَنِي الله ـ عز وجل ـ خَيْراً مِنْهَا؛ قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي الله ـ عز وجل ـ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ"[1].

وفي الصَّحيحين مِن حديث عائشة قصَّة طريفة تبيِّن شدَّة غيرتها رضي الله عنها وفرط محبَّتها له ﷺ، حتَّى تمنَّت لو أنَّ عَقْرَباً أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُها، قالت :" كَانَ ﷺ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ القُرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلاَ تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ، تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ؟ فَقَالَتْ: بَلَى، فَرَكِبَتْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا، وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ، فَلَمَّا نَزَلُوا جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ[2]، وَتَقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي، وَلاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا "[3].

وممَّا وقع لها من الغيرة أنَّها لَمَّا كانت ليلتها ذات مرَّة، ورجع النَّبيُّ ﷺ إليها

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٤٥٠/ رقم٢٤٧٤٥) وإسناده حسن .

(٢) نبْت طيِّب الرَّائحة.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٥٤) كتاب النّكاح .ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٥/ ص٢١٠)كتاب فضائل الصّحابة .

ليلاً، فوضع رداءَه، وخلع نعليه، واضطجع حتَّى ظنَّ أنَّها قد نامت، فكره أن يوقظها خشية أن تستوحش، فأخذ رداءه وانتعل رويداً لئلَّا ينبِّهها، وفتح الباب فخرج، ثمّ أغلقه رويداً، فظنَّت عائشة رضي الله عنها أنَّه قد خرج إلى بَعْضِ أُمَّهات المؤمنين في ليلتها، فحملتها الغيرة على أن تلحق به ﷺ.

وكان جبريل عليه السلام قد ناداه وأخبره بأنَّ الله تعالى يأمره أن يأتي أهل البقيع فيستغفر لهم؛ فأتى ﷺ أهل البقيع واستغفر لهم، ثمَّ رَجَعَ ﷺ فَرَجَعَتْ عائشة رضي الله عنها، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعَتْ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلَتْ، فعَدَا فعَدَتْ، فسبقته، واضجعت في فراشها، فدخل ﷺ فرأى ارتفاع نفسها وتواتره، فسألها إن كانت هي الشَّخص الَّذي كان أمامه، فأجابته: نعم؛ فجمع كفه ﷺ ودفعها في صدرها، وأخبرها القصَّة، والقصَّة بطولها في صحيح مسلم وغيره.

قالت عائشة رضي الله عنها: "لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ (أَغْلَقَه) رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً[1]، قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: لَتُخْبِرِينِي أَوْ

---

(١) أي مالك أخذك النَّهِيجُ وارتفاع وتَواتُرُ النَّفَسِ، والرَّابِيَة الَّتِي أَخَذَها الرَّبْوُ وكذلك الحَشْيا.

لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟ قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ[1]، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ[2] ؟ قَالَ : قُولِي : السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ"[3].

ولم تسلم عائشة رضي الله عنها إلى يومنا مِمَّنْ شغب، وقَال : إنَّ عائشة لَمَّا قَال لها النَّبيُّ ﷺ :" أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟ قَالَتْ: نعم".

قلنا : عائشة رضي الله عنها أتقى لله تعالى وأعلم مِنْ أن تخاف أن يحِيفَ الله عليها ورسُولُه! وَمَنْ ذهب إلى أنَّ عائشة خشيت من الجوْر والظُّلم ليس عنده أثارة من عِلْم، ولا بقيَّة من فهم؛ فلم يدرس الأحاديث المشكلة طرقها ومخارجها وعللها.

والحَيْفُ في اللّغة: المَيْلُ فِي الحُكم، ولَعَلَّ المعنى : أخِفْتِ الميل في الحكم وتبدّله بإسقاط الشَّرع حقَّك مِـن ليلتك ؟ فقالت : نعم، أي خفت ميل الشَّرع بأن

---

(١) لم يكن جبريل عليه السلام يدخل على النَّبيِّ ﷺ بيته إذا وضعت عائشة رضي الله عنها ثيابها .

(٢) حوّلت الكلام، وفيه دلالة ذكاء .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٧/ ص٤٢) كتاب الكسوف.

يكون أجاز أَخْذَ ليلتي مِن يدي. وهذا ليس حيْفاً، لكن لَمَّا كان الحَيْفُ والمَيْلُ بمعنى، أُقِيْمَ مَقَامَه.

أو أنَّها جاءت بكلمة (نعم) تصَدِّق نفسها، أي لَمَّا قالت للنَّبيِّ ﷺ: "مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ" قالت مصدِّقة نفسها: "نعم". أو أنَّ كلمة (نعم) من كلام النَّبيِّ ﷺ، فقد أخرج أحمد والنّسائي والطَّبراني كلمة (نعم) في سياق حديث المصطفى ﷺ، ففي المسند "وَقَالَ: أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ عَلَيْكِ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، قَالَ: نَعَمْ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام ..."[1] الحديث.

ومن غيرتها، قَالَتْ: "افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ، فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي آخَرَ"[2]. أي لَمَّا بحثت عنه في الظلمة ووجدته راكعاً أو ساجداً عجبت من أمر غيرتها.

فضل عائشة رضي الله عنها على سائر النساء

اعلم أنَّ لخديجة وعائشة شَأْواً في الإسلام لا يُلْحَق أبداً، وأنَّهما مُقَدَّمات في الفضل على سائر أمَّهات المؤمنين، وأنَّ سبق خديجة رضي الله عنها وفضلها في أوَّل الإسلام من المؤازرة والنُّصرة لم تشركها فيه عائشة رضي الله عنها، وقد جاء صريحاً أنَّها خير نساء زمانها، قَالَ ﷺ: "خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ[3]"[4].

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٧١/ رقم٢٥٧٣١) وإسناده صحيح.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٢/ ج٤/ ص٢٠٣) كتاب الصَّلاة.

(٣) أي أنَّ مريم أفضل نساء زمانها، كذلك خديجة رضي الله عنها.

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٣٠) كتاب المناقب.

واعْلَم أنَّ فضل عائشة ﵂ في آخر الإسلام، ونقلها ونشرها للعلم، وروايتها وتوثيقها للسُّنَّة، لم تشركها فيه خديجة، فحسبها فضلاً أنَّها عَقَلَتْ منه ﷺ ما لَمْ تَعْقِلْ غَيْرُهَا مِنَ النِّسَاءِ، وَرَوَتْ عَنْهُ ﷺ مَا لَمْ يَرْوِ مِثْلُهَا كثير مِنَ الرِّجَالِ.

وقد فضلت عائشة ﵂ على سائر النِّساء بمزيد محبَّته ﷺ لها، قال ﷺ: " وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ(١) عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"(٢).

فالحديث فيه دلالة على زيادة محبّة المصطفى ﷺ لعائشة على سائر أمّهات المؤمنين؛ فتشبيه فضل عائشة بفضل الثَّريد كناية عن مزيد محبَّته لها، فكما أنَّ الثَّريد أحبّ الأطعمة إلى نفوس العرب، كذلك عائشة ﵂ أحبّ نسائه إليه ﷺ.

أحب الناس إلى النبيّ ﷺ عائشة ﵂

أخرج الشّيخان مِن رواية عَمْرو بْن العَاص أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَه عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاسِلِ، قَالَ: " فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، فَعَدَّ رِجَالًا"(٣).

ويظهر أنَّ السّؤال كان عن أهله دون سائر النِّساء من فاطمة ﵂ وغيرها، فقد جاء مقيَّداً من حديث أَنَسٍ الّذي أخرجه ابن حبّان بسند صحيح، قَالَ: " سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قِيلَ لَهُ: لَيْسَ عن

---

(١) الخبز واللَّحم.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٣/ ج٥/ ص١١٣)كتاب المغازي، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٨/ ج١٥/ ص١٥٣) كتاب فضائل الصّحابة.

أهلك نسألك، قال: فأبوها"[1]. ولعلَّ من جملة أسباب زيادة محبَّته ﷺ لها رضي الله عنها كثرة حفظها وتبليغها عنه ﷺ.

الأمر بمحبّة عائشة رضي الله عنها

كَانَ الْمُسْلِمُونَ يعلمون حُبَّ النَّبِيِّ ﷺ لأمِّ المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها؛ فقد صرَّح بأنَّها أحبُّ النَّاس إليه. فكان أَحَدهمْ إذا أراد أن يهدي هَدِيَّةً إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَخَّرَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ أهدى إليه، طلباً لسروره ورضاه، روى الشّيخان عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: " أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ، يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ مَرْضَاةَ رَسُولِ الله ﷺ"[2].

فحملت الغيرة بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ أن يطلبْنَ مِنه المساواة في المحبَّة، وأن يأمر النَّاس بأن يهدوا لَه حيث كان. وكلا الأمرين لا يجب على النَّبيِّ ﷺ، فمحبّة القلب لا يملكها النّبيُّ ﷺ، أمَّا طلب الهديَّة فما كان النَّبيُّ ﷺ أن يطلب ذلك مِنْ أصحابه رضي الله عنهم؛ لأنَّه ينافي كماله ﷺ.

فأرسلْنَ فاطمة رضي الله عنها لعظيم منزلتها عنده ﷺ، فكلَّمته، فقال لها ﷺ :" أَيْ بُنَيَّةُ أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟ فَقَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَأَحِبِّي هَذِهِ" يعني عائشة رضي الله عنها.

روى الشَّيخان عن عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: " أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ

---

(١) ابن حبّان "التّعليقات الحسان "(ج١٠/ ص١٩٤/ رقم٧٠٦٣) وقال الألباني : صحيح.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٢/ ج٣/ ص١٣١)كتاب الهبة، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٨/ ج١٥/ ص٢٠٥) كتاب فضائل الصّحابة .

ﷺ فاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي فِي مِرْطِي، فَأَذِنَ لها، فقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، وَأَنَا سَاكِتَةٌ، قَالَتْ : فَقَالَ لها رَسُولُ الله ﷺ :أَيْ بُنَيَّةُ أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟ فقَالَتْ: بَلَى، قَالَ :فَأَحِبِّي هَذِهِ.

قَالَتْ: فَقَامَتْ فَاطِمَةُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَرَجَعَتْ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَتْهُنَّ بِالَّذِي قَالَتْ، وَبِالَّذِي قَالَ لَهَا رَسُولُ الله، فَقُلْنَ لها : مَا نَرَاكِ أَغْنَيْتِ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ، فَارْجِعِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُولِي لَهُ : إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنْشُدْنَكَ العَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَالله لَا أُكَلِّمُهُ فِيهَا أَبَداً.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْراً فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى لله وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ، وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الله تَعَالَى، مَا عَدَا سَوْرَةً(١) مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا، تُسْرِعُ مِنْهَا الفَيْئَةَ(٢)، قَالَتْ : فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ مَعَ عَائِشَةَ فِي مِرْطِهَا، عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا وَهُوَ بِهَا، فَأَذِنَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ العَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ وَقَعَتْ بِي، فَاسْتَطَالَتْ عَلَيَّ، وَأَنَا أَرْقُبُ رَسُولَ الله ﷺ، وَأَرْقُبُ طَرْفَهُ، هَلْ يَأْذَنُ لِي فِيهَا، قَالَتْ

---

(١) سُرْعة غضب.

(٢) الرّجوع، تريد أنّها سرعان ما ترجع ويزول عنها الغضب.

: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَكْرَهُ أَنْ أَنْتَصِرَ، قَالَتْ: فَلَمَّا وَقَعْتُ بِهَا لَمْ أَنْشَبْهَا حَتَّى أَنْحَيْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ وَتَبَسَّمَ : إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ"[1]. وفي الحديث وُجُوْب محبَّة عائشة رضي الله عنها عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ لقوله ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها بصيغة الأمر :"فَأَحِبِّي هَذِهِ" أي عائشة رضي الله عنها.

نزول الوحي عليه السلام على النبيّ ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها دون سائر نسائه

قال النَّبِيُّ ﷺ :" يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ واللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا"[2].

رؤية عائشة رضي الله عنها للوحي عليه السلام على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه

من فضائل عائشة رضي الله عنها ما رواه أحمد بإسناد حسن عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَعْرَفَةِ[3] فَرَسٍ، وَهُوَ يُكَلِّمُ رَجُلًا، قُلْتُ: رَأَيْتُكَ وَاضِعًا يَدَيْكَ على مَعْرَفَةِ فَرَسِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ، قَالَ: رَأَيْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: ذَاكَ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَهُوَ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ، قَالَتْ : وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ"[4].

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٥/ ص٢٠٥) كتاب فضائل الصّحابة، والبخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٣٢) كتاب الهبة.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٢١) كتاب فضائل الصَّحابة .

(٣) الموضع الّذي ينبت عليه العرف، وهو الذي في أعلى عنق الفرس ورأسه.

(٤) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٣٣٨/ رقم٢٤٣٤٣) وإسناده حسن، وحسَّنه الألباني في "الصَّحيحة" (ج٣/ ص١٠٥/ رقم١١١١).

وانظر كيف لم يواجِه عائشة رضي الله عنها بالسَّلام لأجل زوجها، فمن هذه حالتها، كيف يُصَدَّق عليها كذب الأفَّاكين؟!

البرهان بأنّ جبريل عليه السلام أقرأ عائشة رضي الله عنها السّلام

لعائشة رضي الله عنها من الفضائل المشهورة، والمناقب المأثورة الشَّيء الكثير، روى الشَّيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت : قالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً :" يَا عَائِشَ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ، فَقُلْتُ : وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى، تُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ "(١).

ومن فقه الحديث أنَّ مَنْ بَلَغَ إليه سلام غائب عنه، عليه أن يردَّ عليه السَّلام كما يردّ على الحاضر؛ فَإِنّ جِبْرِيل عليه السلام سَلَّمَ على عائشة رضي الله عنها على لِسَان النَّبِيِّ ﷺ، فردّت عليه السَّلام. ومن فقه الحديث أن النَّبِيَّ ﷺ يرى ما لا يرى النَّاس، وهذا ممَّا اختصَّ به ﷺ.

جهادها رضي الله عنها

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: " لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ القِرَبَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : تَنْقُلَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ "(٢).

---

(١) البخاري "صحيح البخاري"(م٢/ ج٤/ ص٢١٩) كتاب المناقب. ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٥/ ص٢١٢)كتاب فضائل الصّحابة.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص٢٢١) كتاب الجهاد .

ويوم الخَنْدَقِ خَرَجَت رضي الله عنها تقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ:" فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأرْضِ وَرَائِي ـ يَعْنِي حِسَّ الْأَرْضِ ـ قَالَتْ: فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، يَحْمِلُ مِجَنَّهُ. قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ. قَالَتْ : وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ. قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ، وَيَقُولُ:

لَبِّثْ(١) قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلْ(٢) مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلْ

قَالَتْ: فَقُمْتُ، فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً، فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ تَسْبِغَةٌ(٣) لَهُ ـ يَعْنِي مِغْفَراً ـ فَقَالَ عُمَرُ: مَا جَاءَ بِكِ؟ لَعَمْرِي وَالله إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ، وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلَاءٌ، أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ(٤)؟

قَالَتْ: فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ لِي سَاعَتَئِذٍ، فَدَخَلْتُ فِيهَا. قَالَتْ: فَرَفَعَ الرَّجُلُ التَّسْبِغَةَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَيْحَكَ إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ الْيَوْمَ، وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَو الفِرَارُ إِلَّا إِلى الله عز وجل؟"(٥).

---

(١) انْتَظِر .

(٢) حَمَلُ بنُ سَعْدانَةَ صحابيّ شاعر شَهِد مَعَ خالدِ مَشاهِدَه كُلَّها، والبيت الّذي تمثّل به سعد له.

(٣) شَيْءٌ مِنْ حَلَق الدُّرُوع والزَّرَدِ يَعْلُق بالخُوذةِ دائِراً مَعَهَا ليسْتُرَ الرقبةَ.

(٤) التَّحَوُّز : التَّنَحِّي.

(٥) أحمد "المسند"(ج١٧/ ص٥١٠) وسنده حسن، وذكره الهيثمي في "مجمع الزّوائد"، وقال : رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ: (ج٦/ ص١٣٧) وحسّنه الحافظ في "الفتح" (ج١١/ ص٤٣)، والألباني في "الصّحيحة" (ج١/ ص١٤٤).

سبب كنيتها بأم عبد الله

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِابْنِ الزُّبَيْرِ فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، وَقَالَ :" هَذَا عَبْدُ الله، وَأَنْتِ أُمُّ عَبْدِ الله"[(١)].

وعبد الله بن الزُّبير أوَّل مولود ولِدَ في الإسلام للمهاجرين، هاجرت به أمُّه أسماء بنت أبي بكر حملاً، ووضعته بقباء في السَّنة الأولى من الهجرة.

ومن فقه الحديث مشروعيّة التَّكَنِّي حتّى لو لم يكن ولد، وهذا خُلُقٌ إسلاميّ غاب عن كثير من النَّاس، فأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها كان يُقَال لها أمّ عبد الله حتَّى ماتت وما ولدت قطُّ، وعبد الله هو ابن أسماء أخت عائشة، فعائشة خالته.

من نعم الله عليها رضي الله عنها

تقول عائشة رضي الله عنها :" إِنَّ مِنْ نِعَمِ الله عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي[(٢)]، وَأَنَّ الله جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ : آخُذُهُ لَكَ ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ : أُلَيِّنُهُ لَكَ، فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ[(٣)] أَوْ عُلْبَةٌ، فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الماءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٣٨٥/ رقم٢٤٥٠٠) ، وأخرجه ابن حبَّان وصحّحه الألباني في "التّعليقات الحسان على صحيح ابن حبّان" (م١/ ص٢٠١/ رقم٧٠٧٣) .

(٢) السّحر : الرّئة ، والنّحر : موضع القلادة من الصّدر. والمراد أنّه مات ﷺ ورأسه الشّريف بين حنكها وصدرها رضي الله عنها .

(٣) الرّكوة : إناء للماء من جلد . والعلبة من الخشب .

لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ : فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى. حَتَّى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ "[1].

القدر الّذي مكثت فيه عائشة ﵂ عند النبيّ ﷺ

أخرج البخاري عَنْ عُرْوَةَ :" تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ، وَمَكَثَتْ عِنْدَهُ تِسْعاً "[2]. أي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مات عنها ﵂ ولها نحو ثمانية عشر عاماً، وقد عَاشَتْ بعده قرابة خمسين عاماً.

عبادتها ﵂ وخوفها من الله تعالى

عاشت عائشة ﵂ في بيت النّبوّة، ورأت النَّبيَّ ﷺ يقوم اللّيلَ حتَّى تتفطَّر قدماه، وَقَدْ غَفَرَ الله لَه مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وَمَا تَأَخَّرَ، فكانت ﵂ تقوم اللّيل، وتداوم على قيامه، ولذلك تراها توصي عبد الله بن أبي قيس، وتقول له :" لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ لَا يَدَعُهُ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا "[3].

وكانت ﵂ إذا صلَّت الضّحى أطالت، قَال عَبْدُ الله بْن أَبِي مُوسَى: "أَرْسَلَنِي مُدْرِكٌ، إِلَى عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ أَشْيَاءَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهَا، فَإِذَا هِيَ تُصَلِّي الضُّحَى فَقُلْتُ : أَقْعُدُ حَتَّى تَفْرُغَ، فَقَالُوا: هَيْهَاتَ "[4].

وعنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى عَائِشَةَ :﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص١٤١) كتاب المغازي .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٣٩) كتاب النّكاح.

(٣) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص١٣٨/ رقم٢٥٩٩٢) وإسناده صحيح .

(٤) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٤٧٠/ رقم٢٤٨٢٦) وإسناده صحيح.

ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ [الطّور]، فبَكَتْ، وَقَالَتْ :"رَبِّ مُنَّ، وَقِنِي عَذَابَ السَّمُومِ"[1].

فصاحتها رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها فصيحة اللِّسان عالية البيان، إذا خطبت ملكت على النَّاس مسامعهم، قال مُوسَى بْن طَلْحَةَ:" مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْصَحَ مِنْ عَائِشَةَ"[2]. ولا ريب أنَّ الفصاحة والبيان من أجمل ما يتحلَّى به الإنسان، لَمَّا تُوُفِّيَ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه ودفن بجوار النَّبيِّ ﷺ وَقَفَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَلَى قَبْرِهِ، وراحت ترسل كلاماً على سجيَّته، ليس من السَّهل أن تبلغ بلاغته، قالت :" نَضَّرَ اللهُ وَجْهَكَ يَا أَبَتِ، وَشَكَرَ لَكَ صَالِح سَعْيِكَ، فَلَقَدْ كُنْتَ لِلدُّنْيَا مُذِلًّا بِإِدْبَارِكِ عَنْهَا، وَلِلآخِرَةِ مُعِزّاً بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا، وَلَئِنْ كَانَ أَجَلَّ الْحَوَادِثِ بَعْدَ رَسُوْلِ الله ﷺ رَزْؤُكَ وَأَعْظَمَ الْمَصَائِبِ بَعْدَهُ، فَقَدْ كَانَ كِتَابُ الله لَيَعِدُ بِحُسْنِ الصَّبْرِ عَنْكَ حُسْنَ العِوَضِ مِنْكَ، وَأَنَا أَسْتَنْجِزُ مَوْعُوْدَ الله فِيْكَ بِالصَّبْرِ، وَأَسْتَقْضَيْهِ بِالِاسْتِغْفَارِ لَكَ، أَمَا لَئِنْ كَانُوْا قَامُوْا بِأَمْر الدُّنْيَا فلَقَدْ قُمْتَ بِأَمْرِ الدِّيْنِ لَمَّا وَهَى شُعَبُهُ، وَتَفَاقَمَ صَدْعُهُ، وَرَجُفَتْ جَوَانِبُهُ؛ فَعَلَيْكَ سَلَامُ الله تَوْدِيْعَ غَيْرِ قَالِيَةٍ لِحَيَاتِكَ، وَلَا زَارِيَةٍ عَلَى الْقَضَاءِ فِيْكَ! "[3].

وفاتها والصّلاة عليها ودفنها

كَانَت وفاتها في عهد معاوية رضي الله عنه ، سنة ثَمَان وَخمسين من الْهِجْرَة فِي رَمَضَان لَيْلَة الثُّلَاثَاء لسبع عشرَة خلت مِنْهُ عِنْد الْأَكْثَرين، وصلَّى عليها أبو هريرة رضي الله عنه،

(١) ابن أبي الدّنيا "الرّقة والبكاء" (ص٩٢).

(٢) التّرمذي "سنن التّرمذي" (ج٥/ ص٧٠٥) وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٣) أبو إسحاق "زهر الآداب" (ج١/ ص٧١) وابن قتيبة "عيون الأخبار" (ج٢/ ص٣٣٨).

وكانت رضي الله عنها قد أوصت عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما أنْ تُدْفَنَ مع صواحبها أمَّهات المؤمنين في البقيع مدفن أهل المدينة، وقالت له :" ادْفِنِّي مَعَ صَوَاحِبِي، وَلاَ تَدْفِنِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي البَيْتِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُزَكَّى "[1].

وفي الصَّحيح عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَى عَائِشَةَ: " ائْذَنِي لِي أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ، فَقَالَتْ : إِي وَاللهِ، قَالَ : وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَتْ: لاَ واللهِ، لاَ أُوثِرُهُمْ بِأَحَدٍ أَبَدًا "[2].

من حقوق النبيّ الأمين ﷺ توقير أمّهات المؤمنين

أوجب الله تعالى تعظيم الفاضل في الدُّنيا على المفضول، مثل تفضيل النَّبيِّ ﷺ على سائر النَّبيِّين، وسائر الصَّحابة على سائر التَّابعين ... فإذا تقرّر ذلك، فإنّا لا نرى أَوْجَبَ بعد تعظيمه ﷺ من تعظيم زوجاته، اللّواتي أكرمهنَّ اللهُ بصحبة رسوله، وجعلهنَّ أمّهات للمؤمنين : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ ... ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فأوجب لهنَّ حقَّ الأمومة على كلّ مؤمن، ولا يخفى ما للأمِّ من عظيم حقّ، فكيف بأمّهات المؤمنين المخاطبات بقوله سبحانه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] ! والمحسنات اللّواتي اخترْنَ الله ورسوله والدَّار الآخرة: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص١٥٣) كتاب الاعتصام.

(٢) المرجع السَّابق.

القسم الثاني
حديث الإفك

أذى المنافقين لسيّد المرسلين ﷺ في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

ما انفكَّ المنافقون يؤذون النَّبيَّ ﷺ حتَّى آذوه في أحبِّ النَّاس إليه، فقد حاكوا حديث الإفك في الَّذين آمنوا، وأذاعوه وأشاعوه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النّور].

فنزل بالنَّبيِّ ﷺ وعائشة رضي الله عنها مِن الهمِّ ما الله به عليم، حيث تأخَّر نزول الوحي ببراءتها شهراً.

لقد كانت هذه الحادثة درساً لأهل الإيمان على مرِّ الزَّمان، فما مِن بلاء يصاب به الإنسان إلّا وأصاب النَّبيَّ ﷺ مثله أو أشدَّ منه.

وهذا الحديث تداولته كتب الحديث والتّاريخ والسِّير وغيرها، وتناقله الرّواة وأهل الأخبار والآثار، ولكن ليس كلّ ما نُقِلَ صحيحاً، فهناك الصَّحيح والضَّعيف، والطَّيِّب والخبيث، وهناك أقلام ما زالت تتحامل، وتُسْقِم الصَّحيح، وتبْرِئ السَّقيم.

ما أشدَّ ضرر المنافقين على المؤمنين! فالنفاق مضاد للإيمان، قَال تعالى:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التّوبة]. وقال تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [التّوبة].

أربعة وردت براءتهم في القرآن الكريم

برَّأَ اللهُ تعالى في كتابه نَبِيَّيْنِ وصدِّيقتين، أمَّا النَّبيَّان فهما : موسى ويوسف عليهما السَّلام، وأمَّا الصِّدِّيقتان فهما : مريم ـ عليها السَّلام ـ وعائشة ﵂ .

فقد آذى موسى﵇ مَنْ آذاه مِنْ بني إسرائيل واتَّهموه بعيْبٍ في جِلْدِه، ونسبوه إلى نقص في خِلْقَتِه، ذلك أنَّ موسى ﵇ كان من شدَّة حيائه لا يُرَى من جلده شيءٌ، فأراد اللهُ تعالى أَنْ يبرِّئه ممَّا قالوا، فخرج موسى ﵇ ذاتَ يوم يغتسل في خَلْوَة، فوضع ثيابَهُ على حَجَر، فلمَّا فرغ أَقْبَل إلى ثيابه ليأخُذَها، فَعَدَا الحَجَرُ بثوبه ومضى مسرعاً، فأخذ موسى ﵇ عصاه في أثره، فجعل يقول: ثَوْبِي يا حَجَرُ، ثَوْبِي يا حَجَرُ، واستمرَّ يتبع الحجر حتَّى انتهى إلى ملأ مِنْ بني إسرائيل، وكان فيهم مَنْ قال فيه ما قال، فرأوه عل أكمل خَلْقٍ، فبرَّأه الله ممَّا قالوا ، فأخذ موسى ﵇ ثوبَه، فلبسه، وَطَفِقَ يضرب الحجر بعصاه.

أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيّاً سِتِّيراً، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا : مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ الله أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ الله، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فوالله إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا ، أَوْ أَرْبَعًا ، أَوْ خَمْساً ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]"[1].

ويؤخذ من الحديث أنَّ الأنبياءَ أكملُ النَّاس خَلْقاً وخُلُقاً، وأشدُّهم حياءً مِنَ الله تعالى، وأنَّ الأنبياء صبروا على مَنْ آذاهم ، فجعل اللهُ العاقبةَ لهم، وأنَّ علينا أن نصبر كما صبر الأنبياءُ عليهم السَّلام، لتكونَ لنا حسن العاقبة.

أمَّا يوسف عليه السلام فقد اتَّهمته امرأة العزيز بأنَّه أراد بها سوءاً، فبرّأه الله تعالى ممَّا رمته به من الإفك على لسان الشَّاهد وغيره[2]، قال تعالى : ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف] وفي نهاية الأمر اعترفت امرأةُ العزيز ببراءة يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف] .

أمّا مريم ـ عليها السَّلام ـ فقد اتَّهمها قومُها لَمَّا جاءَتْهم تحملُ ابْنَها دون أَب: ﴿ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٢٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) انظر كتابنا "غرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن " دراسة قصصيّة ولمسات بيانيّة .

وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] وهذا الثَّناء منهم على أبويها فيه تعريض بها يقتضي ذمَّها، فقد قالوا عليها ما قالوا من الإفك والبهتان، قال تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النِّساء] حتَّى برَّأها الله تعالى ممَّا قالوا على لسان ابنها عيسى ﷺ ، فقد أنطقه الله تعالى وهو في المهد : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم].

أمَّا عائشة ﵂ فقد خرجت مع النَّبيِّ ﷺ في غزوة غزاها ، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سَفَرٍ أقْرَعَ بين نسائه، فأصابت عَائِشَةَ ﵂ القُرْعَةُ في غزوة بني المُصْطَلِق ، وهي غزوة المُرَيْسِيع، وكانت في شعبان سنة خمس من الهجرة.

وكان النَّبيُّ ﷺ قد بَلَغَهُ أنَّ بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم بالجيش حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يُقَالُ له المُرَيْسِيع، فهزمهم اللهُ ونصره عليهم.

فلمَّا فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ من غزوته، وَقَفَلَ راجعاً، واقترب من المدينة، نَزَلَ مَنْزِلاً فَبَاتَ به بعض اللَّيل، ثمَّ آذَنَ بالرَّحيل، فمشت عائشة ﵂ حتَّى جاوزت الجيش، فلمَّا قضت من شَأْنِها، رجعت إلى مكان رحلها، فَلَمَسَتْ صَدْرَها فإذا عقدها قد انقطع وانسلَّ من عُنُقِها، وهي لا تدري، فرجعت عوْدَها على بَدْئِها إلى المكان الأوَّل، فالتمست عقدها، فحبسها ابتغاؤه، وكان عقدُها مِن خَرَزِ ظَفَار، وهي قرية في اليمن .

فجاء الرَّهطُ الَّذين يُرَحِّلون، فوضعوا رحْلَها على البعير ، وحملوا هَوْدَجَها فوقه، وهم يظنُّونها فيه، ولم يستنكروا ثقل الهودج حين رفعوه لخفَّة بدنها رضي الله عنها، ولحسن أدبهم؛ فلم ينظروا داخله، ولم يتكَلَّموا بكلمة، بحيث أنَّها لم تكن في الهودج، وهم يحسبونها فيه .

وعُذْرُ عائشة رضي الله عنها أنَّها كانت جارية حديثة السِّن، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل عليها بعد الهجرة في شوَّال، وغزوة المُرَيْسِيع على الرَّاجح أنَّها كانت في شعبان سنة خمس من الهجرة ، فتكون عائشة رضي الله عنها لم تكمل أربعَ عَشْرَةَ سنة.

ولذلك نراها حريصةً على عقدها، وهو من خرز لا من ذَهَبٍ ولا جوهر، حتَّى استقلَّت بالتَّفتيش عليه، ولم تُعْلِمْ أهْلَهَا لينتظروها إن أرادوا الرَّحيل، ولم تستصحب معها غيرها، ولم تتفطَّن لعواقب الأمور، وهذا لصِغَرِ سنِّها، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[الأنفال].

فذهب الجيشُ، ووجدت عِقْدَها بعدما استمرَّ الجيشُ ماضياً، ورجعت إلى منازل (أماكن) القوم، وقصدت مكانها الَّذي كانت فيه، فلم تَجِدْ أحداً، وظنَّت أنَّهم سيفطنون لها، فيرجعون إليها، ويعودون إلى مكانها الَّذي تركوها فيه، فجلست في مكانها حتَّى غلبها النَّومُ مِن الغمِّ . وكان صَفْوَانُ بن المُعَطَّلِ رضي الله عنه (١)

---

(١) صَفْوَانُ بن المُعَطَّل السُّلَمِيُّ ، المَذْكُورُ بِالبَرَاءةِ مِنَ الإِفْكِ ، كان صحابيّاً جليلاً فاضلاً ، وفي الصَّحيحين وغيرهما، قال فيه النَّبيُّ ﷺ : " ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خيْراً "، وقالت عائشة رضي الله عنها : "فقتل شهيداً في سبيل الله" واخْتُلِفَ في زمن استشهاده ، انظر ترجمته في "الإصابة" لابن حجر (م٢/ ج٣/ ص٢٥٠/ رقم٤٠٨٤) .

يسير في سَاقَة الجيش، أي من وراء الجيش، فيقوم للصَّلاة، ثمَّ يتبعهم، فَمَنْ سَقَطَ له شيء ردَّه إليه.

وكان صفوان ﷺ قد تأخَّر حتَّى قرب الصُّبح، فركب بعيره لعلَّه يرى شيئاً، فَمَرَّ فرأى شخص إنسانٍ نائم، فَقَرُبَ فإذا هو بأمِّ المؤمنين ﷺ، فعرفها لأنَّه كان يراها قبل نزولِ آيةِ الحجاب، فقال رافعاً صوته: "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"، فأيقظها باسْتِرْجَاعِه، ولم يكلِّمها بكلمة البتَّة؛ صيانةً لها وإعظاماً وإجلالاً، وحسن أدب منه، وفطنة وورعاً.

فَسَتَرَتْ وَجْهَهَا عنه بجلبابها، فأناخ بعيرَه بغير كلام ولا سُؤَال، فركبتْه، ومشى قدَّامها حتَّى أدركا الجيش أوَّل الظهيرة.

وهنالك قَال في صفوان ﷺ وعائشة ﷺ أَهْلُ الإفك والكذب ما قالوا، فهلك مَنْ هلك في شَأْنِها ﷺ بقول البُهتان، وعُصِمَ مَنْ عُصِمَ بالورع والتَّقوى.

وكان الَّذي تولَّى الإفك والكذب عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ[1]، رَئيس المنافقين؛ عداوةً للإسلام ونبيِّ الإسلام، فهو البادئ بهذه الفرية، وهو الَّذي اختلقها، وهو مَنْ أَشَاعَ في المدينة ما أَشَاعَ مِنَ الكذب.

وانتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي عائشة ﷺ. وكانت عائشة ﷺ حين قَدِمَت المدينة مَرِضَتْ شهراً، وهي لا تشعر بشيء، ولا يذكرون لها شيئاً، ولكن كان يريبها أنَّها لم تكن تجد منه ﷺ الرِّفق الَّذي كانت تجده إذا اشتكت.

---

(١) أُبيّ أبوه، وسلول اسم أمّه، فنسب إلى أبويه كليهما، ووصف بهما.

فلمَّا أفاقت مِنْ مرضها خرجت مع أُمِّ مِسْطَحٍ (سلمى بنت أبي رهم ﵂)، وذلك لقضاء الحاجة، وبعد الفراغ من شأنها أقبلت وأمّ مِسْطَحٍ قِبَل بيتها، فعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ في ثوبها، فقالتْ : " تَعِسَ مِسْطَحٌ !".

ومسطح بن أثاثة ﵁ هو ابنها، وكان فقيراً ينفق عليه أبو بكرٍ ﵁، وهو من المهاجرين الأوَّلين، وشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، لكنَّه ممَّن تكلَّم. فانتهرتها عائشة ﵂، وقالت لها : " أَتَسُبِّين رَجُلاً شَهِدَ بدْراً ؟!".

وفي ذَبِّ عائشة ﵂ ودفاعها عن مِسْطَح فضيلةٌ ظاهرة لأهْلِ بَدْر؛ فليحذر الَّذين يتكلَّمون عليه لزلَّة بَدَتْ، فإنَّها قد غُفِرت، وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لِعُمَرَ ﵁ لَّما طلب منه أن يضرب عنق حَاطِب بن أَبي بَلْتَعَة ﵁، وهو ممَّن شهد بدْراً، قال ﷺ : " يا عمر، وَمَا يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّ اللهَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُم الجْنَّةُ "(١) وفي رواية قال ﷺ : " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "(٢)، فالذّنوب إنْ وقعت منهم تكون مقرونة بالمغفرة.

والحاصل أنَّ أمَّ مِسْطَحٍ ﵂ أخبرت عائشة ﵂ بقول أَهْل الإفْك، فازدادت مَرَضاً على مَرَضِها، فلمَّا رجعت إلى بيتها ودخل عليها رسولُ الله ﷺ، وسلَّم عليها، استأْذَنَتْ أن تأتِيَ أبويها، وكانت تُريدُ أنْ تَسْتَيْقِنَ الخبر منهما، فَأَذِنَ لها النَّبيُّ ﷺ .

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٣٤) كتاب الاستئذان .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٥٦) كتاب فضائل الصَّحابة.

حديث الإفك

وحديثُ الإفكِ هذا في الصَّحيحين وغيرهما، روى البخاري عن عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْج النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ :

" كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ:

فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِن المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ(١) قَدْ انْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ (القليل) مِن الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ؛ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ .

---

(١) جَزْع : خَرَز في سواده بياض، وظفار : مدينة باليمن.

وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَدْلَجَ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ يرانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ[1] حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ[2]، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ .

فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَيُسَلِّمُ ، ثُمَّ يَقُولُ : كَيْفَ تِيكُمْ ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي. وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[3] وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا بِنْتُ

---

(١) أي بقوله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

(٢) أي فهلك في شأنها مَنْ هلك بقول البُهتان .

(٣) مواضع خارج المدينة تخرج إليها النِّساء ليلاً لقضاء الحاجة.

صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، قَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا[1]، فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ ! فَقُلْتُ لَهَا : بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا ؟! قَالَتْ : أَيْ هَنْتَاهْ[2]، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قَالَتْ: قُلْتُ : وَمَا قَالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضاً عَلَى مَرَضِي. فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ تَعْنِي سَلَّمَ ـ ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تِيكُمْ[3] ؟ فَقُلْتُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ قَالَتْ : وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ : فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ"[4].

موقف أمّ رومان ﷺ من الإفك

لَمَّا جاءت عائشة ﷺ أبويها سألت أمَّها، وقالت لها :" يا أمَّتاه، مَا يتحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ : يا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ : فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ[5] ! وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟!

---

(١) المرط : الكساء من الصّوف أو الكتّان .

(٢) أي يا هذه .

(٣) اسم إشارة للمؤنّث .

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٥) كتاب التّفسير . ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٧/ ص١٠٢) كتاب التّوبة.

(٥) تنزّه الله تعالى أن يقع لأهل رسول الله ﷺ أيّ تدنيس، ولهذا قالت : "سُبْحَانَ الله !" على سبيل التّنزية والاستغاثة بجناب الله تعالى والتّعجب مِن قول النّاس ذلك مع براءتها المحقّقة عندها.

قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ (لا ينقطع) لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي"[1].

وفي كلام أمِّها دلالةُ ذكاءٍ وفطنة، فقد أرادت أنْ تهوِّنَ عليها الأمرَ الجَلَل بإعلامها بأنَّها لم تنفردْ عن نساء العالمين بهذا الأذى، فقلَّما أحبَّ رجلٌ امرأةً حَسَنَة في خَلْقها وخُلُقِها إلَّا قالوا لها ما يَشِينُها، تذكرة لها حتَّى لا تستهول نزول البلاء.

ولم تقصد بالضَّرائر زوجات النَّبِيِّ ﷺ حاشا لله أن تلمَّ بذلك، فالاستثناء في قولها "إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا" استثناء متَّصل، فقد أرادت أنَّ هذا شأن الضَّرائر، فلم تقصد أمَّهات المؤمنين، لأنَّها لم تذكر قصَّة عائشة رضي الله عنها أصلاً، وأمَّهات المؤمنين لم يقع منْهنَّ في حقِّ عائشة رضي الله عنها شيء ممَّا يقع من الضَّرائر البتّة، وإنَّما أشارت إلى ما وقع من حَمْنَة بنت جحش رضي الله عنها[2]، وهي من أتباعهنَّ، فهي أختُ أمِّ المؤمنين زينب ، وعائشة رضي الله عنها ضرَّة أختها زينب بنت جحش رضي الله عنها .

وكانت حَمْنَة رضي الله عنها حدَّثت فيمن حدَّث، وكأنَّها أرادت أن ترْفَعَ من شَأْن أختها زينب رضي الله عنها ، فهي الَّتي كانت تُسَامِي عائشة رضي الله عنها مِنْ أمَّهات المؤمنين فِي المنْزِلَة عِنْد رَسُول الله ﷺ .

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٧) كتاب التَّفسير .

(٢) حَمْنَة بنت جحش رضي الله عنها ، صحابيّة فاضلة، كانت زوج مصعب بن عمير، قُتِلَ عنها يوم أحد، فتزوّجها طلحة بن عبيد الله، فولدت له محمّداً وعمران، فهي أمُّ محمّد بن طلحة، المعروف بالسّجاد، بايعت، وشهدت أحداً، وكانت تسقي العطشى، وتداوي الجرحى من ذويها، ترجم لها ابن حجر في "الإصابة" (م٤/ ج٨/ ص٥٣) كتاب النِّساء.

موقف أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه

لم يؤثِّرْ حديثُ الإفك في أمِّ رومان رضي الله عنها مثل ما أثَّر في عائشة رضي الله عنها، فآنست عائشة رضي الله عنها من أمِّها قوَّة عقيدة وعظيم ثقة بالله تعالى أنَّ هذه الشِّدَّة بعد أن اشتدَّت سيعقبها الفَرَجُ، فسألتها عائشة رضي الله عنها إن كان أبوها وزوجها قد عَلِما بذلك، فأخبرتها أنّهما قد علما الحديث، فَطَفَرَتْ من عينيها الدُّموعُ رضي الله عنها.

وكان أبوها أبو بكر رضي الله عنه فوق البيت يقرأ، فسمع صوتها، فنزل وسأل أمَّ رومان عن شأنها، فأخبرته أنَّها علمت الحديث، ففاض الدَّمْعُ من عينيه رضي الله عنه، وأقسم عليها أن ترجع إلى بيتها.

ففي رواية هشام بن عروة تقول عائشة عن أمّها: " وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَرَسُولُ الله ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَرَسُولُ الله ﷺ، وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبو بَكْرٍ صَوْتِي، وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ، فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ، فَرَجَعْتُ"[1].

وبكاء عائشة رضي الله عنها وأبيها رضي الله عنه حرقة؛ فما قيل لهم هذا في الجاهليَّة، فكيف وقد أعزَّهم الله بالإسلام! وهذا البلاء يؤثِّر فينا، فكيف بمن تجرَّعه صابراً محتسباً.

موقف أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن

لم تُنْقَلْ عن أمَّهات المؤمنين مع تعاظم الحال في حديث الإفك كلمةُ شرٍّ ولا أصغر منها ولا أكبر. ما نُقِلَ إلّا تزكية عائشة، وقول: " لا نعلم إلّا خيراً "،

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٢) كتاب التَّفسير.

فهذا يجزئ في حقِّ من سَبَقَتْ عَدَالتُهُ، والصَّحابة كلّهم عدول لا يحتاج أحدهم بعد تعديل الله لهم المطَّلع على بواطنهم وسرائرهم إلى تعديل أحد من الخلق له.

قالت عَائِشَةُ ﵂: "وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ : يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ ؟ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْراً، قَالَتْ : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ الله ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا؛ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ"[1].

ويفهم مِن الرِّواية أنَّ الورع منع زينب ﵄ من الوقوع في عائشة ﵄ كما منع بقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ، وإنَّما اختصَّت زينب ﵂ بالذِّكر لأنَّها كانت تضاهي وتعادل عائشة ﵂ بالحظوة وعلوِّ المنزلة عند رسول الله ﷺ .

موقف أسامة بن زيد ﵁

ولَمَّا طَالَ مكْثُ نزول الوحي، دعا رَسُولُ الله ﷺ عليّاً وأسامة ﵄ يستشيرهما في فِرَاقِ عائشة ﵂، وخصَّهما بالمشورة ـ فيما يتعلَّق بأهله ـ لمزيد اطِّلاعهما على أحواله، وعظيم محبَّته ﷺ لهما وقربهما منه، فإنَّ عليّاً تربَّى في كَنَفِ النَّبيِّ ﷺ، وأسامة بن زيد بن الحارثة، هو الحِبُّ ابن الحِبِّ، مولى رسُول الله ﷺ، أمُّه أمُّ أيمن حاضنة الرَّسول ﷺ.

فأمَّا أسامة ﵁ فأشار على رسول الله ﷺ بالبراءة لأهله، وأنَّه لا يعلم إلّا خيراً، تقول عائشة ﵂:" فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ

---

(١)البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٩) كتاب التَّفسير .

ﷺ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِن الْوُدِّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله، أَهْلَكَ[1] وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا"[2].

موقف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

وأمّا عليّ رضي الله عنه فأشار على رسُولِ الله ﷺ أن يسأل الجارية بَرِيرَةَ تصدقه، وقد كان متيقِّناً أنَّ بَرِيرَةَ متحقِّقة من براءَتها، ولذلك أحاله عليها، تقول عائشة : " وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ﷺ، لَمْ يُضَيِّقْ الله عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَل الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ"[3].

أمَّا من ذهب إلى أنَّ عليّاً رضي الله عنه قد أشار عليه ابتداءً بفراقها، بدليل قوله: "وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ" ففيه بُعْد؛ لأنَّ الكلام يفهم من سباقه ولحاقه، فلم يجزم عليّ رضي الله عنه بفراقها؛ ذلك أنَّه عقَّب كلامه بقوله :" وَإِنْ تَسْأَل الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ" فيكون فوَّض الأمر إلى النَّبيِّ ﷺ، وحمله على النَّظر في كلام الجارية بَرِيرَة ليسْكُنَ خاطِرُه.

وعلي رضي الله عنه أتقى لله تعالى مِنْ أنْ يَعْرِض لأمِّ المؤمنين بأيّ سوء.

---

(١) أهلَكَ : بالنَّصب على الإغراء أي الزم أهلك ، وهذا يذكِّر بقول الله تعالى حكاية عن النَّبيِّ ﷺ حين قال لزيد رضي الله عنه: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] . ولبعضهم بالرَّفع (أهلُك) أي هُم أهلك .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٧) كتاب التَّفسير .

(٣) المرجع السَّابق .

موقف الخادمة بريرة رضي الله عنها

سمعت عائشة رضي الله عنها كلام أبيها وعادت إلى بيتها، ممّا يُظْهِرُ حُسْنَ السَّمْعِ والطَّاعة، وجاءَ رسولُ الله ﷺ بيتها، وسأل عنها بَرِيرَةَ رضي الله عنها (مولاة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها) سألها عن عائشة، فأخبرته أنّها ما علمت عليها مِنْ سُوءٍ إلّا أنّها كانت تعجنُ العجين، وتطلب منها أن تحفظه، فتنام عنه لصغرها، فتأتي الشَّاةُ فتأكله.

تريد أنَّ عائشة رضي الله عنها لا تعرف الشَّرَّ أبداً، تغفل عن عجينها لحداثة سنِّها، فطالما أنَّ هذه صفتها فهي أبعد ما تكون عمَّا رُمِيَتْ به، ولا تعدو أن تكون من المحصنات الغافلات المؤمنات.

قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: " فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ : أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ ؟ قَالَتْ بَرِيرَةُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ[1] عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ[2]، فَتَأْكُلُهُ "[3].

ما وَجَدَتْ لها عيباً إلّا أنّها أَمَرَتْها أن تحفَظَ العَجِينَ حتَّى تقتبس ناراً لتخبزه، فنامت عنه، فجاءَتْ الشَّاةُ فأكلته، وهذا من الاستثناء اللَّطيف، فقد أرادت بهذا الاستثناء تخليصها من كلِّ عيب .

وفي رواية هشام بن عروة : " فَقَالَتْ : لَا والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا إِلَّا أَنَّهَا

---

(١) أعيبه .

(٢) الدَّاجن : الشَّاة الَّتي تألف البيت .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٧) كتاب التَّفسير .

كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ، فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا، أَوْ عَجِينَهَا، وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ : اصْدُقِي رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ[1]، فَقَالَتْ : سُبْحَانَ الله ! والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ "[2].

ويظهر أنَّ النَّبيَّ ﷺ كره أن يصرِّحَ بالأمر، فصرَّحَ به بعضُ أصحابه ﷺ ، فلمَّا تفطَّنت للأمر نَفَتْ أنَّها رأت فيها ما يسألون عنه أبداً، وأنَّها لا تعلم فيها إلّا الخُلُوص من العيب كما يعلم الصّائغُ من الذَّهب الأحمر الخُلُوص من العيب.

موقف النبيّ ﷺ

لم يَشُكَّ النَّبيُّ ﷺ ببراءة عائشة قطُّ، وحاشا للنَّبيِّ ﷺ من ذلك، وإنَّما تعيَّن عليه استشارة أهل بطانته، والتَّنقيب عن هذه القصَّة؛ لقطع دابر الطُّغيان واجتثاث شُبَه أهل الإفك بإقامة الحجَّة عليهم .

وإلّا فإنَّ براءة عائشة رضي الله عنها محقَّقةٌ عنده ﷺ، فالنَّبيُّ ﷺ أعلم النَّاس بعائشة رضي الله عنها ، وبجميل أحوالها وارتفاعها عن الدَّنايا، فصحبة عائشة رضي الله عنها له آكد مِنْ صحبة غيرها مِنْ نسائه، لكنَّه ﷺ لم يكن يحكم لنفسه إلّا بعد نزول الوحي، ولم يكن ليحكم على عائشة رضي الله عنها برأي؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النِّساء] وليس له ﷺ أن يتكلم في أمْرٍ ليس له به علم، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] فالنَّبيُّ ﷺ لا يُثْبِتُ أمراً، ولا ينفيه إلّا بعلم كما أُمِر .

---

(١) أي حتَّى صرَّحوا لها بالأمر .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٢) كتاب التَّفسير .

ثمّ إنَّ الإسلام دين الواقعيَّة، فالنَّبيُّ ﷺ يعلّمنا أنْ نأخذ بالأسباب ولا ننفكّ عنها. وإذا كان أفاضل الصَّحابة يقطعون بكذب أهلِ الإفكِ، ويجزمون ببراءة عائشة رضي الله عنها، ويقولون : " لا نعلم إلّا خيراً " ويقولون : سُبْحَانَكَ ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النُّور] فما الظَّنُّ بالنَّبيِّ ﷺ !

وموقف النَّبيِّ ﷺ لا يختلف كثيراً عن موقف أصحابه رضي الله عنهم، فقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمّا وَقَفَ خطيباً على المنبر واستعْذَرَ مِن ابن أُبيّ، شَهِدَ لعائشة رضي الله عنها وصفوان رضي الله عنه بالخير، قَالَتْ عائشة: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ :" يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي[(١)] مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟! فَوَالله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْراً، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْراً، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إلّا معي "[(٢)] .

وفي رواية هشام بن عروة ، قال : أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ : "لمّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِيَّ خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا (اتّهموا) أَهْلِي ، وَايْمُ الله ، مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ ؟! والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي " [(٣)] .

---

(١) أي من ينصرني .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٧) كتاب التَّفسير .

(٣) المرجع السّابق .

موقف أبي أيوب الأنصاري ﷺ

عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: "لَمَّا أُخْبِرَتْ عَائِشَةُ بِالْأَمْرِ، قَالَتْ :" يَا رَسُولَ الله، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى أَهْلِي؟ فَأَذِنَ لَهَا، وَأَرْسَلَ مَعَهَا الْغُلَامَ، وَقَالَ رَجُلٌ مِن الْأَنْصَارِ: سُبْحَانَكَ ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النُّور]"[1]

والرَّجل الَّذي من الأنصار هو أبو أيوب الأنصاريّ: خالد بن زيد بن ثعلبة، مشهور بكنيته، شهد بدراً، والعقبة، وما بعدهما مع رسول الله ﷺ، وخصَّه النَّبيُّ ﷺ بالنزول عليه لَّما قدم المدينة، فأقام عنده إلى أن بُنِيَتْ بُيُوتُهُ ومسجده، وقد لزم الجهاد إلى أن توفيَّ في القسطنطينيّة سنة اثنتين وخمسين في الغزوة الّتي أغزاها معاوية بن أبي سفيان ﷺ ابنه يزيد .

ورَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إِسْحَاق، عن أبيه، عَنْ بَعْض رِجَال بَنِي النَّجَّار، أَنَّ أَبَا أَيُّوب، قَالَتْ لَهُ أُمّ أَيُّوب : " أَمَا تَسْمَع مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَة؟ قَالَ : بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِب، أَكُنْتِ فَاعِلَةً ذَلِك يَا أُمّ أَيُّوب؟ قَالَتْ : لَا والله، ما كنت لأفعله، قَالَ : فَعَائِشَةُ والله خَيْر مِنْك"[2].

من ردّ عن عرض أخيه

لا يخفى على أبي أيوب ﷺ ولا على مَـنْ هو دونه أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَغَّبَ في أن

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص١٦٣) كتاب الاعتصام .

(٢) الطَّبريّ "تفسير الطَّبريّ" (ج٥/ ص٥٣٠) وإسناده ضعيف مسلسل بالضّعفاء، محمّد بن حميد الرّازي، وسلمة بن الفضل، ومحمّد بن إسحاق كلّهم ضعفاء، فضلاً عن إبهام الرَّاوي عن أبي أيّوب، وإنّما ذكرته لأنبّه على ضعفه، فلم أَرَ مَنْ ضعّفه؛ لئلّا يغترَّ به أحد.

يردَّ المسلم عن عرض أخيه ، قال النَّبِيُّ ﷺ :

" مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ المسْلِمِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله ﷻ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(١). وسيأتي بعد أسطار لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تردَّ عن عِرْضِ حسّان رضي الله عنه.

الحكمة من لبوث الوحي

اقتضت حكمة الله تعالى أَنْ حُبِسَ الوحيُ شهراً لا يُوحَى لِرَسُولِ الله ﷺ شيئاً في شأن عائشة رضي الله عنها؛ ليظهر الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من حسن الظَّنِّ بالله تعالى ورسوله وأهل بيته، ويزيدهم إيماناً وثباتاً على الهدى، وليستدرج الله تعالى المنافقين، ويملي لهم، ويكشف سرائرهم، ويزدادوا إثماً، وليُظْهِر الله تعالى قَدْرَ رسول الله ﷺ وأهل بيته عنده؛ فقد تولَّى الله تعالى الدِّفاع عن رسوله وأهل بيته.

عائشة رضي الله عنها تتمثل آي القرآن في النوازل

كانت عائشة رضي الله عنها تعلم أنَّ الشِّدَّة إذا تناهت كان وراءَها الفرجُ قريباً، فقد قضى الله تعالى أنَّ العُسْرَ بعده يُسْر، وتعلم أنَّ الصَّبْرَ محمودُ العواقب، و أنَّ الأمر إذا ضاق اتَّسع، وأنَّ الصَّبرَ الجميلَ يعقبه الخيرُ الجزيلُ، وأنَّ الصبر وإن كان مرّاً فإنَّ عاقبته حلوةٌ، وما الخير والخيرة إلَّا في التّقى والصَّبر؛ فصبرت واحتسبت، وفوَّضت أمرها إلى الله تعالى وحده، ولذلك تجدها تقول :" والله مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلاً

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٥٨٠/ رقم٢٧٤٠٧) وإسناده حسن .

إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ[1]،قَالَ:﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾ [يوسف] "[2] وفي ذلك منْقَبة لعائشة شمَّاء، وفضيلة غرّاء؛ حيث صبرت صبراً جميلاً، كما قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ [المعارج]. وفي تمثّلها بآي القرآن في النَّوازل خلق عظيم؛ فيا لهفي ولهف المؤمنين على مَنْ كان خلقه القرآن الكريم !

عائشة رضي الله عنها والصَفح الجميل

كذلك صفحت عائشة رضي الله عنها الصَّفح الجميل، كما قال تعالى : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ ﴾ [الحجر] فلمّا سمعت رضي الله عنها عروة رضي الله عنه يسبُّ حسان بن ثابت رضي الله عنه بعد أن كثَّر عليها، أنكرت على عروة، وأمرته أن يكفَّ عن ذلك، ودافعت عن حسان بن ثابت رضي الله عنه، وذكرت من مناقبه أنَّه كان يدافع عن رسُولِ الله ﷺ، ويردُّ عنه القول والأذى، فمن طريق أبي أسامة، عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ :" أَنَّ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ كَانَ مِمَّنْ كَثَّرَ عَلَى عَائِشَةَ؛ فَسَبَبْتُهُ، فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، دَعْهُ فَإِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ "[3].

نعم، فهو شاعر الرَّسول ﷺ، المؤيَّد بروح القدس، أخرج البخاريّ وغيره عن الزّهريّ، قال : أخبرني أبو سلمة بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ يَسْتَشْهِدُ أَبَا هُرَيْرَةَ : " أَنْشُدُكَ الله، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ :

---

(١) لم تستحضر اسم يعقوب عليه السلام لما بها من الحزن أو البكاء .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٨) كتاب التَّفسير .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٨/ ج١٦/ ص٤٦) كتاب فضائل الصَّحابة.

يَا حَسَّانُ، أَجِبْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : نَعَمْ "[١] وعَن الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانَ :" اهْجُهُمْ ـ أَوْ هَاجِهِمْ ـ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ "[٢] .

تحريم سبّ الصَّحابة رضي الله عنهم

فليحذر الَّذين يقعون في أعراض الصَّحابة لأجل زلّات غُفِرَتْ، فعدالة الصَّحابة لا تعني أنَّهم معصومون عن الخطأ، قال ﷺ: " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، فَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ "[٣].

فما يدريك إذا أخطأ أحدهم أنَّه قد تَابَ، وتَابَ الله عليه، أو أنَّ الله تعالى قد غفر له بسابقته، أو أنَّ له حسنات يذهبْنَ السَّيِّئات، أو أنَّه حلَّت عليه الشَّفاعة، فالصَّحابة رضي الله عنهم أحقُّ النَّاس بها.

ولذلك فإنَّ الخطأ منهم لا يبيح الطَّعن بهم والنَّيل منهم، فلهم مِن السَّوابق والفضائل والمناقب ما تُغْفَر بها الأخطاءُ، ولهم من الحسنات ما تُمْحى بها السَّيِّئاتِ ما ليس لأحد مِن بعدهم، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ "[٤].

فسبُّ الصَّحابـة رضي الله عنهم محرَّم، وهو مِن الكبائـر، ولا يستثنى مِن ذلك أيّاً مِن

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١١٦) كتاب الصَّلاة .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٧٩) كتاب بدء الخلق.

(٣) أحمد "المسند" (ج١١/ ص٧٧/ رقم١٢٩٨٣) وإسناده حسن .

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٩٥) كتاب فضائل الصّحابة .

الصَّحابة ﷺ، فقد قال ﷺ: " لاَ تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ "[1]، وقال ﷺ: " مَن سَبَّ أصحابي، فَعَلَيْهِ لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاس أجمعين "[2].

واعلم أنَّ سبَّ الصَّحابة فيه أذى لله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى هو الَّذي اختارهم لصحبة نبيِّه ﷺ، قال قتادة: " وَلَكِنْ أَحَقُّ مَنْ صَدَّقْتُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ الله لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ "[3] وهو الَّذي زكَّاهم في كتابه الكريم، وضرب لهم مثلاً في التوّراة والإنجيل.

وفيه أذى للرَّسول ﷺ واتِّهام له أنَّه لم يحسن تربيتهم، وأنَّه ﷺ أثنى عليهم وليسوا أهلاً للثَّناء، وهذا ممنوع.

مَن تكلّم ومَن تولّى كبره

في آخر رواية هشام بن عروة أنَّ الَّذين تكلَّموا هم: حمنة، وحسّان، ومسطح ﷺ. وإنَّما أُخِذَ عليهم لأجل أنَّهم سمعوا وأصغوا، وأمَّا مَن اخْتَلَقَ الإفك وأذاعه وأشاعه فهو رأس المنافقين ابن أبيّ، تقول عائشة ﵂: " أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْراً، وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ،

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٩٣) كتاب فضائل الصَّحابة.

(٢) الألباني "سلسة الأحاديث الصَّحيحة" (م٥/ ص ٤٤٦) وقال: بمجموعِ طُرقِةِ حَسَن.

(٣) أحمد "المسند" (ج١٠/ ص٤٣٦/ رقم١٢٣١٦) وإسناده صحيح.

وهو الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ"[1].

نزول الوحي على النبيّ ﷺ في بيت أبي بكر رضي الله عنه ببراءتها رضي الله عنها

دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ على بيت الصَّديق رضي الله عنه، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدَ عائشة مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا. وقبل أن يُفَارِقَ النَّبِيُّ ﷺ مجلسه، وقبل أن يغادر أحدٌ من أهل البيت ممَّن كانوا حضوراً، أَخَذَت النَّبِيَّ ﷺ شِدَّةٌ، وراح يتصبَّبُ عرقاً كأنَّه اللُّؤْلُؤ وهو في يوم شَاتٍ من ثقل ما أنزل عليه، فلمَّا كُشِفَ عنه، وهو يضحك، بشَّرَ عائشة رضي الله عنها بأنَّ الله تعالى قد أنزل براءتها.

وما كانت عائشة رضي الله عنها تظنُّ أنْ يُتكلَّمَ في القرآن الكريم بأمرها، ويُقرأ به آناء اللَّيل وأطراف النَّهار في المساجد، ويُصلَّى به، لكنَّها رضي الله عنها كانت ترجو أن يَرَى النَّبيُّ ﷺ في منامه رؤيا يبرِّئها اللهُ تعالى بها.

قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: " ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ : وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ الله مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ والله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ[2] مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله بِهَا.

قَالَتْ: فوالله مَا رَامَ (ما برح مجلسه) رَسُولُ الله ﷺ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِن البُرَحَاءِ[3] حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٣) كتاب التَّفسير .

(٢) تستصغر نفسها من فرط تواضعها رضي الله عنها.

(٣) الشِّدَّة ، تعني شدَّة نزول الوحي .

الجُمانِ مِنْ الْعَرَقِ[1] وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ.

قَالَتْ : فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا : يَا عَائِشَةُ، أَمَّا الله ﷻ فَقَدْ بَرَّأَكِ.

فَقَالَتْ أُمِّي : قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : لَا والله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ[2] وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا الله ﷻ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ ...﴿١١﴾ ﴾ [النُّور] الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا "[3].

عائشة ﵂ تضيف معرفة النعمة بكلّيتها إلى الخالق دون الخلق

ويلاحظ في قول عائشة ﵂ : "وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا الله ﷻ" نَفْي معرفة النِّعمة عن أحد من الخلق، وإضافتها بكلِّيتها إلى الخالق وحده، وهذا من كمال التَّوحيد؛ فإفراد الله تعالى بالحمد في هذا المقام فيه تجريد التّوحيد، فالله تعالى وحده الَّذي أنعم بإنزال براءة ساحتها.

وفيه تجريد المتابعة للنَّبيِّ ﷺ والتَّمسُّك بقوله ﷺ، فهو الَّذي أمرها أن تفرد الله تعالى بالحمد؛ ففي رواية :" فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي :" يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي الله، فَقَدْ بَرَّأَكِ الله"[4]. وقولها يدلّ على حسن سمعها، ووفور عقلها، وعقول كلّ قوم على قدْر زمانهم !

---

(١) شبَّهت قطرات عرقه ﷺ بحبَّات اللؤلؤ، لوجه الشَّبه الجامع بينهما، وهو الصَّفاء والحسن.

(٢) من باب الإدلال عليه ﷺ، معرفة منها بمحبَّته لها ورضاه عنها .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٨) كتاب التَّفسير .

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٥٧) كتاب الشّهادات .

أبو بكر الصديق ﷺ يعفو عن مسطح ﷺ ويصفح

كان أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ وقَّافاً عند كتاب الله تعالى، يعمل به ولا يتجاوزه اقتداءً برسول الله ﷺ، فلمّا أنزل الله تعالى براءة عائشة ﷺ، أقسم أبو بكرٍ ﷺ أن لا ينفقَ على مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ ﷺ بعد أن قال الَّذي قال في عائشة ﷺ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ ...﴿٢٢﴾ ﴾ [النُّور] .

فقَالَ أَبُو بَكْرٍ : " بَلَى والله إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِي" وعَادَ له ﷺ بما كان يصنعُ، ففي آخر حديث عروة عن عائشة، قالت : " فَلَمَّا أَنْزَلَ الله هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ (وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ): والله لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ ما قال، فَأَنْزَلَ الله :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النُّور] قَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَلَى والله إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ : والله لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا"(١) . فثبت بذلك وقوع المغفرة لمن غَفَرَ إلى مَنْ أساءَ إليه وصفح عنه.

الحُكم فيمن قذف طيّبة طابة ﷺ بعد أن أنزل الله تعالى براءتها

لا يمكن لأحدٍ مِن النَّاس ـ وضيعاً كان أو رفيعاً ـ أن يَنْأَى بنفسه عن أذى النَّـاس وشرورهم مهما تخلَّق بأخلاق الكِرام ؛ فمن العوام كالأنعام ، ومِـن الرَّعَاع

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٩) كتاب التَّفسير .

كالسَّمِّ النّاقِع، ومن الخَلْق خَلْق هان عليهم أمر الله تعالى ونهيه ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزّمر]، ومنهم مَنْ لم يعرف فضل النَّبيِّ ﷺ وصحبه ﷺ، فكيف لهم أن يعرفوا فضلك، أو أن ينزلوك منزلتك؟!

وهذا الأذى والبلاء الَّذي لحق بطيِّبة طَابَة عائشة رضي الله عنها تكاد تذوب منه القلوب، وتذهل له العقول، فكيف بمن تجرَّعه أَنْفاساً، وشَرِبَه عَلَلًا بَعْدَ نَهَلٍ ؟! قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ : "واتَّفقت الأمَّة على كفر قاذفها"[1].

قلت : ذلك لأنَّ الطَّعن بأمِّ المؤمنين رضي الله عنها بعد أن برَّأها الله تعالى في كتابه فيه تكذيب صريح لكلام الله تعالى الَّذي برَّأها، وفيه أذىً للرَّسول ﷺ، بدليل قوله ﷺ :" مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟! "وأذيَّة الرَّسول ﷺ حرام بالاتِّفاق.

كذلك فيه تنقُّص للرَّسول ﷺ ؛ لقوله تعـالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [النُّور] وما كان الله تعالى ليجعلها زوجة النَّبيِّ ﷺ لولا أنَّها مبرّأة وطيِّبة من سلالة طيِّب، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [النُّور] فقد كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه، وما كان رسول الله ﷺ أن يحبَّ إلَّا طيِّباً.

وبالجملة، الوَقِيعَة في عائشة رضي الله عنها فيها أذىً لله تعالى وللرَّسول ﷺ، وفيها أذى للمؤمنين والمؤمنات، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ

---

(١) ابن القيّم "زاد المعاد" (م١/ ص١٠٣).

ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[الأحزاب].

وحُكْمُ مَنْ تكلَّم بعد أن أنْزلَ اللهُ براءَتها يختلف عن حكم مَنْ تكلَّم في عهد النَّبيِّ ﷺ، فقد جَعَلَ الله تعالى بعد هذه الحادثة شَرْطَ الإيمان تَرْك قذف المحصنة الغافلة المؤمنة، فقال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النُّور] فمن عاد لمثله فليس مؤمناً، فالعودة لمثل هذا الإفك والبهتان العظيم في حقِّ أمِّ المؤمنين من نواقض الإيمان؛ لأنَّ فيه مخالفة للقرآن.

الآيات العشر في براءة عائشة رضي الله عنها

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾[النُّور].

من دلالات الآيات وعظاتها وهداياتها

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ وهو أعظم ما يكون مِنَ الكَذِبِ على عائشة رضي الله عنها، والاسم الموصول (الَّذين) ظَاهِر في إرادة جماعة، وفي لفظ (جاؤوا) إشارة إلى أنَّ الإفْك لا أصل لَه، وإنَّما جاؤوا بِه مِن عند أنفسهم.

﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ جماعة منكم، وعلى رأسهم رأس المنافقين ابن أبيّ. قلت : وقد عُدَّ ابن أبيّ في المؤمنين وليس منهم، وهو أسلوب معروف في العربيَّة كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ... ۝٣١﴾ [الحجر] فقد عُدّ إبليس في الملائكة وهو ليس منهم.

﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ الخِطَاب وإن كان عامّاً لكلِّ مؤمن سَاءَه ذلك، لكن فيه تسلية خاصَّة للنَّبيِّ ﷺ، وأبي بكر، وعائشة، وأمِّ رومان، ومسطح رضي الله عنهم.

﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ فلا عجب أن تحطَّ البلايا وتنزل الرَّزايا بالأنبياء والأولياء؛ سأل سَعْد رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ، قَالَ :" قلت : يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ مِن النَّاسِ"(١) وذلك لما فيها من الخير الخفيّ والجليّ، قال ﷺ "إِنَّ الرَّجُلَ لتكُون لَهُ عِنْدَ الله الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ الله يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا"(٢).

---

(١) أحمد "المسند" (ج٢/ ص٢٢٧/ رقم١٤٨١) وإسناده صحيح .

(٢) "التّعليقات الحسان على صحيح ابن حبّان" (ج٤/ ص٤٥٥/ رقم ٢٨٩٧) وإسناده حسن.

والخير من وجوه: منها الأجر العظيم للنَّبيِّ ﷺ ولأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولأبي بكر وآله، الَّذين أوذوا وصبروا.

ومنها الشَّرف العظيم لأمِّ المؤمنين؛ فالله تعالى أنزل براءَتها في قرآن يُتْلى، ولهذا لَّما دخل ابنُ عبَّاس عليها رضي الله عنها، وهي على فراش الموت، أثنى عليها وقال: " زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِن السَّماءِ"(١).

ومنها إعلاءُ قَدْرِ المؤمنين الَّذين قَدَّمُوا حُسْنَ الظَّنِّ وحسن العَهْد بأمّ المؤمنين رضي الله عنها، والثَّناءُ عليهم من الله تعالى، وعِظَةٌ للمؤمنين إلى قيام السَّاعة من الإِقدام على مثل هذا الحديث خشية أنْ تزلَّ الأقدام، ووجوب التَّحفظ في الأمور والتَّثبُّت من الأخبار، فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات]، وتنبيه عائشة رضي الله عنها ومَنْ أُوذي مثلها وأصيب بمصابها أنَّ ذلك ليس شرّاً، وإنَّما هو خير وعاقبته حسنة، ولذلك جاء الخطاب عامّاً، وسيق للتَّأسِّي بما جرى لعائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

ومِنَ الوجوه فضح المنافقين وما يضمرونه من شرٍّ للنَّبِيِّ ﷺ وأهل بيته وللمؤمنين، والتَّعريف بخطرهم والتَّحذير منهم، وتثقيل ميزان عائشة رضي الله عنها وميزان صفوان رضي الله عنه مِن الطَّاعنين التَّابعين لهم بغير إحسان، المخالفين لأمر الرحمن جل جلاله، الوارثين لنفاق ابن أبيّ.

فضلاً عن أنَّ هذه الآيات أحوج مَا يكون العباد للعمل بها حتَّى قيام

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٠) كتاب التَّفسير.

السَّاعة، والله إذا أراد أمراً أصابه، ولولا هذه الحادثة الَّتي لا تعدو أمر الله تعالى لضاعت فوائد وفوائد .

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ هذا حُكْم الله تعالى، أن تحملَ كلُّ نفسٍ ما اكتسبت، كما قال تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]، وكما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثر] .

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من العصبة ، وهو المنافق ابن أبيّ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ لأنَّه أذاع ما أذاع مِنَ الإفك عداوةً للنَّبيِّ ﷺ ، ويلاحظ تَغَايُر العقوبة بين مَنْ تَكَلَّم وبين مَنْ تولَّى كبره .

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ لو لا : للتَّحضيض والتَّنديم والتَّنديد، فالله تعالى يحضُّ المؤمنين ويحثُّهم على تقديم حُسْنِ الظَّنِّ عند سماع مثل هذا الحديث الَّذي ليس عليه شهود، فلا ينبغي لمؤمن أن يطعن في أخيه المؤمن الَّذي هو في منزلة نفسه. وجَعَلَ الغير مقام النَّفس (بأنفسهم)، فالمؤمنون كَنَفْسٍ وَاحِدة، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...﴿١١﴾﴾ [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [النِّساء] .

وكان مِن حقِّ (لولا) أن يليها الفعل (ظنَّ) مِن غير فاصل، لكن فَصَلَ بينهما قوله : (إذ سمعتموه) والظَّرف يجوز فيه، لأنَّ الظَّرفَ لا ينفكُّ عنه ما يَقَعُ فيه. والغرض مِنْ تقديم الظَّرف (إذ) العناية به والاهتمام بمدلوله، فقد كان ظَنُّ الخير واجباً من أوَّل زَمَنِ سَمَاعِ حديث الإفك، فالواجب تقديم الأهمِّ في الذِّكر،

فلمّا كان ذِكْرُ الوقت أهمَّ وجب تقديمه. وقدّم ظرف الزَّمان (إذ) المتعلِّق بالفعل (ظنَّ) على الفعل (سَمِعَ) للغرض نفسه، وهو الاهتمام بإنكار حديث الإفك من أوَّل زَمَنِ سَمَاعِهِ.

وأسند فعل الظَّنِّ إلى المؤمنين، فقال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وَعَدَلَ عن إسناده إلى الضَّمير، فلم يقل (ظننتم) على مقتضى الظَّاهر مع أنَّه أوجز، وهذا يعرف في علم المعاني بالالتفات، ووجه حسن الالتفات أنَّه عَدَلَ عن الضَّمير إلى الظَّاهر ليكون أبلغ في التَّعنيف والتَّنديم، وليصرِّح بلفظ الإيمان الَّذي يشتركون به، والمقتضي أن لا يصدِّق مؤمنٌ على مؤمنٍ شيئاً من الإفك والبهتان إلّا ببيِّنة وبرهان.

وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ يفهم منه كذلك أنَّ هذا الكلام إنْ كانوا لا يرضونه لأنفسهم، فأمّ المؤمنين أولى بالبراءَة منه، وبأَنْ يظنُّوا بها عفافاً كظنِّهم بأنفسهم.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ استئناف غرضه حضُّ المؤمنين إلى المبادرة إلى تكذيب حديث الإفك، فالظَّنُّ الواجب للمؤمن أَمَام أَبْيَنِ الكَذِبِ هذا أن يُسَارِعَ إلى تكذيب قائله، فهو كَذِبٌ ظاهر لا يليق بما عليه أمِّ المؤمنين رضي الله عنها من الإيمان الوازع عن مثل هذا البهتان، فأمّ المؤمنين ليست كأحد من النِّساء في الشَّرف والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ...﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب] فشرف المنزلة مَانِعٌ عن مثل هذا الإفك، فهي قدوة حسنة كسائر أمَّهات المؤمنين، ومن يُقْتَدَى به لا يُصدَّق عليه هذا الكذب.

وكان مِنَ الصَّحابة رضي الله عنهم مَنْ سَمِعَه فسكت، ومنهم مَـنْ تكلَّم متعجباً مِـنْ

قائله، ومنهم مَنْ سارع إلى تكذيبه والإنكار على قائله، وهم السَّواد الأعظم .

وقوله : ﴿ هَٰذَآ إِفۡكٌ ﴾ باسم الإشارة، يجسِّد المعنى ويجلِّيه ويبرزه في أبشع صورة ويحضره في ذهن السَّامع حسّاً، فكأنَّ الكذب ماثلٌ أمام أعينهم بما فيه من قبح وظلم بيِّن لا يليق بالمؤمنين، ولعلَّ ذلك سرُّ الإعراض عن الضَّمير، فلم يقل : (هو إفك)، وقد جاء ذكر حديث الإفك باسم الإشارة في موضعين آخرين للغرض نفسِه، فقد جاء في قوله : ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾، وقوله : ﴿ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ لما في الإشارة إليه من تجسيد للمعنى، والله أعلم.

﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ ﴾ هلّا جاؤوا على ما زعموا مِن الإفك ﴿ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ ﴾ إنْ كانوا صادقين، والشَّهادة هذه مطلقة، وجاءت مقيَّدة في مثل قوله تعالى : ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ...﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] فليس المرادُ أربعةَ شهداء حتّى لو كانوا مجروحين، وإنَّما أربعة شهداء عدول.

﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الفاء : استئنافيَّة، وإذ : شرطيَّة، أي فإذا عجزوا عن الإتيان بأربعة شهداء ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في حكمه وشريعته ﴿ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ لا غيرهم.

وصيغة الحصر في جواب الشَّرط في قوله تعالى : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ للمبالغة، وكأنَّ الكَذِبَ انْحصَرَ فيهم. وضمير الفصل (هم) أفاد الاختصاص، فما يُنْسَبُ إلى المسند إليه ثابت له دون غيره، والمسند إليه هو المبتدأ (أولئك)، وما ينسب إليه هو الكذب.

والغرض من اسم الإشارة (فأولئك) الإشارة إليهم لمزيد تعيينهم بصفة الكذب تحذيراً لنا مِن أمثالهم، أمَّا التَّقييد والتَّعيين في شبه الجملة الظَّرفيَّة (عِنْدَ الله) فلزيادة ثبوت كذبهم وتحقُّقه. وأضيف ظرف المكان إلى لفظ الجلالة للتَّعظيم، وكلُّ ذلك من باب تعظيم حرمة عِرْضِ المسلم.

ونتعلَّمُ من الآية أنَّ الواجِبَ ألّا نُصَدِّقَ مَنْ يرمي مُؤْمِناً بفاحشة إلَّا أنْ يأتيَ بأربعة شهداء، فإن لم يأتِ بهم، قلنا له : أنت عند الله تعالى من الكاذبين.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ لولا : حرف امتناع لوجود، وفضل : مبتدأ حذف خبره، وتقديره موجود، أي لولا فضل الله عليكم موجود ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ ﴾ خضتم وأكثرتم ﴿ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ لكنَّ فضل الله عليكم ورحمته موجودة في الدُّنيا والآخرة، وهذا وعد ضمنيٌّ من الله تعالى بالفضل والمغفرة لهم دون الَّذي تولَّى كبره؛ فالآية مصرِّحة بأنَّ العذاب لا يَمَسُّ كُلَّ مَنْ تكلَّم، وإنَّما يمسُّ مَنْ تولَّى كِبْرَه، وهو ابنُ أُبيّ، كما قَال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ فالعذاب العظيم مختصٌّ بِمَنْ تولَّى كبره دون غيره، لأنَّه إنَّما قال ما قال ليعيب الرَّسول ﷺ ويغيظه عن قصد؛ كراهة لما جاء به مِنَ الحقِّ.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ الآية فيها زجر عن أمرين محظورين : تلقُّف مثل هذا الكلام ونقله، والقَول بلا علم.

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ صغيراً ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ في الإثم، فهو من الكبائر.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم ﴾ هلَّا قلتم إذ سمعتموه ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ ﴾ ما يحلُّ لنا ﴿ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ ولم يقل(به)، وإنَّما جاء باسم الإشارة (هذا) لتجسيد الحديث والدَّلالةِ على ظهوره، وأنَّه مع هذا لا يكون لنا أن نتكلَّم به وإن ظهر واشتهر، وذَاعَ وشَاعَ. وقوله (ما يكون) أقوى في الدَّلالة على عدم الجواز مِن (ما ينبغي) لأنَّ (ينبغي) من أفعال المطاوعة، والله تعالى أعلم .

﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ والتَّسبيح مجازٌ عن التَّعجُّب وذريعة له، وعلاقته السَّببية، فكل مَنْ تعجَّب مِنْ أمر، قال : (سبحان الله!). و(سُبْحان) اسم مصدر و(بُهْتان) مصدر، وكلاهما على وزن (فُعْلان) وفيهما دلالة بالغة على المبالغة في إنكار حديث الإفك، والتَّعجب من عِظَمِ أمره.

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالأمر والنَّهي، والتَّحذير والتَّذكير، والتَّرغيب والتَّرهيب ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ لنظير القول في عائشة ﵂، وهذا من باب الزَّجر ﴿أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ جعَلَ شَرْطَ الإيمان ترك القذف، فإنَّ الإيمان يمنع مِن ذلك، وفيه تهييج لهم على سماع وَعْظه سبحانه، وإذا جاءت العِظَات مِـنَ الله تعالى فنعمَّا هي، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ...﴿٥٨﴾ ﴾ [النِّساء] .

ولعلَّه خصَّ المؤمنين بالوعظ دون غيرهم، لأنَّهم الَّذين ينتفعون به، والله أعلم. فما أحوجنا إلى القرآن ولفظه، وما أفقرنا إلى تدبُّره ووعظه !

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ويوضِّح لكم الأحكام، وهذا من رحمة الله تعالى لعباده المؤمنين، فالقرآن فيه مَوعِظَةٌ ، وشِفَاءٌ ، وهدىً ، ورحمةٌ ، قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وَاعْجَبْ كيف هجر كثير من النَّاس هذا الخير الجزيل والعطاء الجميل !﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ له الحكمة البالغة، والحجَّة الدَّامغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الاسم الموصول (الَّذين) يعمُّ كلَّ مَنْ يتَّصف بصفة صلة الموصول ابتداءً بابن أُبيّ وأصحابه، وانتهاءً بمن تَبِعَهُ وشايعه. والآية صريحة في وجوب حسن الاعتقاد بالمؤمنين وسلامة القلب لهم، فقد جعل الوعيد على محبَّة شيوع الفاحشة في المؤمنين؛ لما فيها من فساد النيَّة، وخبث الطويَّة، وفيها تحذير من إشاعة الفاحشة ونشرها في المؤمنين، وفي معناها قوله ﷻ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ...﴿١٤٨﴾﴾ [النِّساء] .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وإذا كان هذا حال من يحبُّ أن تشيع الفاحشة، فكيف بحال مَن ارتكب ما هو أعظم من ذلك ؟! ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النُّور]
الواو : استئنافيَّة، و(لولا) : حرف امتناع لوجود، و(فضل) : مبتدأ حُذِف خبره وجوباً، وتقديره موجود. وجواب الشَّرط محذوف، والتَّقدير فيه لهلكتم، ونحوه، ولعلَّه حُذِفَ للعلم بِهِ توخِّياً للإيجاز، أو أنَّه ترك للتَّعظيم والتَّهويل؛ حتَّى تذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، فهو أمر هائل لا يُبْلَغُ كُنْهُه ولا يُنَال آخِرُه.

القواعد الحسان لمن سمع حديث الإفك والبهتان

جاء حديث الإفك صيانة للمجتمع من خَرْص الخرَّاصين، وأقاويل المنافقين. ومَنْ نَظَرَ بعين عقله، وسمع بأذن قلبه، خرج بخمس قواعد حسان، حقيق أن يأخذ بها كلُّ إنسان سمع حديث الإفك والبهتان، أوَّلها : أن لا يصغي المرء إلى حديث الإفك ولا يطرق أُذُنه، وأن ينزِّه سمعه ويحمى بصره، حتّى لا يكون شريكاً فيه، وقد تقدّم قول زينب أمّ المؤمنين ﵂: "أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي".

ثانيها : جدير به أنْ يَعْرِضَ حديث الإفك على نفسه، فإذا كان لا يصدِّقه على نفسه، فمن الأولى أن لا يصدّقه على غيره من المؤمنين، فلا يظنّ بهم إلّا خيراً، ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ...﴿١٢﴾ ﴾ [النّور].

ثالثها : أن يرجع إلى الأمر المعلوم المحقَّق عنده من إيمان المؤمنين الوازع والمانع عن البهتان، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، فوجاهته عند الله ﷻ تدفع عنه وتبرِّئه، وقوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ ...﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، فشرف المنزلة يدفع عنهنَّ الإفك ويفضحه.

رابعها: أن لا ينقل حديث الإفك ويذيعه إذا لم يكن في ذلك مصلحة للأمَّة، وقد عاب الله تعالى على نَاسٍ سُوءَ سَمْعهم وقَوْلهم وأكلهم ، فقال تعالى : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ ...﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ ...﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة].

خامسها : يلزمه أن يطالب ناقل الشَّائعة بالدَّليل والبرهان، وقد قَال الله

تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النّور]، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات].

الحكمة من نزول براءة عائشة رضي الله عنها وحياً يتلى

قد يسأل سائل : لماذا لم تكن براءة عائشة رضي الله عنها وحياً على قلب رسول الله ﷺ أو رؤيا رآها، وإنَّما وحياً يُتْلَى ؟!

والجواب : جاءت براءَتها محكمةً في كتاب الله تعالى حتَّى تكون براءةُ عائشة رضي الله عنها ثابتةً قطعاً لا ظنّاً، والمؤمنون إذا تليت عليهم آيات الله تعالى تزيدهم إيماناً، كما قال جلّ جلاله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ (١) إِيمَـٰنًا ... ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

أمَّا المنافقون الَّذين على قلوبهم أغطية وفي آذنهم صَمَمٌ، فلو جئتهم بكلِّ آية لا يؤمنون بها، ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف]، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة].

فحتَّى يومنا هذا هناك مَنْ يَصْرِفُ الآياتِ عن براءة عائشة رضي الله عنها، ويزعم أنَّها نزلت في براءة مارية رضي الله عنها ممَّا رمتها به عائشة رضي الله عنها، وهذا كلام غليظ تَنْبُو عنه

---

(١) إسناد زيادة الإيمان إلى الآيات مجاز عقليّ، لأنَّ الآيات ليست هي الَّتي تزيد الإيمان حقيقة، وإنَّما هي سَبَبٌ، والمعنى أنَّ الله تعالى زادهم إيماناً بسبب الآيات، فهو من باب التَّجوُّز في الإسناد.

الأسماع، وعليه جفوة أشدُّ مِنْ جَفْوةِ الجاهليَّة.

أمَّا مارية أمّ ولد رسول الله ﷺ فلا تُتَّهم بشيء، والنَّبيُّ ﷺ تزوَّجها في السَّنة السَّابعة من الهجرة، وحديث الإفك كان في السَّنة الخامسة من الهجرة، فكيف تنزل الآيات فيها، وهي مقيمة على دين قومها، ولا علم له ﷺ ولا علم لعائشة رضي الله عنها بها ؟! فما ذاك إلَّا من التَّجنِّي .

أيضاً الَّذين جاؤوا بالإفك جماعة، فألفاظ القرآن تدلُّ على ذلك، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ ﴾، وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ ﴾.

أيضاً القاذف رجل وليس امرأة، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ [النّور] .

وقد نقل ابن الجوزيّ إجماع أهل السُّنَّة على أنَّها نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها، قال :" أجمع المفسرون أن هذه الآية وما يتعلق بها بعدها نزلت في قصة عائشة رضي الله عنها، وفي حديث الإفك أن هذه الآية إلى عشر آيات نزلت في قصَّة عائشة "(١) .

ونقل ابن أبي الحديد التَّواتر على أنَّها نزلت في عائشة رضي الله عنها، قال :"وجَحْدهم لإنزالِ ذلك في عائشة جَحْدٌ لما يُعْلَمُ ضرورة من الأخبار المتواترة"(٢) .

فإيَّاك أنْ تعود لمثل كلام ابن أبيّ بعد نزول القرآن صريحاً في بَراءة عائشة

---

(١) ابن الجوزيّ "زاد المسير" (م٥/ ص٣٤٧).

(٢) ابن أبي الحديد "شرح نهج البلاغة"(م٤/ ص٣٠١).

فَتَجِب لك النَّار، فبراءة عائشة نتعبّد الله تعالى بها في كتاب الله تعالى، وهذا الكلام لا ينبري لمعاداته، ولا يجترئ على ردِّه ومجاراته، ولا ينكره إلّا مَن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت].

ولكن لمن تقول هذا، فمن الخلق مَنْ لا يَذْهَنُ شَيْئاً، ولا يَعِي رأياً، وَلا يفقه قَوْلاً، ولا يُبْصرُ شيئاً ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ...﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

لم يؤذون عائشة رضي الله عنها؟!

الَّذين آذوا عائشة في عهد النَّبيِّ ﷺ جماعَةٌ من المنافقين كُرْهاً في النَّبيِّ ﷺ وعداوةً له، وبغضاً لأبيها أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه السَّابق بالتَّصديق، ولم يقصدوا عائشة رضي الله عنها، وإنَّما كانوا يريدون النَّيل من النَّبيِّ ﷺ الَّذي نجح في الدَّعوة في المدينة، ومظاهرة الكفَّار على المسلمين.

ولذلك فِي مَرْجِعِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ، قَالَ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ ابْنُ أُبَيّ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وعنى بالأعزِّ نفسه، وبالأذلِّ النَّبيَّ ﷺ، فهو يريد أن يُخرجَ النَّبيَّ ﷺ من المدينة كما أخرجه الَّذين كفروا من مكَّة.

أخرج البخاريّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه، قَالَ: " كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَقَالَ أَيْضاً: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ

لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ الله ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ... ﴿١﴾﴾ [المنافقون] إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ... ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ... ﴿٨﴾﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الله قَدْ صَدَّقَكَ "[1].

فلا يستبعد أنَّ الَّذين يحملون على عائشة ﵂ الأحقاد، في كلِّ الأزمان والأحقاب، إنَّما غرضهم مظاهرة الكفَّار على المسلمين؛ فمعاونةُ الكفَّار على المسلمين خَصْلَةٌ مِن النِّفاق وشُعْبة من شُعَبِه، قَال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النّساء]، وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة].

أمَّا الَّذين تكلَّموا بالإفك من المؤمنين، مثل: مسطح، وحسَّان، وحمنة، فلم يقصدوا أذى النَّبيِّ ﷺ، بخلاف ابن أبيّ وأصحابه، الَّذين قصدوا إيذاءه ﷺ ومحاربته.

أمَّا الَّذيـن وَرِثوا نِفَاقَ ابن أُبيٍّ، سواء مَـنْ ذَهَبَ بهم الماضي الغابر، أو مَنْ

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٣/ ج٦/ ص٦٤) كتاب التَّفسير.

بَرِمَ بهم الحاضر، فَغَرَضُهم من الطَّعن بأمِّ المؤمنين ﵂، الطَّعن والتَّشكيك في السُّنَّة الَّتي روتها ونقلتها عن رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الطَّعن في الرَّاوي طعنٌ في المرويِّ، والتَّشكيك في النَّاقل تشكيك في المنقول.

فأمّ المؤمنين عائشة مِن بين السَّبعة المكثرين عن النَّبيِّ ﷺ رواية، ومُسْنَدُها ﵂ يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ وَمائَتَيْنِ وَعَشْرَةِ أَحَادِيْثَ، وانفردت عنهم بأنَّ جلَّ الأحاديث الَّتي روتها تلقَّتها عن النَّبيِّ ﷺ مشافهةً، كذلك تناولت السُّنن الفعليَّة لقربها من النَّبيِّ ﷺ وطول ملازمتها له ﷺ، حتّى قِيلَ إِنَّ رُبْعَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَنْقُولٌ عَنْهَا ﵂.

وهؤلاء الوارثون لابن أبيّ لا يستطيعون إظهار العداوة للنَّبيِّ ﷺ مواجهة، فيجرحون عائشة ﵂ محاربة للسُّنن القوليَّة والفعليَّة الَّتي ورثتها عن رسول الله ﷺ، وبلَّغتها عنه ﷺ.

ولا يغيب أنَّ في حِرص عائشة ﵂ على الحديث، وحفظها وروايتها له وتبليغها عن النَّبيِّ ﷺ منقبة عظيمة لها، فقد كان همّها حفظ الحديث وتبليغه، فوردها النَّاس وتلقُّوه منها، وتاجروا فيه، فربح البيع، وربحت التِّجارة.

هذا وقد دعا النَّبيُّ ﷺ لمن سَمِعَ كلامَه ووعاه وبلَّغه بالنُّضرة، فقال ﷺ: " نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ "(١).

فأمّ المؤمنين عائشة ﵂ ممَّن بلَّغ عنه مَنْ غَابَ، وممَّن حظي بهذا الدُّعاء الْمُسْتَجَاب، وهي ممَّن امتثل قوله ﷺ:

---

(١) أحمد "المسند" (ج٤/ ص١٦٢/ رقم٤١٥٧) وإسناده صحيح.

" بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً[1] "[2].

فطوبى لمن تشرَّف بالبلاغ عنك يا رسُولَ الله! وأوَّلهم الصَّحابة ﷺ، حملة العلم، ونقلة الدِّين، وأمان الأمَّة.

واعلم أنَّ عائشة رضي الله عنها أوذيت في حياتها وبعد مماتها؛ لأنَّ لها شأواً عالياً في الإسلام، فالرِّيح لا تلطمُ عواصفُها إلَّا العالي من الشَّجر، كما قال الشَّاعر :

إنَّ الرِّيـاحَ إذا اشتـدَّتْ عواصِفُـها ... فليس تَرْمِي سِوى العَالي مِـنَ الشَّجَرِ

أو كما قال آخر :

فالرِّيـحُ تحطمُ إنْ هبَّت عواصِفُها ... دوح الثِّمار وينجو الشِّيحُ والرَّتَـم

ثلاث من كن فيه كن عليه

اعلم أنَّ أهل الحقِّ يُعَادَوْنَ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ...﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان] .

واعلم أنَّ أهل الحقِّ يُستَهزأ بهم، قال تعالى :﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ...﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان] ولذلك قال هؤلاء المستهزئون ما حكاه الله تعالى عنهم : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان]. ولا يخفى خروج الاستفهام إلى معنى التَّحقير، وأنَّ اسم الإشارة (هذا) للقريب، والغرض التَّحقير

---

(١) قوله ﷺ :" بَلِّغُوا " تكليف، وقوله ﷺ: " عَنِّي " تشريف، وقوله ﷺ: "وَلَوْ آيَةً " تخفيف.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٤٥) كتاب أحاديث الأنبياء .

بالقرب أيضاً، ومثله قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ...﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] ، وقول مَنْ قال منهم : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ ...﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

فإيذاء النَّبيِّ ﷺ، ورمي أصحابه ﷺ، وإيذاء المؤمنين في عائشة ﵂ مِن السُّنن، ذلك أنَّ أهل الحقِّ لهم أعداء، ولذلك قال ورقة للنَّبيِّ ﷺ : " لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ "(١).

لكن الباغي عليه تدور الدَّوائر، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس] والسُّوء لا يقع فيه إلَّا فاعله، والمكر لا يحيق إلَّا بصاحبه ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] .

ولذلك قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:" ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ : الْبَغْيُ، وَالنَّكْثُ، والمكْرُ " قال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس]، وقال: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح]، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] .

فمَنْ ظَلَمَ عائشة ﵂ ممَّن سَلَفَ ومضى وغبر، أو ممَّن خَلَفَ وأدبر واستكبر، فإنَّما بغيه على نفسه، وإنَّما حسابه عند ربِّه.

---

(١) متَّفق عليه: البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٣) بَدْء الوحي ، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي"(م١/ ج٢/ ص٢٠٣) كتاب الإيمان .

وهذه سنن ماضية لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر].

واعلم أنَّ من سُنَنِ الله تعالى أنَّ الرُّسل تبتلى ثمَّ تكون لهم العاقبة، قال هِرَقْلُ لِأَبِي سُفْيَانَ :"وسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُم الْعَاقِبَةُ"(1).

ومِنْ سُنَنِ الله تعالى أن يُبْتلى المتَّقون، ثمَّ يجعل الله تعالى العاقبة لهم، قال تعالى :﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص] ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه].

حَنانَيْكَ ربَّنا، اجعلنا مِنَ المتَّقين الَّذين قلت فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [الدّخان] وقلت فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر].

قذف المحصنات من السّبع الموبقات

القذف لغة : الرَّمي مطلقاً بحجر أو سهم ونحوهما ممَّا يؤذي، ثمَّ اسْتُعِير للقذف باللِّسان، لأنَّه يشبه الأذى الحسيّ، فخرج اللِّسان مخرج اليد، فهو في المقال كناية عن الشَّتم . والقذف اصطلاحاً : الرَّمي بزنا، واشتهر فِي هذا المعنى حتَّى غلب عليه .

(1) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص١٦٨) كتاب التّفسير . ومسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي"(م٦/ ج١٢/ ص١٠٦) كتاب الجهاد.

وجاء التَّعبير عن القذف بالرَّمي ثلاث مرَّات في ثلاث آيات مِن سورة النَّور، قَال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ...﴿٤﴾ ﴾ [النّور]، وقَال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ...﴿٦﴾ ﴾ [النّور]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ...﴿٢٣﴾ ﴾[النّور] وهو من بلاغة القرآن؛ فإنَّ الكلمة إذا خرجت من اللِّسان لا يقوى اللِّسان على العودة بها أو ردِّها، فهي كالحجر ونحوه ممَّا يُرمى، فلا تعود اليْدُ قادرة على ردِّه .

واتَّفق الفُقَهاءُ على تحريم القَذْفِ، وأنَّه من الكبائر، والأصل في تحريمه الكتاب والسُّنَّة، فمن الكتاب آيات بيِّنات، منها قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النّور] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النّور] .

واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على أقوال أربعة : الأوّل أنَّها نزلت في عائشة ﵂، والثَّاني : أنَّها في أزواج النَّبيِّ ﷺ، والثَّالث : أنَّها في المهاجرات، والرَّابع : أنَّها عامَّة في أزواج النَّبيِّ ﷺ وغيرهنَّ .

وقوله تعالى :﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ أي لا علم لهنَّ بما رمين به، كناية عن براءتهنَّ، وقوله :﴿ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ فيه تشنيع على الَّذين يقذفونهنَّ كذباً؛ لأنَّ وصف الإيمان وازع لهنَّ عن الوقوع في هذا الإفك المفترى .

ومن أدلَّة تحريمه من السُّنَّة قولُ النَّبيِّ ﷺ:" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا

: يَا رَسُولَ الله : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ بالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ[1] الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ"[2].

حصان رزان

قَالَ حَسَّان رضي الله عنه يُبَرِّئُ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِيمَا قِيلَ فِيهَا، وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهَا:

حَصَانٌ[3] رَزَانٌ[4] مـا تُزَنُّ[5] بِريْبَةٍ ... وتصْبِحُ غَرْثَى[6] مِن لحومِ الغوَافِلِ
حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ ديناً وَمنْصِباً ... نبيُّ الهُدى والمَكرُماتِ الفَوَاضِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِـن لُؤيّ بنِ غالِبٍ ... كِرَامِ المَساعي مجْدُها غيْرُ زَائِـلِ
مُهذَّبَةٌ قَـدْ طيَّبَ اللهُ خِيمَها[7] ... وَطهَّرهـا مِـن كلِّ سُوءٍ وباطِـلِ
فَإنْ كُنْتُ قد قُلتُ الَّذي قد زَعمتُمُ ... فَلا رَفَعَتْ[8] سَوْطِي إليَّ أنامِـلي[9]

---

(١) القذف أنواع ثلاثة : صريح، وكناية، وتعريض. واتَّفق الفقهاء على وجوب حدِّ القذف بصريح الزِّنا، واختلفوا في الكناية والتَّعريض.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٩٥) كتاب الوصايا .

(٣) عفيفة.

(٤) ذات ثبات ووقار.

(٥) ما تُتَّهم .

(٦) جَوْعَى، أي لا تقع في لحوم النّاس، ولا ترتع في أعراضهم.

(٧) أصلها .

(٨) يدعو على نفسه أن تشلَّ يدُه إن قال شيئاً ، لكن سمع.

(٩) ديوان حسّان بن ثابت رضي الله عنه (ص٢٠٢).

ما هي بأوَّل بركتكم يا آلَ أبِي بكر

بَارَكَ الله تعَالى لِلنَّاسِ بأبِي بكر رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها، ففضلهما وتكرار البركة منهما وكثرة الخير بسببهما ثابت في الكتاب والسُّنَّة، فما نَزَلَ بعائشة مِنْ أَمْرٍ تكْرَهه إِلَّا جَعَلَ الله تعالى لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْراً، فضياع عقدها وما نَشَأَ عنه من حديث الإفك نزل بسببه آيات محكمات، فيها من الأَحكام والإِحكام ما فيها، فَمَا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةَ عِقْدِها!

وقد ضاع عقدها في غزاة أخرى، وكان سبباً في نزول آية التَّيمُّم، قالَتْ عائشة رضي الله عنها: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ، انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى التِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ أَقَامَتْ بِرَسُولِ الله ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ؟

فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ الله ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ الله ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي، وَقَالَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى فَخِذِي، فَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ الله آيَةَ التَّيَمُّمِ فَتيَمَّمُوا.

فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الحُضَيْرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ، فَوَجَدْنَا العِقْدَ تَحْتَهُ "[1].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٩٥) كتاب المناقب.

القسم الثالث
نفحات من استدراكات أمّ المؤمنين رضي الله عنها

رجوع الصّحابة رضي الله عنهم إليها رضي الله عنها

عائشة رضي الله عنها: حبيبة الحبيب المصطفى ﷺ، أَعْلَم وأفقه نساء الأمة قاطبة، ازَّيَّنت كُتُبُ الصِّحاح بفتاويها، وحفلت برواياتها.

كان كبار الصحابة وأعلامهم يستفتونها ويرجعون إليها، وكانت تناظِر الرَّاسخين منهم وتردُّ عليهم، ولم لا ؟! فهي زوج النَّبيِّ ﷺ، لزمته في السَّفر والحضر، واطَّلعت وعلمت منه مِن المسائل والفضائل ما لم يعلمها غيرها.

وممّا يُظهِر سِعَةَ عِلْمِها رجوعُ كبارِ الصَّحابة والتَّابعين إليها في بعض المسائل، فهذا أبوها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يَرْجِعُ إليها في مَرَضِهِ الَّذي مات فيه، ويسألها عن قَدْرِ كَفَنِ النَّبيِّ ﷺ، وعن يوم موته ﷺ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت :

" دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ : فِي كَمْ كَفَّنْتُمْ النَّبِيَّ ﷺ ؟ قَالَتْ : فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ[١] لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ، وَقَالَ لَهَا : فِي أَيِّ يَوْمٍ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ؟ قَالَتْ: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، قَالَ : فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالَتْ : يَوْمُ الِاثْنَيْنِ، قَالَ : أَرْجُو فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّيْلِ، فَنَظَرَ إِلَى ثَوْبٍ عَلَيْهِ كَانَ يُمَرَّضُ فِيهِ، بِهِ رَدْعٌ[٢] مِنْ زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ : اغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَا، وَزِيدُوا عَلَيْهِ ثَوْبَيْنِ فَكَفِّنُونِي فِيهَا، قُلْتُ : إِنَّ هَذَا خَلَقٌ ، قَالَ : إِنَّ الحَيَّ أَحَقُّ بِالجدِيدِ مِن الميِّتِ ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُهْلَةِ ، فَلَمْ يُتَوَفَّ حَتَّى

---

(١) ثياب بيضٌ نقيّة من القطن، ولعلّها منسوبة إلى سَحُول بلد باليمن تجلب منها هذه الثّياب.

(٢) أي لَطْخٌ لم يَعُمّه كلّه .

أَمْسَى مِنْ لَيْلَةِ الثُّلَاثَاءِ وَدُفِنَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ "[1].

ولعلَّه ﷺ أراد إلى جانب حقيقة السُّؤال أنْ يوطِّئ لعائشة ﵂؛ لِتصْبِرَ على فَقْدِهِ، ممّا يُظْهِرُ فراسته وثباته حين وفاته.

استدراكها ﵂ ومقاييس نقد الحديث عندها

لا عجبَ أنْ تُسْهِمَ عائشةُ ﵂ في حِفْظِ السُّنَّة، فهي معدودة في علماء الصَّحابة ﵃، ومن المكثرين بين الصَّحابة في علم الحديث رواية ودراية.

وروايتها الحديث منقبة عظيمة لها، فهي أحفظ الصَّحابيَّات وأكثرهنَّ في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، وليس لواحدة من الصَّحابيَّات قَدْرُها في رواية الحديث ولا ما يقاربه.

رَوَتْ عائشة ﵂ عن النَّبيِّ ﷺ الكثير الطَّيِّبَ، وروت عن أَبِيهَا، وعن عُمَرَ، وفَاطِمَةَ الزَّهراء، وسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص، وأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْر وغيرهم، وروى عنها مِن الصَّحابة عُمَرُ، وابنه عَبْدُ الله، وأبو هريرة، وأبو موسى الأَشْعَرِيّ، وابْنُ عبَّاس وغيرهم، ومن كبار التَّابعين حدَّث عنها سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ، وعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، ومَسْرُوق، وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ.

وهي رائدة نساء الأمَّة في توثيق السُّنَّة على الإطلاق، وأسوة في نقد الحديث باستدراكاتها، ولا غَرْوَ؛ فقد تربَّت في بيت أبي بكر الصِّدِّيق ﵁، وفي بيت النَّبيِّ ﷺ مهبط الوحي، ومَعِين العِلْم.

ولا ريب أنَّها تدرك وجه خيريَّـة السُّنَّة نظماً ومعنى واعتقاداً وقولاً وفعلاً،

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج٢/ ص١٠٦) كتاب الجنائز .

وتعلم ما لها من أثر على الفرد والمجتمع. فالسُّنَّة توحِّد المسلمين، وتجمع كلمتهم، وتلمُّ شَعَثَهُم، وتصلح شأنهم، وتؤلِّفُ بين قلوبهم، فضلاً عن أنَّها مبيِّنة لكتاب ربِّهم، والمصدر الثَّاني للتَّشريع الإسلاميّ؛ ولذلك أَوْلَتْها جلّ اهتمامها.

وكان لأمِّ المؤمنين رضي الله عنها مقاييس في نقد الحديث، كعرض الحديث على القرآن الكريم، روى البخاري عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: يَا أُمَّتَاهْ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: "لَقَدْ قَفَّ[1] شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ! أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ محمَّداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]، ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ... ﴿٥١﴾﴾ [الشّورى]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ... ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ...﴿٦٧﴾﴾ [المائدة] الْآيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ"[2].

ولمسلم عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: "يَا أَبَا عَائِشَةَ (مَسْرُوق)، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ، قُلْتُ مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ،

---

(١) قَفَّ شعري: قام من الفزع.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٥٠) كتاب التّفسير.

قَالَ : وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّ المؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُل الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التّكوير]، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [النَّجم] ؟ فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِن السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ.

فَقَالَتْ : أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ الله يَقُولُ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ الله يَقُولُ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشّورى]. قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الفِرْيَةَ ، والله يَقُولُ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ...﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الفِرْيَةَ، والله يَقُولُ : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ...﴿٦٥﴾ ﴾ [النّمل] "(١).

ومن مقاييس توثيق السُّنَّة عندها عرض السُّنَّة على السُّنَّة، سأل مُحَمَّد بن المنْتَشِرِ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما عَن الرَّجُلِ يَتَطَيَّبُ، ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِماً، فَقَالَ ابنُ عمر : "مَا أُحِبُّ أَنْ أُصْبِحَ مُحْرِمًا أَنْضَخُ(٢) طِيبًا، لَأَنْ أَطَّلِيَ بِقَطِرَانٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٢/ ج٣/ ص٨) كتاب الإيمان .

(٢) نضخ : فَارَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الرّحمن] .

أَفْعَلَ ذَلِكَ "[١] فَدَخَل عَلَى عَائِشَةَ ﷺ، فَأَخْبَرَها عن قَوْلِ ابنِ عُمَرَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ :" أَنَا طَيَّبْتُ رَسُولَ الله ﷺ عِنْدَ إِحْرَامِهِ، ثُمَّ طَافَ فِي نِسَائِهِ، ثُمَّ أَصْبَحَ مُحْرِمًا "[٢].

وفي رواية، قَالَتْ :" يَرْحَمُ الله أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ الله ﷺ فَيَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ، ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِماً يَنْضَخُ طِيبًا "[٣].

وفي استرحامها ودعائها لابن عمر دلالة على سَهْوه، وفيه إظهار لعذره، فلو استحضر فِعْلَ النَّبيِّ ﷺ ما قال ذلك. وحاصل كلامها رضي الله عنها أنَّها كانت تطيِّب النَّبيَّ ﷺ قبل الإحرام بالحجِّ، وكانت تطيِّبه لحلِّه قبل أن يفيض بأطْيَب طِيْب تيسَّر لها، روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ :" كُنْتُ أُطَيِّبُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ وَيَوْمَ النَّحْرِ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالبَيْتِ بِطِيبٍ فِيهِ مِسْكٌ "[٤].

ومن عرضها السُّنَّة على السُّنَّة استدراكها على أمَّهات المؤمنين، روى البخاري عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : " أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ رضي الله عنه إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ؟!"[٥]. وفي الحديث دليل على فقه عائشة رضي الله عنها، وسعة حفظها، وبثّها للعلم، واطّلاعها على ما لم يطّلع عليه غيرها

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٨/ ص١٠٢) كتاب الحجّ .

(٢) المرجع السّابق.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٧١) كتاب الغسل .

(٤)مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٨/ ص١٠٢) كتاب الحجّ .

(٥) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٥) كتاب الفرائض.

من أمَّهات المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنهُنَّ.

ومِنْ ذلك استدراكها على أخيها عبد الرّحمن، روى مسلم عَنْ سَالِمٍ مَوْلَى شَدَّادٍ قَالَ : " دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ تُوُفِّيَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَدَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما، فَتَوَضَّأَ عِنْدَهَا، فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، أَسْبِغ الوُضُوءَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِن النَّارِ "[1].

أرادت رضي الله عنها أن تذكِّر أخاها عبد الرّحمن رضي الله عنه بوجوب غسل الرِّجلين بكمالها، وأنَّ المسح لا يجزئ، ولعلَّ عبد الرّحمن رضي الله عنه كان في عجلة من أمره، فقد كان خارجاً في جنازة الصَّحابيِّ الجليل سعد بن أبي وقَّاص، فلمسلم عن سالم مَوْلَى المَهْرِيِّ، قَالَ : " خَرَجْتُ أَنَا وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فِي جَنَازَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَمَرَرْنَا عَلَى بَابِ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَذَكَرَ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ "[2].

ومن المقاييس عرض الحديث على حديث عندها، عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ فَدَخَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَتْ :" أَنْتَ الَّذِي تُحَدِّثُ أَنَّ امْرَأَةً عُذِّبَتْ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا ؟ فَقَالَ : سَمِعْتُهُ مِنْهُ ـ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ ـ ، فَقَالَتْ: هَلْ تَدْرِي مَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ ؟ إِنَّ الْمَرْأَةَ مَعَ مَا فَعَلَتْ، كَانَتْ كَافِرَةً، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى الله عز وجل مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ فِي هِرَّةٍ... "[3].

ولعلّ عذر أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه لم يسمع مناسبة الحديث ، فعلَّة دخولها النَّار

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٢/ ج٣/ ص١٢٨) كتاب الطّهارة .

(٢) المرجع السّابق.

(٣) أحمد "المسند" (ج٩/ ص٥٤٩/ رقم١٠٦٧٥) وإسناده حسن .

إلى جانب ما فعلته في الهرة كُفْرها، ولعلَّ ما يُؤَيِّدُ كَوْنَهَا كَافِرَةً مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ في مسنده[١]، والبيهقي في البعث والنّشور[٢]، وهو موافق لما رواه أحمد. وهذه المرأة هي الّتي رآها النَّبيُّ في النَّار، وهي من بني إسرائيل كما في صحيح مسلم أَنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: " وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ"[٣].

ومِنَ العلماء مَنْ يرى أنّه ليس في حديث النَّبيِّ ﷺ ما يقتضي كفرها، وأنَّها إنَّما عُذّبت بسبب إصرارها على حبس الهرّة وسجنها حتَّى ماتت، وأنّ الإصرار على الصّغائر وعدم المبالاة بها والمجاهرة بها يصيّرها كبائر، وأنّ عائشة رضي الله عنها خولفت. فالمسألة لا تخلو من خلاف، والحاصل إذا كان هذا حال مَنْ عذَّب هرّة، فما حال مَنْ عذَّب العباد ؟!

ومن المقاييس عرضها السُّنَّة على وقائع التَّاريخ، فقد روى الشَّيخان عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ:" ذَكَرُوا عِنْدَ عَائِشَةَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ وَصِيًّا، فَقَالَتْ : مَتَى أَوْصَى إِلَيْهِ، وَقَدْ كُنْتُ مُسْنِدَتَهُ إِلَى صَدْرِي أَوْ قَالَتْ حِجْرِي، فَدَعَا بِالطَّسْتِ، فَلَقَدِ انْخَنَثَ (مَالَ) فِي حِجْرِي، فَمَا شَعَرْتُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَمَتَى أَوْصَى إِلَيْهِ!"[٤].

---

(١) أبو داود "مسند أبي داود" (ج٣/ ص٢٨/ رقم١٥٠٣) .

(٢) البيهقي "البعث والنّشور" (ج١/ ص٧٩/ رقم٤٨) .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٣/ ج٦/ ص٢٠٩) كتاب الكسوف .

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٨٦) كتاب الوصايا ، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١١/ ص٨٨) كتاب الوصيّة.

وهذا يدلُّكَ على أنَّ هناك فئة حاقدة كانت تلفِّق الأحاديث على رسُولِ الله ﷺ منذ ذلك العهد؛ لِتُوقِع الفرقة والعداوة بين المسلمين، ولذلك قامت عائشة رضي الله عنها كغيرها من أكابر الصَّحابة بجهود جمَّة في توثيق السُّنَّة.

ومعلوم أنَّ عليّاً رضي الله عنه نفسه كان يردُّ هذه الفرية، عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ : قِيلَ لَعَلِيٍّ: أَلَا تَسْتَخْلِفُ؟ قَالَ :" مَا اسْتَخْلَفَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَسْتَخْلِفُ عَلَيْكُمْ، وَإِنْ يُرِدِ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ بِالنَّاسِ خَيْراً، فَسَيَجْمَعُهُمْ عَلَى خَيْرِهِمْ كَمَا جَمَعَهُمْ بَعْدَ نبيِّهِم ﷺ على خَيْرِهِمْ"(1).

قلت : وطالما أنَّ الله تعالى تكفَّل بحفظ القرآن، فالسُّنَّة محفوظة بالتَّبعيَّة، ومِن حفظ الله للسُّنَّة أن قيَّد الله تعالى لها رجالاً من أمثال أبي هريرة، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم كثير رضي الله عنهم ، ونساءً مِنْ أمْثَال أمَّهات المؤمنين : عائشة، وأمّ سلمة، وسودة، وحفصة، وزينب، وجويرية، وأمّ حبيبة، وميمونة، وصفيَّة...رضي الله عنهنّ ، وبنت النَّبيِّ ﷺ فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها ، وصحابيّات من أمثال : خنساء بنت خذام، ولبابة بنت الحارث، وأم هانئ بنت أبي طالب أخت عليّ، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمّ قيس بنت محصن أخت عكاشة الّذي طلب من النَّبيِّ ﷺ أن يدعو الله أن يجعله من الّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب، وغيرهنَّ كثير رضي الله عنهنَّ .

---

(1) الهيثمي "مجمع الزّوائد" (ج٩/ ص٤٧/ رقم١٤٣٣٤) وقال: رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي الْحَارِثِ، وَهُوَ ثِقَةٌ. وأخرجه الحاكم وصحّحه في "المستدرك" (ج٣/ ص٧٩) كتاب معرفة الصّحابة رضي الله عنهم، ووافقه الذّهبي.

القسم الرّابع
حادثة الجمل

الفتنة الأولى : مقتل عثمان ﷺ

كانت فتنة قتل الخليفة عثمان ﷺ أوّل الفتن وأعظمها بعد أن كُسِرَ بَابُ الفتنة عمرﷺ ، وكان عثمان في هذه الفتنة على الحقِّ والهدى، قَالَ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ : "ذَكَرَ رَسُولُ ﷺ وَسَلَّمَ فِتْنَةً فقرَّبَهَا، وَعَظَّمَهَا، قَالَ: ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ مُتَقَنِّعٌ فِي مِلْحَفَةٍ، فَقَالَ: هَذَا يَوْمَئِذٍ عَلَى الْحَقِّ. فَانْطَلَقْتُ مُسْرِعًا، أَوْ قَالَ: مُحْضِراً، فَأَخَذْتُ بِضَبْعَيْهِ (بعَضُدَيْه)، فَقُلْتُ: هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هَذَا. فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ "[(١)].

ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ : " مَنْ نَجَا مِنْ ثَلَاثٍ فَقَدْ نَجَا ـ قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ قَالُوا: مَاذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : مَوْتِي، وَمِنْ قَتْلِ خَلِيفَةٍ مُصْطَبِرٍ بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ، وَالدَّجَّالِ"[(٢)].

وقد قُتِلَ الخليفة عثمان ﷺ في هذه الفتنة مظلوماً كما أخبر النَّبيُّ ﷺ ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ:" ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ فِتْنَةً، فَمَرَّ رَجُلٌ ، فَقَالَ ﷺ : يُقْتَلُ فِيهَا هَذَا الْمُقَنَّعُ يَوْمَئِذٍ مَظْلُوماً .قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ "[(٣)].

وقد نشأ عن هذه الفتنة فِتَن أخرى، منها فتنة الجمل، ووقعت دون قصد.

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٤/ ص٧٦/ رقم١٨٠٣٦) وإسناده صحيح.

(٢) أحمد "المسند"(ج١٦/ ص٣٢٢/ رقم٢٢٣٨٧) وإسناده صحيح.

(٣) أحمد "المسند" (ج٥/ ص٣١٢/ رقم٥٩٥٣) وإسناده صحيح. والتّرمذي "سنن التّرمذي" (ج٥/ ص٦٣٠/ رقم٣٧٠٨) كتاب المناقب ، وقال أبو عيسى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ. وحسّنه الألباني في "الصّحيحة" (ج٧/ ص٣١٨).

قال قوم : أَذْنبت عائشة ذنباً لا تنفعُ معه توبةٌ ولا إِنابة، ولا يُقْبَلُ معه عَدْلٌ ولا شفاعة، فقد خَرَجَتْ على إِمَامِ زمانها، وخلعت يد الطَّاعة، وفارقت الجماعة، واستحلَّت السَّيف تحت راية عمياء، في مَلأ مِنَ النَّاس، فيهم طلحة، والزُّبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأنَّهم قبلوا البيعة لفظاً، ورفضوها معنىً.

قلنا : كَمْ سَاقَ الحِمَامُ إلى القُبُور أُناساً ظلموا أنفسهم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمَّد] فهؤلاء إنَّما سخطوا على مَنْ رضي الله عنهم ، وكرهوا رضوان الله تعالى !

فما خرج أحد منهم رضي الله عنهم على عليّ رضي الله عنه ، وما نَزَعَ يداً مِنْ طاعة، وما فارق الجماعة؛ فهم لا يجهلون وجوب الوفاء ببيعة خليفة المسلمين، ووجوب ملازمة الجماعة خاصَّة عند ظهور الفتن، وعدم جواز القتال تحت راية عُمِّيَّةٍ، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ : " مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ. وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ "[1].

فهل نحن أعلم بهذا الحديث الشَّريف مِنْ أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزُّبير ؟! أم خُصِصْنا بالعلم به، وعَزَبَ عنهم ولم يعرفوه ؟! أم نحن أعلم منهم بقوله ﷺ :" وَمَـنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَـنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي ، وَإِنَّمَا

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص٢٣٨) كتاب الإمارة.

الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ"[1].

فهل نعلم نحن أنَّه لا يجوز القتال إلّا تحت راية الإمام، ولا يجوز أن نتقدَّم على رَأْيه، وإنَّما نكون تَبَعاً لتدبيره في النَّوازل وغيرها، ويجهل ذلك المقطوع لهم بالخيريَّة ؟!

لكنَّها رضي الله عنها لَمَّا قُتِلَ عثمان رضي الله عنه في داره[2]، وهو يقرأ كلام الله في المصحف الَّذي جمع النَّاس عليه، وفاض دَمُه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة] شقَّ عليها ذلك كما شقَّ على المسلمين.

ولم يتوقّف الأمر عند ذلك، وإنَّما نشأ عن هذه القاصمة قواصم أخرى، فالَّذين استباحوا حرمة المدينة المنوَّرة مِن المنافقين والغوغاء وتجرَّؤوا على الخليفة عثمان رضي الله عنه وقتلوه، تفرَّق بعضهم في الأمصار، فسارع إليهم كثيرٌ ممَّن يتعصَّب لهم من قبائلهم، وممَّن يهبُّ مع كلِّ ريح، وممَّن يضمر الشَّرَّ للإسلام، فانتقضت واضطربت البلاد، وهاج الشَّرُّ بين النَّاس .

ولم يكن من السَّهل على الخليفة عليٍّ رضي الله عنه يومها أَنْ يتبيَّنَ هؤلاء البغاة، أو يقتصَّ منهم. وتنازع النَّاس الأمر، فصاروا بين : مُسْرِع، ومُبْطِئ، ومعتزل، ومصلح .

فمنهم من رأى الإسراع في قتل قتلة عثمان رضي الله عنه، ومنهم من رأى التَّريُّث حتَّى تنجلي عن وجه الحقِّ ، ومنهم مَـن اعتزل الفتنة، ومنهم مَـنْ سعى للإصلاح

---

(١) البخاري" صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٨) كتاب الجهاد والسّير .

(٢) انظر كتابنا "شهيد الدَّار : عثمان بن عفَّان رضي الله عنه" .

وإخماد جمر الفتنة .

فمَوَاقِف أَهْلِ الأمصار تباينت من مقتل الخليفة عثمان إلى أربعة مواقف:

أوّلها : كان مِنْ أهل الأمصار مَنْ غَضِبَ لعثمان ﷺ في حرمة الدَّم والشَّهر والبلد والدّار، فرأوا أنَّ التَّعجيلَ في تعقُّب قتلته والإسراعِ في محاسبتهم أَمْرٌ واجِبٌ قبل أن يستَطِيرَ شرُّ هؤلاء البغاة المنافقين، ويصيب عليّاً ﷺ ما أصاب عثمان ﷺ، ويَنْفَتِق في الإسلام فَتْقٌ لا رَتْقَ له، وهم أَهْلُ الشَّام وعلى رأْسِهم معاوية ﷺ، وشَطْر من أهل البصرة، ومثلهم من أَهْلِ مِصْرَ.

ثانيها : منهم مَنْ رأى ضَرُورَةَ تَأْجِيلِ ملاحقة قتلة عثمان ﷺ وإقامة الحدود عليهم حتَّى يتوطَّد الحكمُ للخليفة عليٍّ ﷺ، وتصير له شَوكَةٌ، ويخضع البلاد الَّتي انتقضت بعد استشهاد عثمان ﷺ، وهم كثير من أهل الأمصار خاصَّة أهل الكوفة، فقد كانوا مع عليٍّ رضي الله عنه في ذلك .

ثالثها : منهم من اعتزل الفتنة، وآثر أن يدخل بيته حتَّى تنجلي هذه الغمَّة والظّلمة ويَبْزُغ قَمَرُها، تمسُّكاً بالأحاديث الَّتي تأمر بالكَفِّ عن القتال بين المسلمين، وما فيها مِنْ وعيد على مَنْ حمل السِّلاح على المسلم، وهم كُثُر، منهم : سعد بن أبي وقَّاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، ومحمَّد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وأبو هريرة، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص، وأبو موسى الأشعريّ، وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاريّ، وصُهَيْب بن سِنَان الرُّوميّ، وعِمْرَان بن حُصَيْن بن عُبَيْد، وسَلَمَة بن الأَكْوَع، وأَبُو بَكْرَة نُفَيْع بن الْحَارِث، وجَرِير بن عَبْد الله الْبَجَلِيّ، وغيرهم كثير رضي الله عنهم .

رابعها : منهم مَنْ سعى للإصلاح وجمع الكلمة، بعد أن تَشَظَّى القَوم، وكشفت الفتنة قناعها، ويمثِّلهم أمُّ المؤمنين عائشة ﵂، وَمَحْرَمُهَا ابن أختها عبد الله ﵁، واثنان مِنَ المشهود لهم بالجنَّة، وهما : طلحة، والزّبير ﵄.

فلمَّا قُتِلَ عثمان ﵁، وبويع عليٌّ ﵁ بالخلافة، سار طلحة والزُّبير ﵄ لمكَّة، فوجدا أمَّ المؤمنين عائشة ﵂، وقد حجَّت، فاستقرَّ رأيهم على الذَّهاب إلى البصرة، للإصلاح ووأد الفتنة[1] الّتي نشأت عن قتل عثمان ﵁ قبل أن تصير ناراً تلظَّى وأواراً تشظَّى. واختاروا البصرة لأنَّ شطراً مِنْ أهلها كان يرى ضرورة التَّعجيل في قَتْلِ قَتَلَة عثمان خلافاً لما كان يراه عليٌّ ﵁.

فخرجوا لإصلاح ذات البين، وكانوا يرجون الاستحياءَ من أمِّ المؤمنين إذا رآها النَّاسُ، ولم يخرجوا لِدُنيا يصيبونها كما احتجَّ به الزَّاعمون، فهم أَتْقى لله تعالى مِنْ أنْ يخرجوا في سَفَرٍ لا يرضاه اللهُ تعالى، وما علَّقوا به همَّتهم من الرَّغبة في الآخرة المقبلة أجلُّ وأَعْظَمُ من جَمْعِ حطام ومَتَاعِ الدُّنيا المدبرة، كيف وهم يقرأون قول الله تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشُّورى].

فقد تأوَّلت عائشة ﵂ أنَّها أمُّ المؤمنين، وحيث قصدت نزلت في أهلها وولدها، وأنَّ لها في القُلوبِ مكانةً تُصْلِحُ بها بين النَّاسِ، فهي أمُّهم بكتاب الله تعالى ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ...﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] ، أخرج عبد الرَّزاق في المصنّف

(١) انظر كتابنا "وأد الفتنة" دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفّين على منهج المحدِّثين.

بسند منقطع قَوْلَ عائشة ﵂: " إنّما أريدُ أَنْ يَحْجِزَ بين النَّاسِ مكاني، قالت : ولم أحسبْ أَنْ يكونَ بين النَّاسِ قِتَال، ولو عَلِمْتُ ذلك لم أقِفْ ذلك الموقف أبداً "(١).

فقد كانت تعتقد أنَّ مكانتها تكون حاجزاً بين النَّاس من الاختلاف ، فهي أحقُّ بأنْ يُسْتَحْيا منها، فلها عليهم ما لأمَّهاتهم مِن حقّ، فعذرها ﵂ أنَّها تُرِيدُ الإصلاحَ ابتغاء مرضاة الله تعالى، وكانت متأوِّلةً لقوله تعالى : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النِّساء] .

وأمّ المؤمنين عائشة ﵂ كانت أهلاً للاجتهاد، فهي أَفْقَه النِّساء الصَّحابيَّات قاطبة، ولا يختلف في علمها اثنان ولا يجحده إلّا ذو شنآن، يرى الشَّمس ساطعة فَيَعْشَى منها ناظره .

ولم يَشَأ اللهُ تعالى أَنْ يَقَعَ صُلْحٌ، فكان ما كان، ورجعت إلى المدينة ﵂ نَادِمةً، فهي مأجورة فيما تأوَّلت؛ فكلُّ مجتهدٍ في الأحكام أهلٌ للاجتهاد مُصِيْبٌ الأجر.

وإذا كان خروجها صواباً كان صواباً مأجوراً، وإذا كان خطأً كان خطأً مغفوراً؛ لأنّ الخطأ في اجتهاد الكفء معفوٌّ عنه، بل له أجر.

ثمّ إنَّها ندمت وآبت وانتهت، وقد قال ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ...﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال] فإذا كان هذا للكفَّار أفلا يكون لأمِّ المؤمنين ﵂ أمّ الأبرار؟!

---

(١) الصّنعاني " المصنّف " (ج٥/ ص٤٥٧/ رقم٩٧٧٠).

مغفرة الله تعالى ذنوب عائشة ﵂ ما تقدم منها وما تأخر

عَظَّمَ اللهُ تعالى شَأْنَ المؤمنين التَّائبين المتَّبعين لِسَبيله، فأَقَامَ لهم ملائكته وحملةَ عرشِه يدعون لهم ويستغفرون، ويسألون اللهَ لهم أن يَقِيهم السَّيِّئات، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر].

فإذا كان هذا للمؤمنين، أفلا يكون لأمّ المؤمنين ﵂ والصَّحابة الأوّلين ﵃، الَّذين لا يعدل بهم أحد ممَّن جاء مِن بعدهم، ولا يقاس بهم ؟!

فلا تسمع لمن قال : إنَّ عائشة ﵂ أذنبت ذنباً لا تنفع معه توبة، فلا نَعْلَمُ ذنباً تقصر عن محوه التَّوبة، فالتَّوبة تأتي على كلِّ ذنبٍ يقع مِنَ المؤمن إذا تاب وأناب إلى ربه وأسلم له، فقد فتح الله تعالى باب الرَّجاء، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزّمر][1].

فالله تعالى لا يتعاظَمه ذنْب مِنْ أن يغْفِرَه، وقد وعد الله تعالى بالقبول، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...٢٥﴾ [الشّورى]،

---

(١) قيل إنَّها أرجى آية في كتاب الله تعالى، ولعلَّ أرجى منها قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ ...٦﴾ [الرّعد].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التّوبة].

وقد دعا لها النَّبيُّ ﷺ ذات يوم بالمغفرة، تقول ﵂:" لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ نفسٍ، قُلْتُ: يا رسُولَ الله، ادعُ الله لِي! فقال: اللَّهُمَّ اغفر لعَائِشَةَ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِها ومَا تأخَّر، وما أسرَّت وما أعلنت، فضحكت عائِشةُ حتى سَقَطَ رأسُها في حِجْرِها مِن الضَّحك، فقال رسُولُ الله ﷺ: أيسرُّك دعائي؟ فقالت: ومَالي لا يسرُّني دعاؤك، فَقَالَ: والله إنَّها لَدَعْوتِي لأمَّتي في كُلِّ صَلَاةٍ"[1].

عائشة ﵂ وإصلاح ذات البين

لِمَا لِصَلاح ذات البين أو فساده مِن أثر في حياة النَّاس، خرجت أمُّ المؤمنين ﵂ مصلحة، لسدِّ باب الفتنة الَّذي يدخل منه المتربِّصون بهم، فمقصدها أعظم مقصد، لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ...﴿١﴾ ﴾ [الأنفال].

فكانت ﵂ تسعى في تقوى الله تعالى وإصلاح ذات البين؛ لعلَّ مفاتيح الخير تكون على يديها، فقد قال ﷺ:" إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِـن النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ الله مَفَاتِيحَ الخَيْرِ عَلَى

---

(١) الهيثمي" مجمع الزَّوائد " (ج٩/ ص٢٤٣)، وقَال: رواه البزَّار، ورجاله رجال الصَّحيح غير أحمد بن منصور، وهو ثقة. وحسَّنه الألباني في "الصّحيحة" (م٥/ ص٣٢٤/ رقم٢٢٥٤) مكتبة المعارف، وقال: أخرجه البزّار وإسناده حسن. وهو في "صحيح ابن حبّان" (ج١٦/ ص٤٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، وحسَّنه الألباني في " التَّعليقات الحسان " (م١٠/ ص١٩٧/ رقم٧٠٦٧)، كتاب مناقب الصَّحابة.

يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ"[1].

فغايتها عظيمة، ونيَّتها سليمة، ومساعيها كريمة، لكن كان بين الحيَّين من هم مفاتيح للشَّرِّ مغاليق للخير، فكلّ نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء].

وإصلاح ذات البين من أصول جماع الدِّين، وهو أفضل عند الله تعالى من درجة الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ"[2].

وتذهب النَّفسُ حَسْرَة حين تعلم أنَّه مازال هناك مَنْ يتَّهم المصلح، ويبرِّئ المفسد: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ... ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

الأمر بالإصلاح في القرآن الكريم

اعلم أنَّ أمّ المؤمنين رضي الله عنها خرجت مصلحة بين النَّاس لأنَّها تعلم أنَّ الله تعالى أمر بالإصلاح ورغَّب فيه وندب إليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [النّساء]، وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ... ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ

---

(١) الألباني " الصَّحيحة" (م٣ / ص٣٢٠/ رقم١٣٣٢)، وقال: بمجموع طرقه حسن.

(٢) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٥٧١/ رقم٢٧٣٨١) وإسناده صحيح .

جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ...﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى : ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ ...﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى : ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ...﴿٣٥﴾﴾ [النّساء]، وقال تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ...﴿١٢٨﴾﴾ [النّساء].

شهادة عمَّار رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها

لَمَّا سَارتْ أُمُّ المؤمنين إلى البصرة، قام عمَّار بن ياسر رضي الله عنهما الطَّيِّبُ المطيَّبُ، الَّذي مُلئ إيماناً إلى مُشَاشِه، صادق اللَّهجة، قام خطيباً على مِنْبَرِ الكوفة، وشَهِدَ لأمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّها زوجة النَّبيِّ في الدَّارين، مع أنَّه كان على رأي عليٍّ رضي الله عنه .

أخرج البخاريّ عَن الْحَكَمِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ أنّ عَمَّاراً قَامَ عَلَى مِنبَرِ الْكُوفَةِ، فَذَكَرَ عَائِشَةَ، وَذَكَرَ مَسِيرَهَا، وَقَالَ :" إِنَّهَا زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّهَا مِمَّا ابْتُلِيتُمْ "[(١)].

ومراد عمَّار رضي الله عنه أنَّ عائشة رضي الله عنها سارت مسيرها هذا بقدر الله تعالى، وفيه ابتلاء، وأنَّها إنَّما خرجت متأوِّلة، ولم تبدِّل حُكْماً، ولم تخالف شرعاً، ولم تخرج بذلك عن الإسلام، ولا يمنعها ذلك أن تكون زوجة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الآخرة ، ومع هذا فإنَّ الحقَّ مع عليٍّ رضي الله عنه .

وشهادة عمَّار لأمِّ المؤمنين بالفضل، وأنَّها زوجة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الجنَّة تَشْهَدُ له بالإنصاف والورع وتحرِّيه الحقّ قولاً وعملاً، وما كان ليشهد لها لو لا علمه بذلك.

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٤/ ج٨/ ص٩٨) كتاب الفتن .

الدّليل على أن خروج عائشة رضي الله عنها ومن معها كان للإصلاح

كان النَّبيُّ ﷺ قد أخبر عائشة رضي الله عنها عن هذا المسير، فلمَّا تذكَّرت ذلك همَّت بالرّجوع إلَّا أنَّ مَنْ مَعَها ثَنَاها عن عَزْمها؛ لما يرجون في خروجها ومِنْ رؤية النَّاس لها من خير وإصلاح بين النَّاس، روى أحمد بسند صحيح عن قيس، قَال : " لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلاً نَبَحَتِ الكِلَابُ، قَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا ؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا أَنِّي رَاجِعَةٌ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا : بَلْ تَقْدمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللهُ عَجَّلَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ : " كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ(١) ؟ "(٢) .

(١) ماءٌ عَلَى طَرِيقِ الْبَصْرَةِ ، بين البصرة ومكّة .

(٢) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٢٧٣/ رقم٢٤١٣٥) وإسناده صحيح . ورواه ابن حبَّان وصحّحه الألباني في " التّعليقات الحسان " (ج٩/ ص٣٩٩/ رقم٦٦٩٧) ، وهو في "الصّحيحة" (م١/ ص٢٢٣/ رقم٤٧٥) ، ورواه أبو يعلى في " مسند أبي يعلى الموصلي " (ج٨/ ص٢٨٢/ رقم٤٨٦٨) وقال المحقّق : إسناده صحيح ، وأخرجه الحاكم في "المستدرك" (ج٣/ ص١٢٠) ولم يقع في المطبوع منه التّصريح بالتّصحيح منه ولا من الذّهبي ، وقد يكون التّصحيح غفل عنه الطّابع أو النّاسخ، فقد نقل الحافظ تصحيحه عن الحاكم في "الفتح" (م١٣/ ص٤٥) وكذلك قال الذّهبي في ترجمة عائشة في " سير أعلام النبلاء " (ج٢/ ص١٢٨) هَذَا حَدِيْثٌ صَحِيْحُ الإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجُوْهُ ، وذكره الهيثمي في " مجمّع الزّوائد " (ج٧/ ص٢٣٤/ رقم ١٢٠٢٦) من رواية البزّار عن ابن عبّاس ، وقال : رواه البزَّار ورجاله ثقات، وصحّحه البوصيري في " الإتحاف " انظر : " مختصر إتحاف السّادة المهرة " (م٥/ ص٤٥١/ رقم٨٣١٠)، وقال : رواه أبو بكر بن أبي شيبة ورواته ثقات .

وعائشة ﵂ لَمَّا تذكَّرت الحديث لم تَكْتُمْهُ، وإنَّما ذكرته لهم، لكنَّهم لم يفهموا أنَّ في الحديث نهياً عن الخروج أو أمراً بالقعود، فليس في حديث النَّبيِّ ﷺ ما يدلّ على الأمر بالقعود، أو بامتناع الخروج عليها، وإنَّما هو إخبار بالغيب وتنْبيه لِقَدَرِ الله تعالى، وأنَّ أمر الله واقع لا محالة؛ فلا تثريب عليهم. وما مِنْ شكٍّ أنَّ عائشة ﵂ لها فَضْلُ الدَّعوة للإصلاح، والسَّبق إلى الخير.

وفي الحديث دليلٌ قاطع على أنَّ مَنْ خرج معها لم يخرج للقتال، وإنَّما خرج للإصلاح وعلى رأسهم الزُّبير بن العوّام ﵁ حواريّ رسول الله ﷺ ، روى أحمد بسند صحيح عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، أَنَّ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا أَتَتْ عَلَى الحَوْأَبِ سَمِعَتْ نُبَاحَ الكِلَابِ، فَقَالَتْ: " مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةٌ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، قَالَ لَنَا: أَيَّتُكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ؟ فَقَالَ لَهَا الزُّبَيْرُ: تَرْجِعِينَ عَسَى الله ﷻ أَنْ يُصْلِحَ بِكِ بَيْنَ النَّاسِ "(١).

ولم يَسْلم الزّبير ﵁ إلى يومنا مِنَ الطَّعن والتَّجريح، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأحد السِّتَّة مِن أصحاب الشّورى، وأوّل مَنْ سَلَّ سيفه في سبيل الله تعالى، شهد بدراً والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، فكيف نطعن فيمن تشفع له سوابقه، وقد تقدَّم قولُ النَّبيِّ ﷺ : " إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ الله ﷻ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "(٢).

كما لم يسلم ابنه عبد الله بن الزّبير بن خويلد الّذي كان معه يومها ، وهو

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٣٩٥/ رقم٢٤٥٣٥) وإسناده صحيح .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص٦٠) كتاب التّفسير.

أشهر مِنْ أن يُعَرَّف: أَبُوهُ الزُّبَيْرُ، وَأُمُّهُ أَسْمَاءُ، وَجَدُّهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّتُهُ خَدِيْجَةُ، وَخَالَتُهُ عَائِشَةُ، وَجَدَّتُهُ صَفِيَّةُ.

الرَّدُّ على من احتجَّ على خروج عائشة ﵂ بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾

زَعَمَ بعض مَنْ ينقص أمَّ المؤمنين عائشة ﵂ في خروجها إلى البصرة للإصلاح في حادثة الجمل، أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب] يقتضي تحريم السَّفر على نساء النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ قوله ﷺ لنسائه عام حَجَّة الوَدَاع: " إِنَّمَا هِيَ هَذِهِ الْحَجَّةُ، ثُمَّ الزَمْنَ ظُهُورَ الْحُصْرِ"[1] يقتضي تحريم الخروج عليهنَّ للحجِّ بعده ﷺ، فكيف بالخروج إلى القتال! وزعم بعضهم أنَّ التَّحريم ظاهر، بدليل أنَّ أمَّهات المؤمنين امتنعن من الخروج إلَّا عائشة.

قلنا: لا يُفْهم من الآية أو الحديث النَّهي عن الخروج مطلقاً، فالمرأة في الإسلام خرجت إلى الحجّ والمسجد والجهاد والعمل... والمراد من الحديث أنَّ الحجَّ لا يجب عليهنَّ مرَّة أخرى بعد حجَّة الوداع، فالحجُّ الواجب مرَّة في العمر.

أمَّا زعمهم أنَّ أمَّهات المؤمنين امتنعن من الحجِّ إلَّا عائشة ﵂، فلم يمتنع إلَّا سودة وزينب ﵄، فقد حَمَلْنَ الحديث على كراهة التَّنفُّل بالحجِّ من النِّساء، روى أحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِنِسَائِهِ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ:

" هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورَ الْحُصْرِ، قَالَ: فَكُنَّ كُلُّهُنَّ يَحْجُجْنَ إِلَّا زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَسَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، وَكَانَتَا تَقُولَانِ: والله لَا تُحَرِّكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ أَنْ سَمِعْنَا ذَلِكَ

---

(١) أحمد "المسند" (ج٩/ ص٣٠٥/ رقم٩٧٢٧) وإسناده صحيح.

مِن النَّبِيِّ ﷺ"[1] .

وذكر الحافظ في الفتح أنَّ أمَّ سلمة امتنعت، وكانت تقول : " لَا يُحَرِّكنِي ظَهْر بَعِير حَتَّى أَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ "[2].

والعذر عند أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها تأوَّلت الحديث كما تأوَّله غيرها مِنْ أمَّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ على أنَّ المراد منه أنَّه ليس عليهنَّ حجٌّ واجبٌ بعد تلك الحجَّة، وليس المراد أنَّ الخروج ممتنع عليهنَّ بالكليَّة.

والوجه في عدم إنكار الخلفاء على أمَّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ في الخروج إلى الحجِّ بعد أمر النَّبيِّ ﷺ لهنَّ بلزوم ظهور الحصر، أنَّهم أعلم بأحكام الله تعالى، وأتقى لله مِنْ أَنْ يخالفوا أمر رسول الله ﷺ ، فلا يفهم من الحديث أنَّ الأمر بترك الخروج للوجوب، ثمَّ إنَّ عائشة رضي الله عنها سألت النَّبيَّ ﷺ: وقالت :" يَا رَسُولَ الله، أَلَا نَغْزُو وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ : لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ حَجٌّ مَبْرُورٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : فَلَا أَدَعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ"[3] .

عليّ رضي الله عنه يستنفر أهل الكوفة ليعيد عائشة رضي الله عنها إلى مأمنها

لم تصحّ الرِّوايات في أنّ عليّاً وعمّاراً رضي الله عنهما حَضَّا أهل الكوفة إلى الخروج لقتال أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأنّه خرج إلى البصرة لملاقاتها، وما صَحَّ ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن زياد الأسَدِيّ، قال :" لَمَّا سَارَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ إِلَى

(١) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٣١٦/ رقم٢٦٦٣٠) بإسناد صحيح .

(٢) ابن حجر "فتح الباري" (ج٧/ ص٨٦) كتاب المناقب .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج٢/ ص٢١٩) كتاب الحجّ .

البَصْرَةِ، بَعَثَ عَلِيٌّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فَقَدِمَا عَلَيْنَا الكُوفَةَ، فَصَعِدَا المِنْبَرَ، فَكَانَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ فَوْقَ المِنْبَرِ فِي أَعْلاَهُ، وَقَامَ عَمَّارٌ أَسْفَلَ مِنَ الحَسَنِ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ، فَسَمِعْتُ عَمَّاراً، يَقُولُ:

"إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى البَصْرَةِ، وَوَاللهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابْتَلاَكُمْ، لِيَعْلَمَ إِيَّاهُ تُطِيعُونَ أَمْ هِيَ"(١).

وكانت خطبته هذه قبل حادثة الجمل ليكفَّهم عن الخروج معها رضي الله عنها، والضَّمير في قوله: (إِيَّاهُ) لله تعالى، فهو القائل في محكم التَّنزيل: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...(٣٣) ﴾ [الأحزاب]، ويحتمل أنَّه للخليفة عليٍّ فهو الأولى بالطَّاعة، والأوَّل أظهر، وليس في الحديث دعوة للخروج مع عليّ رضي الله عنه لمقاتلة أحد.

أمّا مَنْ يتعلّل بما رواه البخاري عن عمرو أنّه سمع أبا وائل يقول: " دَخَلَ أَبُو مُوسَى وَأَبُو مَسْعُودٍ عَلَى عَمَّارٍ، حَيْثُ بَعَثَهُ عَلِيٌّ إِلَى أَهْلِ الكُوفَةِ يَسْتَنْفِرُهُمْ"(٢).

ويظنّ أنّ عليّاً رضي الله عنه يستنفر أهل الكوفة لقتال عائشة رضي الله عنها فهذا لا يَصِحُّ البتَّة؛ فهو يعرف أنّ خروج عائشة رضي الله عنها مِنْ أصله كان قدراً مقدوراً، فقد حذَّرها النَّبيُّ ﷺ في حياته من الخروج، وسمع عليّ رضي الله عنه هذا التّحذير، وسمع طلب النَّبيِّ ﷺ منه أن يرفق بها، أخرج الحاكم بإسناد صحيح من رواية أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها هِنْد زوج النَّبيِّ ﷺ، قَالَتْ:

ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ خُرُوجَ بَعْضِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِـينَ، فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ، فَقَالَ:

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ ج٨/ ص٩٧) كتاب الفتن.

(٢) المرجع السّابق.

" انْظُرِي يَا حُمَيْرَاءُ، أَنْ لَا تَكُونِي أَنْتِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ: إِنْ وُلِّيتَ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا فَارْفُقْ بِهَا "(١).

فحاشا لعليٍّ ﷺ أن يحرِّضَ على قتال أُمِّه، وقد أمره النَّبيُّ ﷺ بالرّفق بها ؟! وحاشاه أن يعصي أمر رسول الله ﷺ وينْبذ وصيَّته وراء ظهره، وإنّما استنفر عليّ رضي الله عنه أهل الكوفة لأنّه خَشِيَ على عائشة رضي الله عنها، فخرج ومَنْ معه إلى البصرة ليجتمع بعائشة رضي الله عنها ويعيدها إلى مأمنها.

أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي رافع أنّ رسول الله ﷺ، قال لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: " إِنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَائِشَةَ أَمْرٌ، قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَنَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَشْقَاهُمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَارْدُدْهَا إِلَى مَأْمَنِهَا "(٢).

فالله تعالى أطلع نبيّه ﷺ على ما يقع بين عليّ وعائشة، فالنَّبيُّ ﷺ كان يعلم أنّ أمراً سيقع بينهما، وليس معركة كما يصّورون ويهوِّلون ! ولم ينهَ النَّبيُّ ﷺ عليّاً ولا عائشة؛ لأنّه يعلم أنَّ هذا الأمْرَ واقع بأمر الله ليظهر عذرهما، وإنّما نبَّهها وأوصى عليّاً بها، فالله تعالى إذا أراد شيئا هيّأ الأسباب له.

---

(١) الحاكم " المستدرك " (ج٣/ ص١١٩) كتاب معرفة الصّحابة، وقال: صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه، وأورده ابن عساكر في " كتاب الأربعين في مناقب أمّهات المؤمنين " (ص٧١)، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ مِنْ رِوَايَةِ أُمِّ سَلَمَةَ.

(٢) أحمد " المسند " (ج١٨/ ص٤٦٨/ رقم٢٧٠٧٦) وإسناده حسن. وأخرجه البزّار في مسنده "البحر الزّخّار" (ج٩/ ص٣٢٩/ رقم٣٨٨١) وحسَّنه الحافظ في "الفتح" (ج١٣/ ص٤٦).

المنافقون يوقعون الفتنة بين الحيّين

خرج عليّ ﷺ إلى البصرة في النِّصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين لملاقاة أمِّ المؤمنين ومَنْ معها، فلمّا اجتمعوا اجتمعت كلمتهم ؛ فخشي المنافقون وأعوانُهم الَّذين نُسِبَ إليهم قتل الخليفة عثمان ﷺ مِن اجتماعهم على قتالهم، فاندسُّوا بين هؤلاء وهؤلاء فوضعوا فيهم السِّلاح، وأنْشَبوا السِّهام ، وبذلوا فيهم السُّيوف، فنشب القتال على غير نيَّة، وأخذت كلُّ طائفة تدفع عن نفسها، وهي تظنّ أنَّ الأخرى بدأتها القتال، فكلتا الطَّائفتين محقَّة في غايتها، سليمة في نيَّتها، مدافعة عن نفسها.

عائشة ﷺ تنهى عن القتال يوم الجمل

ما جرى في حادثة الجمل أَمْرُ نهارٍ قُضِيَ ليلاً، ولم يكن لأمِّ المؤمنين عائشة ﷺ ولا لأمير المؤمنين عليٍّ ﷺ يدٌ في ذلك، فقد كان كلّ منهما يَنْهَى عن القتال، روى البخاري عن أبي حميلة، قال : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ لِعَائِشَةَ ﷺ : " يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَقَالَتْ: كُنْ كَخَيْرِ ابني آدم "(١).

أي كُنْ المقتُول ولا تكُن القاتِل، وهذا يدلُّكَ على أنَّ عائشةَ ﷺ كانت تَنْهَى عن القتال ولا تَأْمر به.

كذلك الخليفة عليّ ﷺ كان يتجنَّب القتال حتَّى لا يُصِيبَ دماً حراماً، ففي "المطالب العالية " بسند صحيح عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، قَالَ: " جِئْتُ إِلَى الْحَسَنِ ﷺ ، فَقُلْتُ: اعْذُرْنِي عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ لَمْ أَحْضُرِ الْوَقْعَةَ، فَقَالَ الْحَسَنُ ﷺ : مَا تَصْنَعُ

---

(١) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص٤٦/ رقم٣٣٧).

بِهَذَا، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَلُوذُ بِي، وَهُوَ يَقُولُ: يَا حَسَنُ، لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا بِعِشْرِينَ سَنَةً "(١).

قتلى الجمل وزمن القتال

وقد أورد خليفة بياناً بأسماء من حُفِظ مِنْ قتلى الجمل فكانوا قرابة المائة(٢) وهذا يؤكّد قِلَّةَ عدد القتلى، وهذا ليس غريباً فلم يكن أحد من الفريقين يهاجم الآخر، وإنّما كان يدفع عن نفسه، والمشْهُورُ أَنَّ الصَّحابة كانوا يتجنَّبون القتال وينهونَ عنه.

وممّا يدلك على قلَّة عدد قتلى الجمل قِصَرُ زمن القتال يومها، فقد نشب القتالُ بعد الظُّهر وانتهى مع غروب الشَّمس، أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قال : " فَكَفَّ عَنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأَصْحَابِهِمَا، وَدَعَاهُمْ حَتَّى بَدَؤوهُ فَقَاتَلَهُمْ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، فَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَحَوْلَ الْجَمَلِ عَيْنٌ تَطْرِفُ مِمَّنْ كَانَ يَذُبُّ عَنْهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ : لَا تُتِمُّوا جَرِيحًا وَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَأَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ ؛ فَلَمْ يَكُنْ قِتَالُهُمْ إِلَّا تِلْكَ الْعَشِيَّةَ وَحْدَهَا"(٣).

ما قاله عمار رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها حين فرغ من الجمل

أخرج الطَّبريُّ بسند صحيح عن أَبِي يَزِيدَ الْمَدِينِيِّ يقول : قَال عمَّار بن ياسر

---

(١) ابن حجر " المطالب العالية " (م١٨/ ص١٤٤/ رقم٤٤٠٦) وقال المحقّق : صحيح بهذا الإسناد، ورواته ثقات.

(٢) خليفة " تاريخ خليفة " (ص١٨٧ـ ١٩٠) .

(٣) ابن أبي شيبة " مصنّف ابن أبي شيبة " (ج١٥/ ص٢٨٦/ رقم١٩٦٧٩) وصحّحه الحافظ في "الفتح" (ج١٣/ ص٤٨) وقال: أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح.

رضي الله عنها لعائشة رضي الله عنها حين فَرَغَ القَومُ :"يا أمَّ المؤمنين، ما أبْعَدَ هذا المسير مِنَ العَهْدِ الَّذي عُهِدَ إليك! قالت : أَبُو اليَقْظَان ؟ قَال : نعم، قالت : والله إنَّكَ مَا عَلِمْتُ قوَّالٌ بالحقِّ، قال : الحمْدُ لله الَّذي قَضَى لي على لِسَانِكِ"[1].

مسير عائشة رضي الله عنها كان قدراً

أخرج ابن أبي شيبة في مصنّفه بإسناد حسن عنْ عُبَيْدَةَ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ مَسِيرِهَا، فَقَالَتْ: " كَانَ قَدَرًا "[2].

فإذا علمت ذلك تبيّن لك عُذْرَ عائشة رضي الله عنها في خروجها، فقد كان قدراً مِنَ الله تعالى، وقدر الله تعالى كائن لا محالة، والاعتراض عليه حرام .

وقد لهج قوم بالاعتراض على خروج عائشة رضي الله عنها قروناً مِن الزَّمن، وفي ذلك قدْح في الحِكْمَة؛ لأنَّه اعتراض على قدر الله، وأوَّل مَن اعترض على حكمة الله تعالى إبليس حين قال : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ عن مضاء خروجها مضاء القدر، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِنِسَائِهِ :" لَيْتَ شِعْرِي، أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدْبَبِ[3]، تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلَابُ حَوْأَبٍ ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ ، ثُمَّ تَنْجُو

---

(١) الطَّبريّ "تاريخ الأمم والملوك" (ج٣/ ص٥٤٨) . وصحَّحه الحافظ في " الفتح " (ح١٣/ ص٤٩) ، وقال : أَخْرَجَه الطَّبَرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عن أَبِي يَزِيدَ المدِينِيِّ.

(٢) ابن أبي شيبة "مصنّف ابن أبي شيبة" (ج١٥/ ص٢٨١/ رقم ١٩٦٦٥) ، وإسناده حسن. وذكره نعيم بن حمّاد في كتاب " الفتن" (ج١/ ص٨٢) والواسطي في "تاريخ واسط"(ص٧١).

(٣) كَثِيرُ الوَبرِ، وَقِيلَ: كثيرُ وَبَرِ الوجهِ.

بَعْدَمَا كَادَتْ "[1].

وربّ محتجّ علينا يقول : تتحدّثون عن قلَّة قتلى الجمل، وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال:" يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ !" قلنا : ولكن ليس بهذه الكثرة المبالغ بها في الرِّوايات التّاريخيّة، فهذا اليعقوبي مثلاً يروي دون سند ويقول : " كانت الحرب أربع ساعات من النَّهار، فروى بعضهم أنّه قُتِلَ في ذلك اليوم نيف وثلاثون ألفاً"[2] ولا غرو أنَّ المبالغة من علامات الوضع الّتي تُعْرف بها الرّوايات الباطلة، ومن تعقَّب الرِّوايات الَّتي تتحدَّث عن قتلى الجمل بالدّراسة والتَّحقيق علم أنّه لا يصحُّ شيء مِنها.

الخطأ في الاجتهاد لا يبيح الطعن في صاحبه

ومَا زال هناك مَنْ يَطْعَنُ في اجتهاد أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وخروجها للإصلاح، ويجمع أقوال أعلام مِنْ علماء المسلمين يَرَوْنَ أنّها أخطأت في اجتهادها؛ ليبيح الطَّعن بها.

قلنا : هَبْ أنَّ عائشة رضي الله عنها أخطأتْ في اجتهادِها، فهل الخطأ في الاجتهادِ يُبِيْحُ الطَّعْنَ بها ؟! الجواب : لا قطعاً ؛ فقد عفا الله تعالى عن المخطئ في اجتهاد، قال جل جلاله : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال].

---

(١) رواه البزّار ورجاله ثقات، كذا قَال الهيثمي في "مجمّع الزّوائد" (ج٧/ ص٢٣٤/ رقم ١٢٠٢٦) والحافظ في " الفتح " (م١٣/ ص٤٥)، وصحّحه الألباني في " الصّحيحة " (ج١/ ص٨٥٣/ رقم٤٧٤).

(٢) اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي" (م٢/ ص٨١).

وفي هذه الآية أقوال منها : أي لولا حُكْمٌ مِنَ الله مَضَى وانْقَضَى وسبق إثباته في اللَّوح المحفوظ، بأنْ لا يُعَذِبَ مخطئاً في اجتهاد، لأصابكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم .

وقد أخبر الله تعالى ـ في خواتيم سورة البقرة ـ أنَّه قد تجاوز عن النِّسيان، وعن الخطأ، ومنه الخطأ في الاجتهاد، فقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ...(٢٨٦) ﴾ [البقرة] وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الله تعالى، قال :" قد فعلت".

فقد روى مسلم مِن حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ...(٢٨٤) ﴾ [البقرة]. قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شيءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شيء، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا. قَالَ : فَأَلْقَى الله الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ [البقرة] قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ. ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ﴾ [البقرة] قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ . ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ...(٢٨٦) ﴾ [البقرة] قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ "(١).

وهذا الدُّعاء الَّذي علَّم اللهُ بــه النَّبيَّ ﷺ وأصحابـه دُعَاءَه ، فيـه ثناءٌ على

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م١/ ج٢/ ص١٤٦) كتاب الإيمان.

الصَّحابة، فهو يظهر حسن السَّمع والطَّاعة. وقد جعله الله تعالى في كتابه لبيان ما كان عليه أصحاب النَّبيِّ ﷺ مِنَ المسارعة إلى الانقياد والخضوع لله تعالى والتَّسليم للرَّسولِ ﷺ، وليكون دُعاءَ مَنْ يأتي بعدهم مِنَ التَّابعين.

وانظر كيف أثنى الله تعالى على سيِّدنا سليمان عليه السلام وحمده بصوابه، وعذر سيِّدنا داود عليه السلام وعفا عنه باجتهاده، فقال: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء].

وإنَّما قال: ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ حتَّى لا يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ الله تعالى قد آخَذَ داود عليه السلام باجتهاده، ولذلك مدحهما وأثنى عليهما معاً، وساوى بينهما بالحُكْم والعِلْم، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية].

فالخطأ فيما فيه اجتِهاد سَائغ ليس مسوِّغاً للطَّعن في صاحبه، ولا لإطلاق الألسن في جانبه.

لكن مِنَ النَّاس مهما شددت لهم عُرَى الكلام، وجئت ببيِّنة وبرهان، فإنَّ جُهْدَكَ زائِل، ولا يحلَّى بطائِل، كمضيء الشَّمع في قاعَةِ العميان، أو كقارع الطَّبل في قاعة الطُّرشان.

محاسن من أمسك عن الوقوع في الصّحابة رضي الله عنهم وسكت عمّا شجر بينهم

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة]، وقال ﷺ: " إذا ذكر أصحابي

فأمسكوا"[1]. أي عن الكلام عنهم إذا كان فيه تنقيص لهم، أو وَضْعٌ منهم، أو إِزْراء بهم، أمّا ذكرهم للذَّبِّ عنهم، وإظهار قدرهم، وبيان عذرهم، وإبراء ساحتهم، وإشهار مناقبهم، وإذاعة فضائلهم، والدَّعوة إلى الاقتداء بهم، فلا يُفهم ذلك من الحديث.

وهم أهلٌ للإمساك عنهم، فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه جملةً واحدة، فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] .

ولذلك لَّما سُئِلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ عَنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ وَالْجَمَلِ وَصِفِّينَ وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ، قَالَ :" تِلْكَ دِمَاءٌ كَفَّ الله يَدَيَّ عَنْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَغْمِسَ لِسَانِي فِيهَا" [2].

فالإمْسَاك عنهم مِنْ أَمَارات المؤمنين المتَّبعين لهم بإحسان، الَّذين أثنى الله تعالى عليهم وامتدحهم بقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

---

(١) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ مُسْهِرُ بْنُ عَبْدِ الملِكِ، وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ وَفِيهِ خِلَافٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ، كذا قال الهيثمي في "مجمع الزّوائد" (ج٧/ ص٢٠٢/ رقم١١٨٥١)، وهو كما قال رواه الطّبراني في "المعجم الكبير" (ج٢/ ص٩٣/ رقم ١٤٢٧). وذكره الألباني في "الصّحيحة" (م١/ ص٤٢/ رقم٣٤) وفي "صحيح الجامع " (ج١/ ص١٥٥/ رقم٥٤٥).

(٢) ابن سعد "الطّبقات الكبرى" (م٥/ ٣٩٤) .

ويَمْلأ جَنْبَيك أسى أنْ تجد مَنْ يبحث عن مساويهم، ويذكرهم بغير الجميل؛ ليحرِّش عليهم! ولا ينقضي عجبك ممَّن يأتيك بأخبار مصنوعة تخلب القلوب، وآثار موضوعة تُعْظِم الذُّنوب، بألطف القول وأعذبه، وببلاغة بالغة، وزخرفة خادعة، وليس مراده من ذلك الصَّحابة ذاتهم، وإنّما صَرْف النَّاس عن دينهم، فالصَّحابة ﷺ هم نقلة الدِّين، والطَّعن فيهم يتضمَّن ردّ الكتاب والسُّنَّة.

ولذلك قال أبو زُرْعَةَ :" إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَنْتَقِصُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَاعْلَمْ أَنَّهُ زِنْدِيقٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عِنْدَنَا حَقٌّ، وَالْقُرْآنَ حَقٌّ، وَإِنَّمَا أَدَّى إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يُجَرِّحُوا شُهُودَنَا لِيُبْطِلُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَالْجَرْحُ بِهِمْ أَوْلَى وَهُمْ زَنَادِقَةٌ"(١).

فمَن تَغيَّظ على أصحاب رسُول الله ﷺ فقد خَابَ وخَسِر، روى الخلّال عن أبي عُرْوَةَ الزُّبَيْرِيّ أنَّهم ذَكَروا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَجُلاً يَنْتَقِصُ أصحاب رسول الله ﷺ، قال : فقال مَالِكٌ :" مَنْ أَصْبَحَ وَفِي قَلْبِهِ غَيْظٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْآيَةُ : ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]"(٢).

هذا ولا يخفى على كلِّ ذي سمع أنَّ أذى الصَّحابة ﷺ والطَّعن فيهم يترتَّب عليه إثم عند الله عظيم، وخزي في الدُّنيا مقيم، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

---

(١) الخطيب البغدادي "الكفاية" (ص٤٩).

(٢) الخلّال "السّنّة" (ج٢/ ص٤٧٨)، وابن الجوزي مختصراً في "زاد المسير" (م٧/ ص١٧٥).

القسم الخامس

صدّ عاديات الأدعياء عن زوج سيّد الأنبياء ﷺ

إثم من يحدِّث بكلِّ ما سمع

أمَرَنا الله تعالى بالتَّثبُّت مِنَ الأخبار والآثار، وألَّا نركَنَ إليها حتَّى يَظْهرَ صِدْقُها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] كما أمر النَّبيُّ ﷺ كُلَّ أَحدٍ بالتَّثبُّت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فقال ﷺ: " كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّث بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[1].

فلا يجوز لمؤمن أن يروي أيَّ خَبَرٍ إلَّا عن ثِقَة مَحْض، ولا أنْ يحدِّثَ بأمر إلَّا بعد أنْ يتوقَّفَ فيه ويعرف حال راويه، فالإسلام جعل الكلمة مسؤوليّة، قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصّافات] أي عن أفعالهم وأقوالهم.

وإذا كان مِنَ الكذب أنْ يحدِّثَ المرْءُ بكلِّ ما سمع دون أن يتحقَّق، فمقتضى ذلك أنَّ من الكذب كذلك أن يذيع كلَّ ما يقرأ، لا يبالي مِنْ أين أخذه وفيما نشره.

والكذب: هو الإخبار عن الشَّيء بخلاف ما هو في حقيقة الأمر، ولا يشترط فيه القَصْد والعَمْد، لكن العمد شرط للإثم، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: "ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[2].

---

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج١/ ص٧٣) المقدّمة .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٣٦) كتاب العلم .

فلا تأْخُذْ كلاماً على عَواهِنه مِنْ غير سَنَدٍ ولا دليل، ولا تَقُل قَال ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ لم يَقُل، ولا تكن عوناً للكذَّابين على نشر كذبهم على رسول الله ﷺ، فتكون أحد الكَاذِبين.

وكم رجُلٍ يجادلك بخبرٍ سمعه، أو بقولٍ قرأه، أو بحديث ذُكِر له، أو برواية لا سَنَدَ لها، أو لا ثَبْتَ فيها، وهو يجهلُ أنَّ الله تعالى جعل لنا قاعدةً نركنُ إليها، وآيةً نأوي إليها، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات]، فنحن لا نقبل كلاماً إلَّا بدليل جَازِم وبرهان حَازِم ، ومن لم يتبيَّن الدَّليل ضلَّ السَّبيل، قال الزَّنْجَانِيّ :

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ الله وَاتْبَـعِ الْأَثَـر وَدَعْ عَنْكَ رَأْيـاً لَا يُلَائِمُهُ خَبَرَ

وقد رأيتُ خَلْقاً يحدِّثون بأحاديث منكرة، وبرواياتٍ مكذوبةٍ، أسانيدها ظلمات بعضها فوق بعض، ولا يقبلون جَرْحاً ولا تعديلاً، فيا ضَيْعَةَ جُهُودِ عُلماءِ الحديث، الَّذين نَخَلُوا الصَّحيح مِنَ الضَّعيف، وميَّزوا الطَّيب من الخبيث !

وكم من رَجُلٍ يجادلك في آية، وقد نَصَّبَ نَفْسَه إماماً في التَّفسير، وهو لا يعرف القواعدَ الَّتي يحتاجُ المفسِّرُ إليها، فهو يجهل أنَّ المفسِّرَ يحتاج إلى معرفة: اللُّغة، والنَّحو، والصَّرف، والاشتقاق، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، وعلم القراءات، وعلم أصول الدِّين، وعلم أصول الفقه، وعلم أسباب النُّزول، وعلم النَّاسخ والمنسوخ، ومعرفة الأحاديث المبيِّنة لتفسير المجمل والمبهم...وهذه العلوم كان يعرفها الصَّحابة والتَّابعون بالطَّبع، وطال على كثير من أهل زمانِنا معرفتها بالطَّبع أو الاكتساب.

وكم رجلٍ يجادلك في حديث، وهو لا يدري أنَّ عِلْمَ الحديث رواية ودراية لو أنفق عمره ما أدرك لَه نهاية، ومع هذا تجده لا يتورَّع عن غَمْزِ ولمز العلماء، ولو أنَّه نظر في كُتُبِهم لَعَدَّ نفسه من الصُّمِّ البُكْم الَّذين لا يعقلون، ولكن شَقَّ عليه الغوصُ في بحارهم الزَّاخرة، وبعدت عليه الشُّقَّة، فتخلَّف وناصبهم العداوة.

ومِن العَجَبِ العُجَاب، وممَّا يمزِّق الأفئدة ويدمي قلوب ذوي الألباب، أن تجد مَنْ يَكْذِب على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها والصّحابة رضي الله عنهم ، ويتفيهق ويملأ جوفه بالكلام؛ إظهاراً لفضيلته، وتزكية لنفسه، على حساب مَنْ زكَّاهم الله تعالى ورسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [النّساء].

نقض قولهم : إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها : تقاتلي علياً وأنت له ظالمة !

قالوا : إنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّ عائشة ستقاتل عليّاً وهي له ظالمة، فقد قال لها ﷺ : " تقاتلي عليّاً، وأنت له ظالمة ".

قلت : هذا حديث لا أصل له، فقد فتَّشت كتب القوم فلم أجد له ذِكراً، والظَّاهر أنَّه وهم، فالحديث قاله ﷺ للزّبير رضي الله عنه، أخرج الحاكم في "المستدرك" أنَّ الزّبير رضي الله عنه خَرَجَ يريد عليّاً، فقال له عليّ :" أَنْشُدُكَ اللهَ، هل سمعت رسُولَ الله ﷺ، يقول : تقاتله و أنت له ظالم ؟ فقال : لم أذْكُرْ ، ثم مضى الزُّبير منصرفاً "[1].

قلت : والغريب أنَّ الحاكم صحَّحه ، والأغرب أنَّ الذَّهبي وافقه ، مع أنَّ

(١) الحاكم "المستدرك" (ج٣/ ص٣٦٦) كتاب معرفة الصَّحابة .

في سنده عبد الملك بن محمّد الرَّقاشي، قَال فيه الحافظ : صدوق يخطئ تغيَّر حفظه لَمَّا سكن بغداد[1]، وفي سنده عبد الله بن محمَّد بن عبد الملك الرّقاشي، ذكره العقيلي في كتاب الضّعفاء، ونقل قول البخاري : فيه نظر[2]. وشيخه عبد الملك بن مسلم، قال عنه الحافظ : ليّن الحديث[3].

ومتنه لا يثبت؛ فلو ثبت لوقع ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ مِنَ القتال بينهما، فلم يقع قتال، بل تنحَّى الزّبير وانصرف راجعاً إلى المدينة، وَغَدَرَ به وَقَتَلَهُ ابن جرموز ظَهْراً (غِيْلَة) بوادي السّباع على سبعة فراسخ من البصرة. فإن صحَّ الحديث لتعدّد طرقه[4] فما جعل الزُّبير ﷺ يرجع سوى هذا الحديث.

وكيف لعليّ ﷺ أن يقاتله، وهو يعلم أنَّ قاتله في النَّار؟! روى أحمد عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ :

" اسْتَأْذَنَ ابْنُ جُرْمُوزٍ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : ابْنُ جُرْمُوزٍ يَسْتَأْذِنُ، قَالَ : ائْذَنُوا لَهُ، لِيَدْخُلْ قَاتِلُ الزُّبَيْرِ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ ، يَقُولُ : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيّ الزُّبَيْرُ"[5].

---

(١) ابن حجر "تقريب التّهذيب" (ص٣٦٥/ رقم٤٢١٠) .

(٢) العقيلي "كتاب الضّعفاء" (ج٢/ ص٧٠١/ رقم٨٧٥) .

(٣) ابن حجر "تقريب التّهذيب" (ص٣٦٥/ رقم٤٢١٧) .

(٤) ذكر الألباني طرفاً منه في " الصّحيحة" (م٦/ ص٣٣٩/ رقم٢٦٥٩) مكتبة المعارف، وقال: بالجملة صحيح عندي لطرقه ، دون قصّة عبد الله بن الزّبير مع أبيه. والله أعلم .

(٥) أحمد "المسند" (ج١/ ص٤٦٤/ رقم٦٨٠) وإسناده حسن .

نقض قولهم : إنّ النَّبيَّ ﷺ أشار إلى بيت عائشة ﵂ وقال : هنا الفتنة

قالوا : روى البخاري عَنْ عَبْدِ الله ﵁، قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا ، فَأَشَارَ نَحْوَ مَسْكَنِ عَائِشَةَ، فَقَالَ :" هَاهُنَا الفِتْنَةُ ثَلَاثًا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ "(١). وروى مسلم عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ بَيْتِ عَائِشَةَ، فَقَالَ : "رَأْسُ الْكُفْرِ مِنْ هَاهُنَا"(٢). وأوهموا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إنَّما أشار إلى بيت عائشة ﵂، وأنَّه عنى بالفتنة عائشة، وأنَّ الحديث فيه ذمٌّ لها.

والقارئ البصير يعلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إنّما أشار نحو مسكن عائشة ﵂ ولم يُشِرْ إلى مسكنها ، فهناك فرق بين القول الشَّريف (نحو) والقول الخبيث (إلى)، ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة] فهل يعقل أن يشير النَّبيُّ ﷺ إلى بيت عائشة ﵂، الَّذي هو بيته ﷺ، ويصفه بهذا الوصف ؟! ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النُّور].

والإشارة الشَّريفة إنَّما هي إلى المشرق إلى العراق، لأنَّها مشرقُ أهل المدينة كما ورد في أحاديث صريحة صحيحة، فقد روى مسلم عن سَالِمِ بْن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ يَقُولُ :" يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَسْأَلَكُمْ عَن الصَّغِيرَةِ وَأَرْكَبَكُمْ لِلْكَبِيرَةِ !سَمِعْتُ أَبِي عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا ـ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ المشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ ـ وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خطَأً ، فَقَالَ الله ـ ﷻ ـ لَهُ :

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٤٦) كتاب فرض الخمس .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٣٢) كتاب الفتن.

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ...﴿٤٠﴾ ﴾ [طه] "[1].

أمَّا قولهم :إنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج من بيت عائشة رضي الله عنها، فَقَالَ:" رَأْسُ الْكُفْرِ مِنْ هَاهُنَا" فلم يتمّوا الحديث زيادة في التَّلبيس والتَّعمية، والحديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ بَيْتِ عَائِشَةَ، فَقَالَ :" رَأْسُ الْكُفْرِ مِنْ هَاهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ ـ يَعْنِي المشْرِقَ ـ"[2]. وللبخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، قَالَ : " رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ المشْرِقِ "[3].

ومنهم مَنْ شَغَبَ بأنَّ الفتن من جهة نَجْد، قالوا : فقد روى البخاريّ عَن ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ :" ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله، وَفِي نَجْدِنَا، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا، قَالُوا يَا رَسُولَ الله، وَفِي نَجْدِنَا، فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ : هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ"[4].

قلنا : نعم، الحديث أخرجه البخاريّ مِن رواية أزهر السَّمَّان مرفوعاً، لكن ليس المراد بنجد بلاد نجد المشهورة، فهذا مِن الوهم، فليس المراد موضعاً مخصوصاً، فأصل كلمة نجد مَا ارتفع وأشرف مِن الأرض، بخلاف الغَوْر فَإِنَّهُ مَا انْخَفَضَ مِنْهَا ، فما ارتفع يسمَّى نجداً ، وما انخفض يسمَّى غوراً ، وَتِهَامَة كُلُّهَا مِن

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٣١) كتاب الفتن.

(٢) المرجع السَّابق .

(٣) البخاري " صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٩٧) كتاب بدء الخلق .

(٤) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٥) كتاب الفتن .

الْغَوْر، وَمَكَّة مِنْ تِهَامَة.

ونجد أهل المدينة مِن جهة المشرق، وهي بادية العراق ونواحيها، وهذا معروف في كتب المعاجم والبلدان والأنساب والحديث وغيرها. ومن الأدلَّة على أنَّ نجد أهل المدينة من جهة المشرق دعاءُ النَّبيِّ ﷺ على قبائل مِن مُضَر كانوا مقيمين بأرض نجد وما والاها، قال ﷺ:" اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ. وَأَهْلُ الْمَشْرِقِ يَوْمَئِذٍ مِنْ مُضَرَ مُخَالِفُونَ لَهُ "[1].

فقولهم: وَفِي نَجْدِنَا، وقوله ﷺ:" هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ" المراد جهة المشرق، ومصداق ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّ قرن الشَّيطان يطلع مِن قبل المشرق حيث الفتنة ، كما تقدَّم آنفاً ، روى مسلم عَنْ نَافِعٍ عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ الْمَشْرِقِ، يَقُولُ :" أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا، أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ "[2].

وعلَّة امتناع النَّبيِّ ﷺ عن الدُّعاء لأهل نجد (أهل المشرق) تحذيرهم من الفِتَنِ، لحملهم على ترك ملابستها ومزاولتها لأنَّها من جهتهم.

وشواهد الحال تؤكِّد أنَّ الفتن كان منشأها من المشرق، فمَنْ قَتَلَ الخليفة عمر ﷺ غِيلة جاء مِن قِبَل المشرق، ومَنْ أجلب على الخليفة عثمان ﷺ واجتمع عليه جلّهم جاء مِن هناك. وحادثة الجمل وقعت في ناحية المشرق، ومن المشرق ظهر الخوارج، وطلعت معظم الفرق الضَّالّة، وفيها قتل الخليفة علي ﷺ وابنه سبْط

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م١/ ج١/ ص١٩٥) كتاب الأذان .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٣١) كتاب الفتن .

رسول الله ﷺ، وغير ذلك، وما زالوا يبكون ويتباكون: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التّوبة].

نقض قولهم: عائشة رضي الله عنها تروي أنّ النّبيّ ﷺ حاول التردّي من رؤوس شواهق الجبال

قالوا: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يريد أنْ يُلقِي نفسه من ذروة جبل، فقد روى عن مَعْمَر، قال الزّهري: فأخبرني عروة، عن عائشة رضي الله عنها وساق حديث بدء الوحي إلى قوله: "... وفتر الوحيُ فَتْرَةً".

وزاد الزّهري: "حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنَا - حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ الله حَقّاً، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذلك، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذلك"(١).

قالوا: وهذا يعارض عِصْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ، كذلك يعارض ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: "مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا "؟!(٢).

قالوا: وإذا لم يكن هذا الخبرُ الّذي رواه البخاري صحيحاً، فكيف يوصف كتابه بالصَّحيح، وهو يطعن على رسُولِ الله ﷺ ويتّهمه أنّه كان يريد قتل

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٦٨) كتاب التَّعبير.

(٢) البخاري " صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص٣٢) كتاب الطِّبِّ.

نفسه كما روت عائشة رضي الله عنها ؟!

قلت : هذا كلام مَنْ ليس له درايةٌ بعلم الحديث، فقصَّة التَّردِّي مِن رؤوس شَواهِقِ الجبال مِنَ الوَهْم عزوها للبخاري، فهي من بلاغات الزُّهْرِيّ، وليس مِنْ حديث عائشة رضي الله عنها، ووجودها في صحيح البخاري لا يعني أنَّها صحيحة على شرطه، ولكن صنيع البخاريّ يوهم مَنْ لا عِلْمَ له أنَّها على شرطه، فليس كلُّ كلمة في الصَّحيح على شرط البخاريّ.

فهناك أحاديث مسندة صحيحة، وأخرى معلَّقة سقط من أوَّل الإسناد راوٍ فأكثر على التَّوالي، وقد تجد الحديث معلَّقاً في موضع وموصولاً في موضع آخر من كتابه، ومنها ما لا يوجد إلّا معلَّقاً، وقد جمعها الحافظ في كتابه "تغليق التّعليق" وهي قليلة، وجلُّها صحيح.

وقد علَّقها البخاري بصيغتين : صيغةِ الجزم، وصيغة التَّمْرِيض، وما علَّقه بصيغة الجزم فصحيح إلى من علَّقه عنه، ثم النَّظر فيما بعد ذلك، وما كان منها بصيغة التَّمريض ممّا لم يوردْه في موضع آخر فلا يوجدُ فيه ما يلتحقُ بشرطِه إلّا القليلُ، وقد علّقها بهذه الصِّيغة كونه يذكرُها بالمعنى، ولكن فيها الصَّحيح، وفيها ما هو حسن، وفيها دون ذلك.

وهناك الموقوفات، وهي أقوال الصَّحابة أو التَّابعين، ومنها الصَّحيح ومنها دون ذلك، وهذا يعرفُه أهلُ الحديثِ، ولا يجهلُهُ طُلّابُ العِلْمِ، وفي منأى عنه أهلُ الجهل .

ففي آخر حديثِ عائشة رضي الله عنها، زاد الزُّهري :"فيما بلغنا" وعلى ذلك فهذا من

بلاغات الزُّهري، وليس مِن حديث عائشة ﵂، والزُّهريّ مِن الطَّبقة الرَّابعة أي من الطَّبقة الّتي تلي الوسطى من التَّابعين، وبينه وبين النَّبيِّ ﷺ واسطة أو واسطتان أو أكثر، وغالب روايات الزُّهري إذا قال : "بلغنا" الإعضال، أو الإرسال.

والمُعْضل : هو مَا سقط مِن سنده راويان أو أكثر على التَّوالي ، والمرسَل ـ عند الفقهاء والأصوليين ـ ما رفعه غيرُ الصَّحابيِّ، وسُمِّي بالمرسَل لأنَّ صاحِبَه أطلقَهُ، ولم يقيِّدْه بالصَّحابيِّ الَّذي رواه عنه.

ومِنْ أهل الحديث مَنْ يرى أنَّ ما أرسَله صِغَارُ التَّابعين منقطع، والحاصل المُعْضل و المُرْسَل و المُنْقَطِع من أنواع الضَّعيف، ومرسل الزّهري هذا شبه الرِّيح.

قلت : وقد ذكر البخاري حديث (بدء الوحي) في غير موضع من كتابه، فقد ذكره في كتاب التّفسير، وكتاب بدء الوحي، وكتاب بدء الخلق، وكتاب الأدب، وهذه الزِّيادة لم يذكرها إلّا في أوّل كتاب التَّعبير، ولعلَّه ذكرها لينبِّه إلى مخالفتها لما صحَّ عنده من حديث بدء الوحي.

فالبخاري ـ رحمه الله ـ سمَّى كتابه "الجامع الصَّحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه" ومن قوله (الصَّحيح) فهم العلماء أنّه ما أدخل إلّا ما صحَّ ممّا ساق إسناده، وأنّه احترز عن إدخال الضَّعيف، ومن قوله (المسند) أنَّ مراده الأصليّ تخريج الأحاديث المتّصل إسنادها بالصَّحابة ﷺ إلى الرَّسول ﷺ ، وأنَّ الحديث الصَّحيح : مَا رواه عَدْلٌ متْقِن ضَابِطٌ عن مِثْلِهِ إلى منتهاه بإسنادٍ متَّصل من غير شذوذٍ ولا علَّة. كما فهم العلماءُ من عمله في كتابه أنَّه اشترط على رواته : المعاصرَة واللِّقاء، أي معاصرة الرَّاوي مَنْ يروي عنه، وثبوت لقائه له، وأنَّ

ما وقع في كتابه من غير شرطِه، فإنَّما وقع عرضاً لا أصلاً ومقصوداً.

قلت : ومِنَ الخطأ الشَّنيع والغلط الفظيع أنْ يقرأَ هؤلاءِ في الجامع الصَّحيح، وهم لا يعرفون مصطلح كاتبه، فهذا يوقع الاضْطِرَابَ فِي الفَهْمِ.

وقصَّةُ التَّردِّي هذه أوردها الألباني في "الضَّعيفة" وقال :" بلاغ الزّهري ليس على شرط البخاري"[(١)]. وهي بلا شكّ من زيادات الزّهري كما جزم بذلك الحافظ في "الفتح"، وقال : "وهو من بلاغات الزّهري وليس موصولاً "[(٢)].

قلت : وبلاغ الزّهري لم يأت من طريق موصول تقوم به حُجَّة، ولا يحتاج إلى توجيه، فلا ينبغي الانشغال بالفرع طالما لم يسلم الأصل، أيضاً مهما بلغ الرَّاوي مِن الضَّبط والإتقان والورع، فإنَّه يدخل حديثه الشُّذوذ والعلَّة، فالخطأ والتَّصحيف قلَّ أن يَعْرى عنه لبيبٌ أو حصيف، وهذا معلوم لدى المشتغلين في عِلَلِ الحديث.

وقد ثبت في الصَّحيحين عن الزّهري نفسِه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ تحدَّث عن فترة الوحي وحزنه، ولم تَرِدْ كلمةٌ واحدةٌ عن قصَّة التَّردِّي، قَالَ مُحَمَّدُ بنُ شِهَابٍ (الزّهري) : فَأَخْبَرَنِي أَبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ ـ قَالَ فِي حَدِيثِهِ : " بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِن السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الملكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي،

---

(١) الألباني " السلسلة الضّعيفة والموضوعة " (م٣/ ص١٦٠/ رقم١٠٥٢).

(٢) ابن حجر " فتح الباري " (ج١٢/ ص٣٠٢) .

زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُوهُ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [المدّثر] قَالَ أَبو سَلَمَةَ: وَهِيَ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ ، قَالَ : ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ "[1] .

والخلاصة قصّة التَّردِّي ذكرها البخاريّ في أوَّل كتاب التَّعبير، في آخر حديث عائشة في بدء الوحي من طريق معمر : قال الزّهري : فأخبرني عروة عن عائشة ... فساق الحديث إلى قوله : (وفتر الوحي) وزاد الزهري : " حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنَا - ..." القصَّة.

وأخرج الحديث بهذه الزِّيادة أحمد في مسنده من طريق معمر به، وأخرجه مُسْلِم مِنْ نفس الطَّريق، لكنَّه لم يسق لفظه، وإنما أحال به على لفظ رواية يونس عن ابن شهاب، وليس فيه الزِّيادة. وكذلك أخرجه مسلم وأحمد من طريق عقيل، قال ابن شهاب به دون الزِّيادة، وأخرجه البخاري في أوّل الصَّحيح عن عقيل به.

وهذا يدلُّك على أنَّ القصَّة تفرَّد معمر بها دون يونس وعقيل، فهي شاذَّة، فضلاً عن أنَّها مرسلة معضلة ؛ فإن القائل : " فيما بلغنا " إنما هو الزُّهري.

نقض قولهم : عائشة ﷺ كانت سبباً في طلاق الْجَوْنِيَّةِ وموتها كمدا

قالـوا : عائشة ﵂ احتالت وخادعت النَّبيَّ ﷺ وكانـت سبباً في طلاق أسماء بنت النّعمان الجَوْنِيَّة، وأنَّ أسماء ماتت كمداً لأجل ذلك.

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٨٩) كتاب التّفسير . ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج٢/ ص٢٠٦) كتاب الإيمان .

قالوا : فقد روى ابن سعد، قَالَ : أخبرنا هِشَامُ بْنُ مُحَمَّـدٍ، حَدَّثَنِي ابْنُ الْغَسِيلِ، عَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ وَكَانَ بَدْرِيًّا، قَالَ: " تَزَوَّجَ رَسُولُ الله ﷺ أَسْمَاءَ بِنْتَ النُّعْمَانِ الْجُونِيَّةَ، فَأَرْسَلَنِي فَجِئْتُ بِهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ أَوْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ : اخْضِبِيهَا أَنْتِ، وَأَنَا أُمَشِّطُهَا. فَفَعَلْنَ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا إِحْدَاهُمَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُعْجِبُهُ مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ أَنْ تَقُولَ أَعُوذُ بالله مِنْكَ. فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَأَرْخَى السِّتْرَ مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَعُوذُ بالله مِنْكَ. فَقَالَ بِكُمِّهِ عَلَى وَجْهِهِ فَاسْتَتَرَ بِهِ، وَقَالَ: عُذْتِ مُعَاذًا. ثَلاثَ مَرَّاتٍ. قال هِشَامُ بن محمَّد : فحدثني زُهَيْر بن معاوية الجعفيّ : أنها ماتت كَمَداً "[(١)].

قلت : وهذا الحديث في سنده هشام بن محمَّد بن السَّائب الكلبي[(٢)]، متَّهم بالوضع كأبيه، وقد أخرجه الحاكم في "المستدرك" وسكت عنه، وقَال الذَّهبي في "التَّلخيص": سنده واهٍ[(٣)]، وذكره الألباني في "الضَّعيفة" وقال : موضوع [(٤)]. وهو كما قال؛ فإنَّ متن الحديث يخالف ما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ ﵁ قَالَ :" خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى انْطَلَقْنَا إِلَى حَائِطٍ يُقَالُ لَهُ الشَّوْطُ[(٥)]، حَتَّى انْتَهَيْنَا

---

(١) ابن سعد "الطّبقات الكبرى" (م٨/ ص١٤٥).

(٢) قال عنه ابن حبّان : " كان غالياً في التّشيّع ، أخباره في الأغلوطات أشهر مِن أن يحتاج إلى الإغراق في وصفها "ابن حبّان " كتاب المجروحين" (ج٣/ ص٩١).

(٣) الحاكم " المستدرك" (ج٤/ ص٣٧) كتاب معرفة الصّحابة .

(٤) الألباني " الضّعيفة" (ج٥/ ص١٦٦/ رقم٢١٤٤).

(٥) بستان معروف في المدينة.

إِلَى حَائِطَيْنِ، فَجَلَسْنَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْلِسُوا هَاهُنَا. وَدَخَلَ وَقَدْ أُتِيَ بِالْجَوْنِيَّةِ، فَأُنْزِلَتْ فِي بَيْتٍ فِي نَخْلٍ فِي بَيْتِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ شَرَاحِيلَ، وَمَعَهَا دَايَتُهَا حَاضِنَةٌ لَهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ : هَبِي نَفْسَكِ لِي، قَالَتْ : وَهَلْ تَهَبُ الملِكَةُ نَفْسَهَا لِلسُّوقَةِ[1] ؟! قَالَ : فَأَهْوَى بِيَدِهِ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهَا لِتَسْكُنَ، فَقَالَتْ : أَعُوذُ بالله مِنْكَ[2]، فَقَالَ : قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ : يَا أَبَا أُسَيْدٍ، اكْسُهَا رَازِقِيَّتَيْنِ[3] وَأَلْحِقْهَا بِأَهْلِهَا"[4].

قلت : وليس في الحديث أنَّ عائشة أو حفصة رضي الله عنهما وراء ما حَدَثَ ؛ فليس لهما ذكرٌ أصلاً، ولو كان شيء من هذا لَعُلِمَ بالنَّقل الصَّحيح، ولكن ماذا تقول لمن عَدَّ نفسه عالماً فقيهاً، وإماماً نبيهاً، وراح يتجاسر في ألفاظه.

نقض قولهم : إنها رضي الله عنها لا تسأل عن دين وإنما تسأل عن متاع

قالوا : عائشة لا تُسْأَلُ عن دين، وإنَّما تسأل عن متاع الدُّنيا، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب]، قَالوا : فالآيـة فيها قيدان : قيد في السَّائل أَنْ يَسْأَلَ عن مَتَاع، وقيد في المسؤول ـ وهنَّ أمَّهات المؤمنين ـ أن يُسْأَلْنَ مِنْ وراء حجاب.

قلت : الغريب أنَّ هذا الكلام هناك مَـنْ يتداعى عليـه ، ويأخذه على أنَّـه

(١) غير الملوك .

(٢) لعلّها لم تعرفه ﷺ .

(٣) الرَّازقيَّة : ثياب كَتَّان بيضٌ.

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١٦٤) كتاب الطّلاق .

كلامٌ مُسَلَّم به، ولا شِيَةَ فيه، وهو مِنْ كلام الَّذين اتَّخذوا القرآن عِضِين، الَّذين يفرّقون بين آي الكتاب، كما قَال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ ...﴿٨٥﴾﴾ [البقرة]، خلاف مَنْ قَال الله تعالى فيه : ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

فكيف يسوغ تأويلهم وقد أمر الله تعالى زوجات النَّبيِّ ﷺ أمَّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ أن يذكرْنَ ويبلِّغْنَ ما يُتْلى في بيوتهنَّ مِنَ القرآن والسُّنَّة، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ ...﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب] والمعنى اذكرْنَ في أنفسكنَّ ما يتلى في بيوتكنَّ من القرآن والسُّنَّة، واذكرنه لغيركنَّ على وجه الوعظ والتَّعليم والتَّبليغ.

وعائشة رضي الله عنها أَوْلاهنَّ بذلك وأخصُّهنَّ؛ فلم ينزل الوحيُ على رسُولِ الله ﷺ وهو في لحاف امرأة غيرها، فقد قال النَّبيُّ : " يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهُ والله مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا"(١) كما أنَّها رضي الله عنها كانت صغيرة في العمر، والصَّغير أحفظ، ولم تنشغل بولد. وقوله ﷺ : "لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ " يدلّ على أنَّ إيذاء عائشة رضي الله عنها فيه إيذاءٌ للنَّبيِّ ﷺ !

ثمَّ إنَّهم فهموا معنى المتاع على أنَّه كلُّ ما يُنْتَفعُ بِهِ مِن عُروضِ الدُّنيا ! وَفِي المَتَاعِ أَقْوَالٌ منها: حَاجَةٌ، أو فَتْوَى . وَهَذَا يَدُلُّك عَلَى جواز مُسَاءَلَتِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فِي حَاجَةٍ ، أَوْ مَسْأَلَةٍ يُسْتَفْتَى فِيهَا. وأيّاً كان معنى المتاع، فهو عامّ في كلِّ ما

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٢١) كتاب فضائل الصَّحابة .

يُطْلَب مِنْ أمور دينهم ودنياهم.

ولذلك كانت أمَّهات المؤمنين يذْكُرْن ما أمرهنَّ الله به، وكان الصَّحابة ﷺ يسألونهنّ خاصَّة عائشة، ولعلَّ هذا ممَّا رفع مِن قدْرهنَّ، فما زال النَّاس يترضَّون عنهنَّ وعمَّن رضي الله عنهم.

والحجاب في الآية :﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴾ المراد به حجاب البيوت، حيث المرأة مبتذلة في بيتها، فأوجب الله تعالى على المؤمنين إذا سألوا أمَّهات المؤمنين أنْ يسألوهنَّ مِن وراء حجاب (سِتْر)، ولذلك كانت أمُّ المؤمنين عائشة تعلِّم النَّاس مِنْ وراء حجاب امتثالاً لأمر الله تبارك تعالى، ففي الصَّحيحين عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ : "سَمِعْتُ عَائِشَةَ ـ وهي مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ ـ تُصَفِّقُ ، وَتَقُولُ : كُنْتُ أَفْتِلُ قَلائِدَ هَدْيِ رَسُولِ الله ﷺ بِيَدَيّ... "[1] الحديث .

كما أمر الله تعالى أمَّهات المؤمنين ـ والنّساء تبع لهنَّ ـ بالحجاب إذا خَرَجْنَ مِنْ بيوتهنَّ ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، فآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن، وآية الجلابيب عند الخروج من المساكن.

قلت : وكيف لا تُسْأَلُ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن دين، وقد قيل لمسروق : هل كانت عَائِشَةُ تُحْسِنُ الفرائِضَ؟ قال : "والَّذي نفسي بيده ، لقد رأيْتُ مَشْيَخةَ

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٥/ ج٩/ ص٧٣) كتاب الحجِّ، والبخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٢٣٩) كتاب الأضاحي.

أَصْحَابِ محمَّد ﷺ يسألونها عن الفرائض"[1].

وقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ :" كانت عائشةُ أفْقَهَ النَّاسِ، وأعلمَ النَّاسِ، وأَحْسَنَ النَّاسِ رأياً في العامَّةِ"[2]، وقال أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى عن أبيه : " ما أَشْكَلَ علينا أَمْرٌ فسألنا عنه عائشة إلا وَجَدْنا عندها فيه عِلْماً "[3]، وقال هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ : "ما رأَيْتُ امرأَةً أعلم بطبٍّ ولا بفقهٍ ولا بشعر مِن عائشة"[4]، وقال الزُّهْرِيُّ :" لو جُمِعَ عِلْمُ نساء هذه الأمَّةِ فيهنَّ أزواج النَّبيِّ ﷺ كان عِلْمُ عائشة أكثرَ من علمهنّ"[5].

نقض قولهم : لم ينزل في عائشة رضي الله عنها شيء من القرآن

قالوا : لم ينزل في آل أبي بكر شيء من القرآن، فضلاً عن أن ينزل في عائشة، لما روى البخاري عن عائشة، قالت : "مَا أَنْزَلَ الله فِينَا شَيْئاً مِن الْقُرْآنِ".

قلتُ : هذا كلام مَنْ لم يتعلَّم الوقف والوصل، فهو يقف على كلام لم يتمَّ معناه لتعلّقه بما بعده لفظاً ومعنى، وهذا وقف قبيح لأنَّه أفاد معنى غير مراد

---

(١) الهيثمي "مجمع الزّوائد" (ج٩/ ص٢٤٢) ، وقال : رواه الطّبراني وإسناده حسن . وأخرجه الحاكم في "المستدرك" (ج٤/ ص١١) كتاب معرفة الصّحابة .

(٢) ابن حجر "الإصابة" (م٤/ ج٨/ ص١٤٠/ رقم٧٠١) كتاب النّساء.

(٣) المرجع السّابق.

(٤) الهيثمي "مجمع الزّوائد"(ج٩/ ص٢٤٢) وقال : رواه الطّبراني وإسناده حسن .

(٥) المرجع السّابق، وقال الهيثمي : رواه الطّبراني مرسلاً ورجاله ثقات. وأخرج نحوه الحاكم في "المستدرك" (ج٤/ ص١١) كتاب معرفة الصَّحابة ، وقال الذّهبي في التَّلخيص : على شرط البخاري ومسلم.

لتوقُّف ما بعده عليه ليتمَّ به المعنى، فالرِّواية عند البخاري عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ قَالَ :" كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ ؛ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ خُذُوهُ فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ رضي الله عنها ؛ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ : إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ الله فِيهِ : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ ...﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف] فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ : مَا أَنْزَلَ الله فِينَا شَيْئًا مِن الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنَّ الله أَنْزَلَ عُذْرِي"(١).

فمراد عائشة رضي الله عنها أنَّه لم ينزل في ذمِّهم شيء من القرآن، وإنَّما نزل عذرها وبراءتها ممَّا نَسَبَ أهلُ الإفك. فالوقف والابتداء قد يحيل الكلام إلى معنى غير مقصود، ومَنْ تعمَّد ذلك ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ...﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

ومنهم مَنْ شَغَبَ، فقال : قَوْلها : "مَا أَنْزَلَ الله فِينَا" يدلُّك على أنَّ قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ ...﴿٤٠﴾ ﴾ [التَّوبة] ليس المراد به أبا بكر رضي الله عنه، وليس كما زعم، فالمراد بقول عائشة : "فِينَا" أي في بني (أولاد) أبي بكر، لا في أبي بكر وآله، ثمَّ إنَّها تنفي نزول آيات في ذمّهم، ولا تنفي نزول آيات بالكليَّة.

فالصِّدِّيق رضي الله عنه صاحب النَّبيِّ ﷺ في الحضر والأسفار، وجاره في الرَّوضة الشَّريفة المحاطة بالأنوار، نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ...﴿٤٠﴾ ﴾ [التّوبة]، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ ...﴿٢٢﴾ ﴾ [النّور]، وقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ﴾ [اللّيل].

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٤٢) كتاب التَّفسير .

وقد استدلّ العلماء بقوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ﴾ [اللّيل] ومعه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] على أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق ﷺ ما طلعت الشَّمس ولا غربت بعد النَّبيِّين على رجل أفضل منه.

ولكن لمن تقول هذا ؟! إنَّ أهل الأهواء لو جئتهم بكلِّ آية ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ...﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر] ، وصدق الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النّمل] .

نقض قولهم : عائشة ﷺ زوجة النبي ﷺ في الدنيا لا في الآخرة

قالوا : عائشة ﷺ زوجة النَّبيِّ ﷺ في الدُّنيا لا في الآخرة؛ واحتجّوا بأنّها بدَّلت وغيَّرت مِنْ بعده ﷺ.

قلت : وحُجَتُهُمْ دَاحِضَةٌ؛ فقد ثبت في الصَّحيحين أنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا أُمِرَ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بين المقام معه أو مفارقته لهنَّ بَدَأَ بعائشة ﷺ ، فَقَالَ : " إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ، قَالَتْ : وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ : ثُمَّ قَالَ إِنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾[الأحزاب]، قَالَتْ : فَقُلْتُ : فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟!فَإِنِّي أُرِيدُ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَتْ : ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ

ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ"[1] .

فأمَّهات المؤمنين كلُّهنَّ اخترْنَ اللهَ ورسولَه والدَّار الآخرة، وكلهنَّ محسنات أعدَّ الله لهنَّ أجراً عظيماً .

وقد حظر الله تعالى عليهنَّ أنْ يتزوَّجن بعد موته ﷺ، وقصرَهُنَّ عليه ﷺ ؛ ليبقين أزواجه في الآخرة، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ...﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] .

ومن المعلوم أنَ زوجة المؤمن في الدُّنيا زوجته في الآخرة، لقوله ﷺ : "المرأة لآخر أزواجها"[2] ولقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [الرّعد] ، وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يس]، وقوله: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزّخرف] فإذا كان هذا للمؤمنين، فما بالك بالنَّبيِّ ﷺ وأمَّهات المؤمنين !

وهناك أحاديث صحيحة صريحة تدحض قول مَنْ زعم أنَّ عائشة رضي الله عنها زوجة النَّبيِّ ﷺ في الدّنيا لا في الآخرة، فقد بشَّرها النَّبيُّ ﷺ أنَّها زوجته في الدّنيا والآخرة، منها ما رواه ابن حبّان وغيره بسند صحيح، عن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَ بِي جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ، فَقَالَ : " هَذِهِ

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص٢٣) كتاب التّفسير . ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ"(م٥/ ج١٠/ ص٧٨) كتاب الطّلاق .

(٢) الألباني "الصّحيحة" (م٣/ ص٢٧٥/ رقم١٢٨١) .

زَوْجَتُكَ فِي الدُّنيا والآخرة"(1).

وما رواه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ذكر فاطمة رضي الله عنها، قَالَتْ: فتكَلَّمْتُ أَنَا فَقَالَ:" أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تكُونِي زَوْجَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قُلْتُ: بَلَى والله، قَالَ: فَأَنْتِ زَوْجَتِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (2).

أمَّا مَنْ زعم أنّ عائشة رضي الله عنها ظهر منها في حياته ﷺ ما يوجب كفْرها، فيدحضه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ... ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة].فلو ظهر منها شيء من ذلك ما أمسك النَّبيُّ ﷺ بعصمتها.

هذا وهناك مطاعن أخرى، وشبهات لا تكاد تنقضي، وحسبنا ما رددنا عليه، ليَقِفَ العاقلُ على أطلالِ الباطل، ويطَّلع على آثارِ فِكْرٍ عاطل، لتبقى النَّفسُ مستكينةً للحقِّ مُبْصِرةً للصِّدق، والحقُّ أحقُّ أن يتَّبع، والباطل حقيق بأَنْ يُتْرَكَ ولا يستمع، وفيما أشرت غنى لمن وفَّقه الله تعالى ووعى، وفيما رويناه عن عائشة أصدق ردّ وأبلغه.

أحاديث موضوعة في حقّ عائشة رضي الله عنها

ولَّد المولِّدون، ووضع الوضَّاعون أحاديث كثيرة يطعنون بها على عائشة رضي الله عنها وغيرها حتَّى شبعوا من لحوم الغوافل، وأذاعَ وأشَاعَ هذه الأخبار مَنْ ضيَّع وأضاع، وَلَعَمْرُ الله لو تابـوا وأصلحوا لكان خيراً لهم، فويل لآكلي لحوم النَّـاس،

(1) الألباني "التّعليقات الحسان على صحيح ابن حبّان" (ج10/ ص180/ رقم7052).

(2) الحاكم "المستدرك" (ج4/ ص10) كتاب معرفة الصّحابة، وقال الحاكم: الحديث صحيح ولم يخرّجاه، ووافقه الذّهبي.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة].

ومِن هذه الأحاديث : " خذوا شَطْرَ دينكم عَنْ هذه الحميراء "[١] وهو موضوع، ومنها حديث :" يا حميراء، لا تغتسلي بالماء المشْمِس، فإنَّه يُورِثُ البرص"[٢]. وحديث :" يا عائشة، اتخذت الدُّنيا بطنك؟! أكثر من أكلة كلّ يومٍ سرف، والله لا يحبُّ المسْرِفين"[٣]. وحديث :" يا عائشة، اهجري المعاصي، فإنَّها أفْضَلُ من الهجرة، وحافظي على الصَّلاة، فإنَّها أفْضَلُ مِنَ الجهاد"[٤].

ومنها أنَّ رَسُول الله ﷺ دخل على عائشة و فاطمة، وقد جرى بينهما كلام، فقال ﷺ :" ما أَنْتِ بمنتهية يا حميراء عن ابنتي؟ إنَّ مثلي ومثلك كأبي زرع مع أمّ زرع ..."[٥]. ومنها :" إذا أردت اللّحوق بي، فليكفك مِن الدُّنيا كزاد الراكب، وإيَّـاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تستخلقي ثوبـاً حتى ترقعيـه"[٦]. وهنـاك أحاديث

---

(١) الألباني : " الضّعيفة "(م١٤/ ص٧٦/ رقم٦٥٣٢) وقال الألباني : منكر .

(٢) ابن القيم "المنار المنيف" (ص٥٧) وهو حديث باطل .

(٣) الألباني : " الضّعيفة " (ج١/ ص٤٢٣/ رقم٢٥٧) ، وقال: موضوع .

(٤) الألباني : " الضّعيفة " (ج١١/ ص٢٠١/ رقم٥١١٩) وقال : منكر .

(٥) الألباني : " الضّعيفة "(م١٤/ ص٧٦/ رقم٦٥٣٢) وقال الألباني : منكر .

(٦) التّرمذي : "ضعيف سنن التّرمذي" (ص٢٠١) كتاب اللّباس ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من حديث صالح بن حسّان ، وصحّحه الحاكم في "المستدرك" (ج٤/ ص٣١٢) وفي سنده سعيد بن محمّد الورَّاق، قال عنه الحافظ : ضعيف "تقريب التّهذيب" (ص٢٤٠/ رقم٢٣٨٧)، وقال الذّهبي في تلخيص المستدرك : الورّاق عَدَم . وأورده الألباني في : " الضّعيفة " (ج٣/ ص٤٥٧/ رقم١٢٩٤) وقال : ضعيف جداً .

أخرى، وفيها ذكرنا غِنَى لمن وَعَى وارْعَوى.

هذا وليس أبغض إلى الوضَّاعين مِن أهل الحديث، الَّذين نخلوا الرِّوايات وميَّزوا الطَّيِّبَ مِن الخبيث، وقد أحسن القائل :

أَهْلُ الحْدِيــثِ هُمُ أَهْـلُ النَّبِيِّ وَإِنْ لَمْ يَصْحَبُـوا نَفْسَــهُ أَنْفَاسَـهُ صَحِبُوا

فطوبى لأهل الحديث الَّذين دعا لهم رسولُ الله ﷺ بالنّضرة، فقال : " نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منه "[1].

ويا حسرة على مَن يظنّ أنَّ الكذب يفيء عليه مغنماً، أو أنَّ الصِّدق يخسر فيه درهماً، أو يجرّ عليه مغرماً؛ فلو جاء يوم القيامة بكلّ معذرة يعتذر بها ما تقبّل منه ، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة] .

ويفتّ في عضدك، ويقلق مرقدك، أن تجد مَنْ يتأشَّب إلى الوضَّاعين الّذين مَا اشْتَمَلَتِ النِّسَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَكْذَبَ مِنْهم، ويقتفي أثرهم وينشر خبرهم.

لقد خسر الَّذين اكتتبوا هذه الأحاديث، ويمّموا وجوه النَّاس إليها، وجعلوا كلام الله تعالى ورسوله ﷺ وراء ظهورهم : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة] .

أين تذهب عنهم هذه الآيات : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس] ، ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ...﴿١٢﴾ ﴾ [يس] ، ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٣٢/ رقم٢١٤٨٢) وإسناده صحيح .

عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ [الجاثية]. فليحذر الَّذين يبغون الغوائل، ويخلطون الحقَّ بالباطل، فعملهم إلى بوار، ومصيرهم إلى القهّار ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

ماذا قال ابنُ عبّاس رضي الله عنه حين اشتكت عائشة رضي الله عنها وحين حضرتها الوفاة

لَمَّا اشتكت عائشة رضي الله عنها جاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فَقَالَ:" يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، تَقْدَمِينَ عَلَى فَرَطِ صِدْقٍ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ"(١). أي ستلحقين بالأحبّة : النَّبيِّ ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فقد سبقاك وهيّآ لك المنزل في الجنّة، فَقَطَعَ ابْنُ عبَّاس لعائشة بدخول الجنَّة، ولَا يُقَال ذَلِك إلاَّ بتوقيف.

وثبت أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى عَائِشَةَ قَبْلَ مَوْتِهَا، وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: "أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ الله، زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ. وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا(٢)"(٣).

وهذه الشّهادة عندما تأتي من ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه لها دلالتها؛ فهو من شهداء الله تعالى في الأرض، وما كان ليشهد لها رضي الله عنه لولا علمه بذلك !

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ " (م٢/ ج٤/ ص٢٢٠) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) على عادة أهل الورع والتُّقى.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (م٣/ ج٦/ ص١٠) كتاب التّفسير .

القسم السادس
عدالة الصحابة ﷺ وأدلّة العدالة

عدالة الصحابة ﷺ

المراد بعدالة الصَّحابة أنَّهم لا يتعمَّدون الكَذِبَ على رسُولِ الله ﷺ، لما شَهِدَ اللهُ لهم به مِنْ سَلامَة قلوبهم، وصدقِ إيمانهم، وحسن تَقْواهم، ولما مدحهم ﷻ به في آيات يَكْثُرُ إيرادُها، ولما ثبت عن النَّبيِّ ﷺ من عظيم مناقبهم، وعلوِّ مراتبهم، وفضل سوابقهم في أحاديث يطول تعدادها.

فهم عدول بتعديل الله تعالى لهم ورسوله ﷺ، وكلُّهم عدول مَنْ سَبَقَ إسلامُه منهم وَمَنْ تأخَّر، ومَنْ هاجر ومَنْ ناصر، ومن قاتل معه ﷺ ومَنْ لم يُقَاتل، ومَنْ لازمه ﷺ ومَنْ لم يلازمه، ومَنْ مَاتَ في حياته ﷺ ومَنْ مات بعد وفاته ﷺ، ومَنْ لابس الفتن منهم ومَنْ اعتزلها؛ لأنَّه لا يجوز أن يمدحهم الله تعالى ويثني عليهم الرَّسولُ ﷺ وهم على غير ذلك، والقدح في عدالة أحدهم ذريعة لردِّ كلام الله تعالى، وكلام الرَّسول ﷺ.

ولا نغلو فيهم، فليس المراد بعدالتهم أنَّهم معصومون عن الخطأ، فالصَّحابة غير معصومين عن الخطأ في آحادهم، لكنَّ الله تعالى أجارهم عن الخطأ في إجماعهم، لقوله ﷺ: " إنَّ اللهَ قد أَجَارَ أُمَّتي مِن أنْ تَجْتَمِعَ على ضَلالة "[1].

قلت : ولذلك لَمَّا ثارت الفِتَنُ بعد استشهاد عثمان ﷺ لم يكن هناك إجماع من الصَّحابة ﷺ على ملابستها أو اعتزالها ، لكنَّ كلمتهم اجتمعت على معاوية ﷺ

---

(١) الألباني " الصَّحيحة " (م٣/ ص٣١٩/ رقم١٣٣١) وقال : بمجموع طرقه حسن .

لَمَّا تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة له تحقيقاً لقول النَّبيِّ ﷺ: " إنَّ ابني هذا سيِّد، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بين فئتين عظيمتين مِن المسلمين"(1)، وسمِّي ذلك العامُ عامَ الجماعة، وهذا يؤكِّد صحَّة خلافة معاوية رضي الله عنه ؛ لأنَّ الله تعالى أجار أمَّة النَّبيِّ ﷺ من الاجتماع على ضلالة، وقد اجتمعوا على معاوية رضي الله عنه ، فلا ريب أنَّهم اجتمعوا على حقٍّ، فما بال أقوام لا ينتهون عن ثَلْبِ معاوية رضي الله عنه إلى السَّاعة، وقد اجتمع عليه خَيْرُ النَّاس يومها وربِّ النَّاس ؟!

أدلّة العدالة

ومِنْ أدلَّةِ عدالتهم مِنَ التَّنزيل، قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزّمر] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ...﴿٤﴾ ﴾ [الفتح] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال]، وقولـه تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النّمل]، وقوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] ، وقولـه تعـالى : ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال] في آيات كثيرة متكاثرة .

---

(1) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٧٠) كتاب الصّلح .

ومن أدلَّة عدالتهم من السُّنَّة، قولُ النَّبيِّ ﷺ :" خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ "[1].

وصدق رَسُولُ الله ﷺ، فقد خَلَفَهم خَلْفٌ لا يتورَّعون في كلامهم، وتجرَّؤوا على الله في أيمانهم.

ومن أدلَّة عدالتهم قوله ﷺ :" النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ، أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي، أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ "[2] .

والمعنى أنَّ بقاءَ النُّجوم أمانٌ للسَّماء، فإذا النّجوم انكدرت، جاء السَّماءَ ما تُوعَدُ فانفطرت وانشقت، وبقاء النَّبيِّ ﷺ أمان لأصحابه ﷺ، فلمَّا ذهب ﷺ جاء أصحابه ﷺ ما يوعدون من الفتن، وبقاء الصَّحابة ﷺ كان أماناً للأمَّة، فلمَّا ذهب الصَّحابة ﷺ جاء أمَّةَ النَّبيِّ ﷺ ما يوعدون من اشتداد الفتن، واختلاف القلوب، وغير ذلك، وهذه كلّها من علامات النُّبوَّة، لوقوع ما أنذر به ﷺ .

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ :" يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِن النَّاسِ، فَيَقُولُونَ : فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ الله ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِن النَّاسِ، فَيُقَالُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٥١) كتاب الشّهادات .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٨٣) كتاب فضائل الصّحابة .

مِن النَّاسِ، فَيُقَالُ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ، فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ "(١).

فهذه أدلَّة قاطعة على أفضليَّة الصَّحابة على كلِّ مَنْ جاء مِنْ بعدهم، ثم الَّذين رأوا الصَّحابة وهم التَّابعون لهم بإحسان، ثمَّ أتباع التَّابعين. ويؤيِّد هذا المعنى قول الله تعالى في التَّابعين : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الجمعة] .

هذا وقد أفرد المحدِّثون كتباً لفضائل الصَّحابة رضي الله عنهم، وأبواباً لفضائل المهاجرين والأنصار وبعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ بما يغني عن إعادته.

ويكفي المهاجرين شرفاً أنَّ الله تعالى سمَّاهم الصَّادقين، فقال : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر] وأنَّه أمر المؤمنين أن يكونوا معهم ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التَّوبة] .

ويكفي الأنصار شرفاً أنَّ الله تعالى جعلهم المفلحين، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] .

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٤/ ص١٨٩) كتاب فضائل الصّحابة .

الصّحابة ﷺ شهداء الله تعالى

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قال:" مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْراً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَجَبَتْ. ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرّاً، فَقَالَ : وَجَبَتْ . فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ : مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ "[1]. وفي رواية ، قال ﷺ : "شَهَادَةُ القَوْمِ المُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ"[2].

وفي وَسَطِ سورة البقرة، في الآية الثَّالثة والأربعين بعد المائة أثنى الله تعالى على الصَّحابة بأن جَعَلَهُمْ أُمَّةً وسطاً خِيَاراً عُدُولاً في أقوالهم وأفعالهم، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [3] ...(١٤٣) ﴾ [البقرة]، وبهذا استحقَّ الصَّحابة أن يكونوا شهداءَ الله تعالى على النَّاس يوم القيامة، ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ (١٤٣) ﴾ [البقرة]. وفي سورة الحجّ : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ... (٧٨) ﴾ [الحجّ].

فالصَّحابة ﷺ شهداء الله تعالى، فكيف يجوز لأحد أن يجرح شهود الله تعالى ؟! فإن قال قائل : فقد ضيَّع الصَّحابة إيمانهم بعد النَّبيِّ ﷺ، قلنا : أما تقرأ القرآن، أما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ [البقرة]. وإذا كان ﷻ بالنَّاس رؤوفاً رحيماً ، فكيف بالصَّحابة ﷺ .

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج٢/ ص١٠٠) كتاب الجنائز.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٤٨) كتاب الشّهادات.

(٣) الوسط: العَدْل والخيار، ووسط كُلّ شيءٍ خياره، ووسط العقد: أَنْفَسُه.

ما أمر الله تعالى به مَن جاء مِن بعد الصَّحابة ﷺ

أَثْنَى اللهُ تعالى على أصحاب النَّبِيِّ ﷺ في غير آية ثناءً أوجب محبَّتهم ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ... ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال] في آيات يطول ذكرها.

ونَدَبَ إلى اتِّباعهم بإحسان ، والدُّعاء لهم والاستغفار ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

فكلُّ مَنْ جاء مِنْ بعد الصَّحابة مِنَ التَّابعين مأمورٌ بالدُّعاء والاستغفار لأصحاب النَّبِيِّ ﷺ عامَّة، فقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ عمَّ كلَّ مَنْ جاء مِنْ بعد الصَّحابة إلى قيام السَّاعة، وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ عمَّ كلَّ أصحاب النَّبِيِّ ﷺ .

ولذلك فإنَّ مِنْ أَمارات التَّابعين للصَّحابة بإحسان أنَّهم يستغفرون لإخوانهم السَّابقين بالإيمان، ويسألون الله تعالى ألّا يكون في قلوبهم غلّ لهم، عرفاناً بحقِّهم وفضلهم؛ فقد وَرِثوا عنهم ما تلقّوه عن النَّبِيِّ ﷺ قولاً وعملاً، واعتقاداً، ومنهجاً .

ومِنْ أَمارات مَنْ لم يتَّبعهم بإِحسان أنَّهم يسبُّون الصَّحابة الكرام ، وقد

أُمِروا بالاستغفار لهم، ذلك أنَّ في قلوبهم مرضاً، ومن أعظم خَبَثِ الْقُلُوبِ وأمراضها أن تجد فيها غلّا للّذين ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التَّوبة]. روى مسلم عن عروة، قال : قَالَتْ لي عَائِشَةُ رضي الله عنها : " يَا ابْنَ أُخْتِي، أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبُّوهُمْ "(١).

وتعجب حين تعلم أنَّ كثيراً من النَّاس يبحثون عن عِلاج لأمراض الأبدان، وهم في الحقيقة يحتاجون إلى علاج لأمراض القلوب، الَّتي امتلأت غيظاً وحقداً وضغناً وحسداً وزيغاً وزيفاً ونفاقاً وعُجْباً وفخراً وكبراً وهمّاً وحسرةً...

وأمراض القلوب أشدّ خطراً من أمراض الأبدان؛ فأمراض الأبدان غاية أمرها أنّها قد تفضي بصاحبها إلى الموت، أمَّا أمراض القلوب فقد تفضي إلى الشَّقاء في الدَّارين، لأنَّ معينها الشّبهات والشّهوات !

والقرآن الكريم فيه شفاء مِن أمراض القلوب الَّتي في الصّدور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس].

فالقرآن الكريم فيه من الآيات البيِّنات والبراهين القاطعات ما يجعل النَّاظر فيه يُخْرِجُ الحقَّ مِنْ خَاصِرَةِ البَاطِلِ، وقاصد الحقِّ لا يعمى.

والقرآن يعمّ شفاءَ القلوب والأبدان بإذن الله تعالى وتقديره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص١٥٨) كتاب التّفسير .

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...﴿٤٤﴾﴾ [فصّلت]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، لكن ما كلّ أحدٍ يوفَّق للاستشفاء به.

ومن النَّاس مَنْ يجعل القرآن آخر الأسباب، وَحَقِيقٌ بكتاب الله تعالى الَّذي عَلِمْنا بَعْضَ شَأْنِه أَنْ يُسْتَشْفَى بِه مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وأنْ يُقَدَّم على كلِّ دواء، والله أعلم.

فإيَّاك أن تكون ممَّن يخالف أمر الله تعالى، فتقع في أعراض الصَّحابة ﷺ، وتقيم الأحقاد في القلب لهم، فالإسلام حرَّم حمل الأحقاد والأضغان، وكُنْ من التَّابعين لهم بإحسان، ممَّن يستغفرون لمن سبقهم في الإيمان.

واعلم أنَّ الصَّحابة أسلم النَّاس قلوباً وأنقاهم سِيرة وسَريرة، وأنَّ القرآن نصَّ على طهارة قلوبهم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ...﴿٣﴾﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ...﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

واعلم أنَّ الله تعالى رضي عن الصَّحابة السَّابقين الأوَّلين ولم يشترط، لكنَّه اشترط على التَّابعين لهم أن يتَّبعوهم بإحسان، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ...﴿١٠٠﴾﴾ [التَّوبة].

واعلم أنَّنا لا نأخذ عقيدتنا في الصَّحابة ﷺ مِنْ كتب التَّاريخ وروايات المؤرِّخين، وإنَّما نأخذ عقيدتنا فيهم مِن كتاب الله تعالى، القائِل فيهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ...﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

فلا نقبل روايات تطعن في سلامة قلوبهم، والله تعالى يقول: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح].

ولا نقبل روايات تاريخيَّة تشكِّك في تقواهم، وقد شهد الله تعالى لهم أنَّهم أهل للتَّقوى: ﴿ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] ولذلك اختارهم الله تعالى لدينه وصحبة نبيِّه ﷺ لعلمه ﷻ بهم.

ولا نقبل روايات تقدح في إيمانهم، والله تعالى يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

ولا نقبل روايات تزعم أنَّهم ارتدُّوا بعد وفاته ﷺ وأنَّهم في النَّار، والله يقول: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] فهم موعودون بالجنَّة، فكيف وعدهم الله الحسنى لولا عِلْمه سبحانه أنَّهم سيظلُّون على الإيمان؟!

وكيف يدخلون النَّار، والله تعالى يقُول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا

﴿يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء].

ولا نقبل روايات تشكِّك في فوزهم وفلاحهم في الدُّنيا والآخرة، والله تعالى يقول: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف].

ولا نقبل روايات تتَّهمهم بالكفر والفسوق والعصيان بعد الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات].

ولا نقبل روايات تدعو إلى معاداتهم، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... ٥٥﴾ [المائدة] فهم يستحقّون الموالاة.

فإن احتجّوا بما شجر بين الصَّحابة قلنا: ما شجر بينهم لا ينقضُ عدالتهم، ولا يقْدَحُ في إيمانهم؛ لأنَّ ثناءَ الله تعالى عليهم قد مضى وانقضى، فهو سبحانه أعلم بهم وبحالهم وببقائهم على الهدى والتُّقى، قَال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ...٣﴾ [المائدة].

وما شجر بين الصَّحابة بعد كمال الدِّين لا يُبَدِّل كلماتِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ...٦٤﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ ...١١٥﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ...٢٧﴾ [الكهف] فالدِّين بعد

أن كَمُلَ لا يُزَادُ فيه ولا ينقص ولا يُبَدَّل ولا يُحرَّف، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس].

واعلم أنَّ لهم فيما شَجَرَ بينهم أعذاراً، حسبك منها سلامة قلوبهم، وصفاء سريرتهم، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

فاعذر، وتبيَّن، واحْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَأْتِ الله بقلب سليم، فكم من لائم، وهو مُلِيمُ، ولله القائل :

تأنَّ ولا تَعْجَلْ بِلومِـكَ صَاحِبـاً لعلَّ لَـهُ عُذْراً وأنْتَ تَلُـومُ

ولا تسمع إلى أولئك الَّذين أعمى الهوى قلوبهم، فاختلقوا الرِّوايات، ووضعوا القصص والحكايات؛ لإيغار الصُّدور، وإلهابِ المشاعر، وإثارة الأحقاد على أصحاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزّمر] .

واعلم أنَّ النَّقص فيمن تزيّوا عن خِدَاعٍ بزيّ العلماء، لا في أصحاب النَّبيِّ ﷺ الأجلّاء، المُثْنَى عليهم في التَّوراة والإنجيل والقرآن. وكفى برهاناً على عدالتهم مِنَ السُّنَّة قوله ﷺ في حَجَّة الوَدَاع : " هَذَا لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الغَائِبَ "(١) .

فلو كان فيهم مجروح واحد لما أمرهم النَّبِيُّ ﷺ جميعاً بالبلاغ عنه ، ولذلك

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٢٤) كتاب العلم .

لا يجوز التُّوقُّفُ أو التردُّد في عدالة أحد منهم، فَأَمْرُه ﷺ إيَّاهم بالبلاغ عنه جملة واحدة دون استثناء لا شكَّ فيه نصٌّ صريحٌ على عدالتهم جميعاً.

وفي الحديث تصريح بوجوب تبليغ العلم ونقله وهو من فرائض الكفاية، وهذا ما قَامَ به أصحابُ النَّبِيِّ ﷺ، فخير من بلَّغ بعد النَّبِيِّ ﷺ أصحابه ﷺ، فقد دعوا إلى ما دعا إليه ﷺ، فأدوا الأمانة، وبلَّغوا الرِّسالة، وهذا القرآن الَّذي بين أيدينا، إنَّما نقله إلينا أصحابه ﷺ، فاجْهَدْ في اتِّباع سبيلهم، ولا تكن مع الجاهلين.

وهذا الصَّحابيّ الجليل عَائِذ بْن عَمْرو رضي الله عنه ينصّ على أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كلّهم أجمعون صفوة عدول، روى مسلم أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو، دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ الله بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: "أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي غَيْرِهِمْ"(١).

فإن احتجّوا على عدم عدالتهم جميعاً بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح]. وتمسَّكوا بأنَّ (مِنْ) في قوله تعالى (منهم) تفيد التَّجزئة والتَّبعيض، أي أنَّ بعضهم وعِد بالمغفرة والأجر العظيم، وليس كلّهم. فهذا كلام مَنْ يجهل اللّغة، فحرف الجرّ (مِن) يأتي على خمسة عشر وجهاً، أحدها بيان الجنس، فالحقّ أنَّ (مِن) في الآية بيانيّة للتّبيين لا للتّبعيض، فهي تبيّن أنّ جنس الصّحابة موعود بالمغفرة والأجر العظيم.

وإنْ احتجّوا بما رواه مسلم عن حذيفة، عن النَّبيِّ ﷺ، قـال:" فِي أَصْحَابِي

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص ٢١٥) كتاب الإمارة.

اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ"[1].

فالمعنى الَّذين يُنْسَبُون إلى صحبتي، ويتشبَّهون بأصحابي، فهو على المجاز، ولذلك احترز ﷺ، فقال :"فِي أَصْحَابِي" ولم يقل : (مِن أصحابي) أي يدخلون في زمرة الصَّحابة وليسوا منهم، وذلك مثل قولنا: إبليس كان في الملائكة وليس منهم، وهؤلاء كانوا اثني عشر منافقاً في الصَّحابة، ولا يصحّ أن يُقَال: كانوا منهم.

وكان حذيفة بن اليمان ﷺ قد خُصَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ هؤلاء المُنَافِقِينَ، فهو صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ.

واعلم أنَّ الله تعالى قد رفع قَدْرَ الصَّحابة، فجعل إيمانهم معياراً ومقياساً لمن يأتي مِنْ بعدهم، فقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ...﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

والآية في معناها أقوال أحدها: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، فقد اهتدوا، فبقدرِ القُربِ من إيمانهم ﷺ تكون الهِداية، وهكذا .

ذلك أنَّ الله ﷻ أخبر عن إيمانهم مقروناً بإيمان النَّبيِّ ﷺ، فقال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

واعلم أنَّ اللهَ تعالى أعلى شَأْنَهم، فأمر نبيَّه ﷺ بِخَفْضِ الجناح لهم، فقال لـه

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٧/ ص١٢٤) كتاب صفات المنافقين.

: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشّعراء]، وأمره بالدُّعاء لهم، فقال : ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التّوبة]، وأن يكون بهم حفيّاً فيبدأهم بالسَّلام، فقال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام]، وأن يصبر نفسه معهم، فقال : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ...﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف]. وأمره أن يعفو عنهم، وأن يستغفر لهم، وأن يشاورهم في الأمر، فقال له : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ...﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد علَّمنا الله تعالى العَفْوَ عنهم عمَّا كان منهم، فقد عفا سبحانه عن الَّذين تولّوا منهم يوم أُحد، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران].

فاعف عن زلّاتهم إن وجدت فهم بَشَر، واستغفر لهم، فجدير بالعفو مَنْ عفا الله تعالى عنه.

فإذا عرفت أنَّ الآيات تكاثرت في بيان فضلهم فلا عذر لك عند الله تعالى إذا وقعت فيهم، أو في أحد منهم، ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ...﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة].

واعلم أنَّ الله تعالى لم يأمر باتِّباع كتب التَّاريخ، وإنَّما قال لنبيِّه ﷺ : ﴿ ٱتَّبِعۡ

﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ...(١٠٦)﴾ [الأنعام].

وأمره أن يقول : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام]، وأمرنا الله تعالى بما أمر بـه نبيَّه ﷺ ، فقال : ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ... (٥٥)﴾ [الزّمر].

ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ لأصحابه في حَجَّة الوَدَاع :" وقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ : كِتَابَ الله . وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُـوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ، فَقَالَ ـ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ ـ : اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ"[1] .

قلت : وصدق الرَّسولُ ﷺ ، فقد ضَلَّ مِنْ بعده ﷺ مَنْ لم يعتصم بكتاب الله تعالى ، ومَن لم يَأْتَمَّ برسول الله ﷺ .

كذلك لم يأمر الله تعالى بالاكتفاء بتقليد الآباء والإعراض عمَّا أنزله، قَال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]، وللآية نظائر ذمَّ الله تعالى فيها تقليد مَنْ لا علم له ولا هدى، وذمّ فيها مَنْ لا غرض له في التّقى، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة]، وقال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٤/ ج٨/ ص١٨٤) كتاب الحجّ .

كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان]. وقال تعالى: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزّخرف].

لذلك تجد في التّنزيل مدح مَنْ لم يقلِّد مَنْ لا علم له، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزّمر].

ولم يأمر الله تعالى بالاستمساك بالرِّوايات الموضوعة، وإنّما قال جَلَّ جلاله لنبيِّه ﷺ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزّخرف]، والّذي أوحي إليه فيه ثناء وإطراء على الصّحابة الأجلّاء. هذا هو الحقّ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس].

واعلم أنّه مع صحّة هذه النُّصوص كُلِّها، وقطعية ثبوتها ودلالتها لا اعتبارَ لخلافِ مَنْ خالف أيّاً كان. ولا أدري كيف يضْرِب صَفْحاً عن هذه الأدلّة مَنْ شمَّ رائحة العلم! ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام].

تحذير النّبيِّ ﷺ من دعاة لا يهتدون بهداه ولا يستنون بسنته

أخبر الصَّادقُ الأمين ﷺ عن شرٍّ سيأتي مِنْ بعده، ثم يعقبه خَيْرٌ لكن فيه دَخَنٌ، أي ليس خيراً خالصاً ولا نقيّاً، بل فيه كدر يشوبُ صَفْوَه، ثمَّ يكون من بعد هذا الخير شرٌّ خَالِص.

أخرج البخاريّ عن أبي إِدْرِيس الْخَوْلاَنِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمانِ، يَقُولُ :" كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"[(١)].

وفي رواية مسلم :" يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاىَ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ..."[(٢)].

ولعلَّه ﷺ عنى بالشَّرِّ الأوَّل الفتن الَّتي وقعت بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، وعنى بالخير التَّحكيم (الصُّلح) الّذي جرى بين عليّ ومعاوية، أو عام الجماعة الَّذي تنازل فيه الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، واجتمعت فيه كلمة المسلمين، لكن لم يكن الخير خالصاً يومها لِخلاف مَنْ خَالفَ مِنَ الخوارج.

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٣) كتاب الفتن .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١٢/ ص٢٣٨) كتاب الإمارة .

أمَّا الشَّر الثَّاني، فقد صرَّحَ بِهِ ﷺ، وهو ظهورُ دُعَاةٍ على أبواب جهنَّم، على اعتبار ما يكون ويؤول إليه حالهم، وكان هذا بعد معاوية رضي الله عنه، ولعلَّهم الخوارج، وبعض أمراء الطَّوائف والفرق، وأئمَّة الجور، وعلماء السُّوء في ذلك الزَّمان.

وعلى هذا فكلُّ مَنْ دعا إلى ضلالة، أو دعا إلى غير سنَّة النَّبيِّ ﷺ والخلفاء الرّاشدين من بعده، أو هَدَى بغير هَدْي الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو من الدُّعاة على أبواب جهنَّم.

ويفهم من الحديث أنَّه إذا لم يكن للمسلمين جماعة تجمعهم ولا إمام يأمّهم، وكانوا فرقاً مختلفة متفرِّقة لا ريح فيها، فإنَّه يجب اعتزال هذه الفرق، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران].

ومن المعلوم أنَّ النُّصوص الشَّرعيَّة تأمر باتِّباع النَّبيِّ ﷺ، والأخذ بسنَّتة وعدم مخالفتها لما جاء من الوعيد الشَّديد في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال] وتأمر باتّباع سبيل المؤمنين (الصَّحابة رضي الله عنهم)، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النّساء].

واعلم أنَّ مَنْ لم يتَّبع سبيل المؤمنين اتَّبع غير سبيلهم، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النُّور].

واعلم أنَّه لا يقوم إيمانُ عَبْد يؤمن بالله إلَّا على شهادتين: شهادة التَّوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلَّا الله، وشهادة الاتِّباع، وهي شهادة أنَّ محمَّداً رسول الله.

وكلُّ مُتَّبَعٍ بعده ﷺ فإنَّما اتِّباعه فرعٌ لاتِّباع النَّبيِّ ﷺ، وخير متَّبعٍ ومُتَّبَعٍ بعد النَّبيِّ ﷺ أصحابه ﷺ، فاجهد في اتِّباع سبيلهم، واقتفاء أثرهم، وترسُّم خطاهم.

واعلم أنَّ هذه الفِرَق الَّتي ضربت خيامها ومدَّت أطنابها في كلِّ مكان لم تكن في عهد النَّبيِّ ﷺ على اختلاف أسمائها، فقد مات ﷺ والأمَّة جميع، كذلك عهد الشَّيخين ﷺ، والله تعالى يقول : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحجّ].

فأخبر الله تعالى أنَّه سمَّى أصحابَ النَّبيِّ ﷺ المسلمين مِن قَبْل القرآن وفي القرآن؛ لِمَا سَبَقَ في علمه أنَّه سيتَّخذهم شهداء على النَّاس يوم القيامة، فهم ورثة النَّبيِّ ﷺ في البلاغ وإقامة الحجج على النَّاس.

فإذا كان الله تعالى قد سمَّاهم المسلمين من قبل، وارتضى لهم هذا الاسم الجامع المانع، فلماذا نتسمَّى بكلِّ هذه الأسماء ؟! فإن قيل : حتَّى نميز أهل الحقِّ . قلنا : حَنانَيْكَ، هذا مقصد نبيل، لكن حَسْبنا ما سمَّانا الله تعالى. فإن قيل : فكيف نُعْرَف ؟ قلنا : نعرف بالمسلمين على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه ﷺ؛ فمفهوم كلمة المسلمين أشمل جمعاً، وأجمع شملاً .

والله تعالى أمَر باتِّباع الصِّراط المستقيم، ولم يأمُرْ باتِّباع السُّبل والفرق، فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ... ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

ولذلك نقرأ في صلاتنا : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ ...﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة] والَّذين أنعم الله تعالى عليهم وَرَدَ ذِكْرُهم في قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النِّساء] .

أخرج أحمد عن ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ :" خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خطّاً ، ثُمَّ قَالَ : هَذَا سَبِيلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ...﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] "(١).

وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من شرِّ أئمَّةِ الضَّلال، فقال ﷺ :" إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ "(٢) أي الزَّائغين المميلين عن الحقِّ، فإيَّاك أن تغترَّ بهم .

هذا وقد قال الله تعالى في أئمَّة الضَّلال : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص]، وقال في أئمَّة الهدى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الأنبياء] فحريّ بنا أن نفرِّق بينهم.

فالنَّجاة النَّجاة باتِّباع آثار الرَّسول ﷺ وسُنَنِه السَّنيَّة، والانتباهَ الانتباهَ مِن اتِّباع السُّبُل، وحَذَارَيْكَ مِنْ أصحاب الرَّأي والهوى، الَّذين على قلوبهم أكنَّة عن فقه الكتاب والسُّنَّة، قَالَ ﷺ :" إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِن الْعِبَادِ،

---

(١) أحمد " المسند " (ج٤/ ص١٥٥/ رقم٤١٤٢) وإسناده صحيح .

(٢) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٢٩٣/ رقم٢٢٢٩٣) وإسناده صحيح .

وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا"(١).

وإنَّنا نجد ذلك واقعاً في زماننا، لكن مع وجود مقابله، فالمراد استحكام الجهل في علم الكتاب والسُّنَّة، ودُرُوس العِلْم، وذَهَابُ العلماء.

وهذا الحديث الشَّريف قاله النَّبيُّ ﷺ في حَجَّة الوَدَاع، وفيه ذمٌّ للَّذين يُفْتُون برأيهم استكباراً وأنفة أن يقولوا لا نعلم، وذمُّ مَنْ يبادر ويسارع إلى الفتوى بغير علم، وفيه الحثُّ على طلب علم الكتاب والسُّنَّة وأخذه عن أهله، وفيه بيان فضل العلماء، وأنَّ ذهابهم نذيرُ شرٍّ، وفيه النَّهي عن اتّخاذ الجُهَّال رؤوساً وأئمَّة.

وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ مِن أشراط السَّاعة رفع العلم، وكثرة الجهل، وذلك بقبض العلماء، وغلبة السُّفهاء، قال ﷺ :"إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ..."(٢).

وأخرج البخاري عن مرداس مرفوعاً، قَال: قَالَ ﷺ :" يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ لَا يُبَالِيهِمْ اللهُ بَالَةً"(٣).

أي في آخر الزَّمان يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا ، وَيَفْنَى الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٣٤) كتاب العلم، وأخرجه في الاعتصام.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (م٣/ ج٦/ ص١٥٨) كتاب النّكاح .

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٧٤) كتاب الرّقاق . وأورده موقوفاً في المغازي(م٣/ ج٥/ ص٦٣) عَنْ قَيْسٍ بن أبي حازم أَنَّهُ سَمِعَ مِرْدَاسًا الْأَسْلَمِيَّ ، يَقُولُ : " يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ ، وَتَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِمْ شَيْئًا ".

فَالْأَوَّلُ، ويبقى مَنْ لا خَيْرَ فيه، ممَّن لا يَعْرِفُ معروفاً ولا ينكر منكراً، لا يرفع الله تعالى لهم قَدْراً، ولا يقيم لهم وزناً، ولا يعبأ بهم.

فاتَّبع الهدى باقتفاء أثر النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ، وانهض بحبِّ الصَّالحين؛ خشية أن تكون ممَّن لا يباليه الله تعالى بَالَةً، ولا يكترث به !

أعظم الكذب !

نهى الله تعالى عن الكذب وذمَّ أهله، فقال ﷻ : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الذَّاريات] ، وقال : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الجاثية] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النَّحل] .

والكذب أنواع ومراتب ودرجات، أعظمها الكَذِبُ على الله تعالى، ثمَّ الكذب على رسوله ﷺ ، ثمَّ على سائر الخلق بَدْءاً بالوالدين.

ومِنَ الكذب العظيم على الله تعالى القول عليه سبحانه بغير علم، قَال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

فذكر الله تعالى في هذه الآية المحرَّمات، وجعلها أربع مراتب، وبدأ بالأدنى ثمَّ الأعلى فالأعلى، وجعل القول عليه بغير علمٍ في الدَّرجة العليا منها، وهي : الفواحش، والإثم والبغي، والشِّرك، ثمَّ الأعظم تحريماً، وهو القول عليه ـ سبحانه ـ بغير علم، ويعمّ القول في آياته، وأسمائه، وصفاته، وشرعه، وأحكامه.

كما عَدَّ القول عليه ـ سبحانه ـ بغير علم من اتِّباع خُطُواتِ الشَّيطان، وأنَّ الشَّيطان يأمر به، فقال جَلاله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

ولذلك نهى الله تعالى عن القول عليه بغير علم، فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء]، فلا يحلُّ أن تقول سمعت ورأيت وعلمت، وأنت لم تسمع ولم ترَ ولم تعلم.

وقد جعل الله تعالى للكاذبين علامة يعرفون بها يوم القيامة، قال عَجَلّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ ...﴿٦٠﴾﴾[الزّمر].

أمَّا الكذب على رسُولِ الله ﷺ فليس ككَذِبٍ على أَحَد، فقد قَال ﷺ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ"(١).

وهذا الحديث متواتر لفظاً ومعنى، فقد جاء بهذا اللَّفظ عن بضعة وسبعين صحابياً، وفيهم العشرة المشهود لهم بالجنة، وجاء بالمعنى عن مائتين من الصحابة كما نقله النَّووي في المقدِّمة. أجارنا الله تعالى من ضلالات الهوى، وفتن المضلِّين، وأكاذيب المتقوِّلين.

فكم هم الَّذين جمعوا بين الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله ﷺ، واختلقوا الأباطيل والأضاليل، ووضعوا الحكايات والأخبار، وولَّدوا الرِّوايات والآثار، وأذاعوها بعد تهذيبها وتشذيبها، وأورثوا ما ابتدعوا، فيا وَيْحَهم حملوا إثماً

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م١/ ج٢/ ص٨١) كتاب الجنائز.

وظلماً عظيماً ! ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام].

واعلم أنَّ مَنْ يُحَدِّثُ عن رَسُولِ الله ﷺ بحديث يغلب على ظنِّه أنَّه كَذِبٌ، فهو كمتعمِّد الكذب عليه ﷺ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: " مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ "(١).

فإيَّاك إيَّاكَ أن تكون سمَّاعاً للكَذِبِ، أو راوياً أو خطيباً أو كاتباً أو ناقلاً أو محدِّثاً له. وأمْسِك لسانك عمَّا لا يُحتاج إليه، وعمَّا لا علم لك به، وتثبَّت مِن الأخبار والآثار، وكُنْ كالرِّياح الَّتي تمرُّ على الطِّيب فتحمل طيباً.

وإيَّاك كلما صَاحَ في الجوِّ نَاعِب ، أو نَاحَ شَاغِب أن تكون له تَبَعاً، فيضلّك ويفتنك، فإيَّاك وإيَّاه، فَمَنْ كان الدَّنِيء لَه دليلاً، فلا ريب أنَّه يسوقه إلى حَتْفِه، ويصيِّره على نمطه، ويخرطه في سَفَطِه، ولله القائل :

وَمَـنْ يَكنِ الغـرابُ لـه دليلاً ... يمـرُّ بـهِ على جِيَفِ الكِلابِ

فكم من "طبيب يداوي النَّاسَ وهو عليل" كما قال أبو العتاهية:

تَدُلُّ على التَّقوى وأنت مُقَصِّـرٌ ... أيا مَـنْ يُدَاوِي النَّاسَ وهو سَقِيمُ

إثم من دعا إلى ضلالة أو سنّ سنة سيّئة

واحذر أن تدعو إلى ضَلالةٍ مِنْ حيث تعلم أو لا تعلم، فما مِنْ أَحَدٍ دَعَا إلى ضلالة أو غيّ أو بدعة، أو أحدث في الدِّين أمراً ليس مِنْه، إلَّا كان عليه مِثْلُ آثام تابعيه إلى يـوم القيامـة ، سواء كان مبتدئاً لهذه الضَّلالة أو البدعة أو مسبوقاً إليـها،

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج١/ ص٦٢) المقدّمة.

وسواء كانت هذه الضَّلالة علماً، أو عبادةً، أو اعتقاداً، أو خُلُقاً.

فلا تسنَّ شرّاً، فتحمل ذنوبك وذنوب مَنْ استنَّ بك إلى يوم القيامة، ولا ينقص ذلك من آثامهم ولا يخفف عمَّن أطاعهم شيئاً، ويشهد لذلك قولـه تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النَّحل] وقوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

ويشهد لذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ: " وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"(١)، وقوله ﷺ: "وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بها، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"(٢). فَمِن النَّاس مَنْ يموت ولا يموت وزره!

واعلم أنَّ مَنْ دعا إلى غير سُنَّة النَّبيِّ ﷺ أو هدى بغير هديه فكأنَّما يبارز النَّبيَّ ﷺ بالعداوة، لأنَّه قطع عن النَّبيِّ ﷺ وصولَ ثَواب مَن استنَّ بسنَّته إليه، فاحذر أن تكون داعياً لضلالة، أو باعثاً لفتنة.

موعظة النبيّ ﷺ الّتي ذرفَتْ مِنهَا العُيُونُ ووَجِلَتْ مِنهَا القُلُوبُ!

أخرج أحمد مِـن حديث عَبْد الرَّحْمَنِ بْن عَمْرٍو، وَحُجْر بن حُجْرٍ، قَالَا: " أَتَيْنَا العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٢٢٧) كتاب العلم.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٨/ ص٢٢٧) كتاب العلم.

لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ ...﴿٩٢﴾ [التَّوبة] فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا : أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ، وَعَائِدِينَ، وَمُقْتَبِسِينَ. فَقَالَ عِرْبَاضٌ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟!

فَقَالَ : أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِياً، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي، فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ فَتَمَسَّكُوا بها، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ "[1].

هذه وصيَّة جامعة مانعة، أوصى فيها النَّبيُّ ﷺ بتقوى الله تعالى، وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين، وأوصى بالسَّمع والطَّاعة لولاة الأمر حرصاً على جمع الكلمة، وَذَمَّ الاختلاف وأهله، وحذَّر مِنْ سلوك سبيلهم، وأرشد إلى المخرج عند الاختلاف والتَّنازع، وهو لزوم سنَّته ﷺ وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين مِنْ بعده، وَقَرَنَ سنَّتَهم بسنَّتِهِ، وأشار ﷺ إلى أنَّ سنَّتهم ترجع إلى سنَّته وتنهل من معينها، فقد أفرد الضَّمير في قوله : "فَتَمَسَّكُوا بها"، وبالغ في الحضِّ على التَّمسُّك بها حتَّى أَمَرَ بالعضِّ عليها بالنَّواجذ، كناية عن شدَّة التَّمسُّك بها على فهم السَّلف، وحذَّر ﷺ من محدثات الأمور، ومضلَّات الهوى.

والحديث من أعلام النُّبوَّة؛ فقد أخبر ﷺ بما يقع بعده في أمَّته، ووقع الأمر

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٣/ ص٢٨٠/ رقم١٧٠٨٠) وإسناده صحيح .

كما أخبر. ولذلك تجد أبعد النَّاس عن الاختلاف أهل الحديث والسُّنَّة؛ لما أقَاموا على هذا الأصل، وتجد أكثر النَّاس اختلافاً وفُرْقَةً أبعدهم عن الكتاب والسُّنَّة وآثار سلف هذه الأمَّة، ولا عجب؛ فمن رَدَّ الحقَّ تخبَّط في خَطْبٍ مَرِيج، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾ [ق].

قلت : والعرباض بن سارية ﷺ الَّذي حدَّث بهذا الحديث هو أحد أَعْيَان أهل الصَّفَّة[1]، وأحد البكّائين، الَّذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢ ﴾ [التَّوبة] ولو لم يكن له ﷺ مِنْ فَضْل إلَّا نزول هذه الآية لكانت أدلَّ دليل على عَظِيم فَضْلِهِ وفضل الصَّحابة الَّذين نزلت فيهم الآية.

فكيف يجرؤ أحد على أصحاب رسُولِ الله ﷺ بالقَدْح بعد أن نزلت فيهم الآياتُ بالتَّقريظ والمدح ؟!

---

(١) هم فُقراء المهاجرين ممّن لم يكن له منزل يسكنه ، فكانوا يَأْوُون إلى موضع مُظَلَّل في مسجد المدينة يسكنونه، والصّفّة : الظّلّة .

القسم السّابع
الاختلاف

فقه الخلاف في حياة الصّحابة ﷺ

أكثر ما يوهِن العزم، ويضْعِف القوم، ويمكّن مِن الرِّقاب الخصم، الخلافُ غير السائغ، لما يترتَّب عليه مِنْ أمور وشرور. ومع أنَّ الإسلام أدعى الأديان للوحدة، إلّا أنَّ أهله الأشدُّ اختلافاً وتفرّقاً، كما قال القائِل :

بَحَثْتُ عَن الأَدْيَانِ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا وَجُبْتُ بِلادَ الله غَرْبــاً وَمَشْرِقَــا
فَلَمْ أَرَ كَالإِسْــلامِ أَدْعَى لأُلْفَـــةٍ ولا مِثْلَ أَهْلِيــهِ أَشَـدَّ تَفَرُّقَــا

وما أوقع كثيراً مِنَ المسلمين بهذا الواقع الأليم إلّا جهلهم العظيم بفقه الكتاب والسُّنَّة، فقد نظرت في الدَّاء العَيَاء الّذي أوهن الأمَّة لأَصِفَ الدَّواء وأَحْسِمَ البلاء، فوجدت أكثر النَّاس يقدِّمون القول والعمل على العلم، وهذا يجعل بينهم عقبات وأيّ عقبات؛ فحيث كانت الأقوال والأفعال عن غير عِلْم كان البلاءُ حاضراً.

ولا ريب أنَّ العلم قبل القول والعمل، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...(١٩) ﴾ [محمّد] فبدأ بالعلم، فاعلم .

وإنَّك ترى انشغال أكثر النّاس بالأعمال المفضولة عن الفاضلة، وبالأقوال المرجوحة عن الرّاجحة، وبالفضائل عن المسائل، وبالجدل عن مغيّبات العِلَل، ومدار ذلك على ملابسة القول والعمل قبل العلم، وهذا من جهل فقه الأولويّات.

ولذلك تجد كثيراً مِنَ النَّاس لا يدري كيف يختار خير الخيرين ، ولا كيف

يدفع شرّ الشَّرّين، ولا يميز بين الفرض والنّدب، والأصل والفرع، ولا يدري الآثار الموقوفة من المرفوعة، ولا يفرّق بين الغثِّ والسَّمين واليسار واليمين.

ولا يمكن للمسلم أن يتخطَّى مجاهل هذه المسائل إلَّا بفقه أحكام الشّريعة العمليَّة من أَدلَّتها التَّفصيليَّة المتلقَّاة عن خير البريَّة ﷺ، كالواجب، والمندوب، والمباح، والمحظور، والمكروه، والصحيح، والباطل ...أي أن يتفقَّه في الدِّين.

والفقه أنواع : فقه الكتاب، وفقه السُّنَّة، وفقه مراتب الأعمال وتفاضلها، والفقه المذهبي، وفقه اللغة، وفقه السُّنن الكونيّة، وفقه الواقع، وفقه الخلاف.

ورأس هذه الأنواع وذروة سنامها فقه الكتاب والسُّنَّة؛ لأنّ الفقه في كثير من المسائل يكون واجباً عينيّاً، أمّا الأنواع الأخرى فمعرفتها واجب كفائيّ.

وقد بيّن النَّبيُّ ﷺ فَضْلَ التَّفَقُّهِ وأمر بِهِ وحثَّ عَلَيْهِ ورغَّب فِيهِ، فقال ﷺ: "مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"(١)، وقال ﷺ :" فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا"(٢) .

وإلى ذلك دعا الله تعالى أصحابَ النَّبيِّ ﷺ، فقال ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التّوبة] .

وضَرَرُ الجهل بمسائل الفقه أشدُّ مِن ضَرَرِ الجهل بغيرها، ويزداد فيه إذا لم يرجع إلى أهل العلم، وقصَّـة صاحب الشَّجَّة معلومَـة ، روى أحمد عن ابن عَبَّاسٍ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٢٥) كتاب العلم .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٢٠) كتاب أحاديث الأنبياء.

يُخْبِرُ : أَنَّ رَجُلًا أَصَابَهُ جُرْحٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ أَصَابَهُ احْتِلامٌ، فَأُمِرَ بِالاغْتِسَالِ، فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ:" قَتَلُوهُ قَتَلَهُم اللهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ"(١). فجعل الجهل مَرَضاً وشفاءَه سؤال أهل الذِّكر.

وأنواع الفقه الأخرى لا تقلُّ أهميَّة عن فقه الكتاب والسُّنَّة، ومن ضروريَّاتها فقه الخلاف؛ نظراً لحاجة الأمّة إليه خاصّة في هذا الزَّمان.

ومَنْ نظر في حياة الصَّحابة أعلام الدِّين وقدوة المتأخِّرين بعد الصَّادق الأمين ﷺ، وجد أنَّه وَقَعَ بينهم خلاف في مسائِل الاجتهاد، إلّا أنَّ أحداً منهم لم يشنِّع على الآخر، وإنَّما كانوا الأكثر إعذاراً وقبولاً للحقِّ، وآية ذلك استدراك عائشة على الصَّحابة ﷺ، وإقرارهم لها في مسائل ومخالفتهم لها في مسائل أخرى.

وَثَمَّةَ اختلافات وقعت بين الصّحابة ﷺ في عهد النَّبيِّ ﷺ إلّا أنّها لم تفرّق بينهم، منها ما حدث يَوْمَ الأحزاب لِمَنْ صَلَّى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا، وَلِمَنْ أَخَّرَهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ، قال ﷺ :" لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ. فَأَدْرَكَ بَعْضُهُم الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ نُصَلِّي؛ لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ"(٢).

فقد أَخَذَ بعضهم بظاهر كلامه ﷺ وأخَّر الصَّلاة حتَّى يأتي بني قريظة، وبعضهم فَهِمَ أنَّه ﷺ أراد منهم الجدّ والاجتهاد، فبادر إلى الصَّلاة في وقتها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النّساء].

---

(١) أحمد "المسند" (ج٣/ ص٣٢٨/ رقم٣٠٥٧) وإسناده صحيح .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص٥٠) كتاب المغازي .

ولم يُعَنِّفْ ﷺ وَاحِدًا مِنْهُمْ دلالة على أنَّ الاختلاف في الاجتهاد معتبر.

أدب الخلاف بين الصَّحابة ﷺ

رغم ما وقع بين الصَّحابة ﷺ من خلاف في الأحكام إلَّا أنَّ ذلك لم يؤثِّر في سلامة قلوبهم، فهذا ابن عبَّاس ﷺ يختلف مع شيخه زيد بن ثابت ﷺ في مسألة : هل الجدّ يحجب الإخوة؟

وكان زيد بن ثابت ﷺ (كاتب الوحي وأحد الرَّاسخين في العلم) يرى توريث الإخوة مع الجدّ، أمَّا ابن عبَّاس ﷺ (حَبْر الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَان القُرآنِ) فقد جعل الجدّ يحجب الإخوة واستدلّ بالقياس، قال:" لِيَتَّقِ الله زَيْدٌ؛ أَيَجْعَلُ وَلَدَ الْوَلَدِ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ، وَلَا يَجْعَلُ أَبَا الْأَبِ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ؟!"(١).

فأنكر عليه أنَّه يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً، ومقتضى كلامه أنَّ ابن الابن طالما أنَّه يحجب الإخوة، فكذلك ينبغي للجدّ أن يحجب الإخوة.

ومع هذا صحَّ أنَّ زيد بن ثابت ذهب ليركَبَ، فأخذ ابْنُ عَبَّاسٍ بِرِكَابِ زَيْدٍ، فَقَالَ لَهُ : " تَنَحَّ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: إِنَّا هَكَذَا نَفْعَلُ بِكُبَرَائِنَا وَعُلَمَائِنَا"(٢).

فانظر كيف كان الصَّحابة ﷺ يجتهدون ويختلفون في مسائل عظيمة ، ولا

---

(١) ذكره ابن عبد البرّ في "جامع بيان العلم " (ج٨/ ص٩٦٨/ رقم١٨٤٥) دون سند .

(٢) الحاكم "المستدرك" (م٣/ ص٤٢٣) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ، وسكت عنه الذّهبي. وصحّحه الحافظ في "الإصابة" (م٢/ ج٣/ ص٢٣/ رقم٢٨٧٤) من طريق يعقوب بن سفيان، عن الشّعبي.

تختلف قلوبهم ولا تضيق صدورهم ! فما بال أقوام تختلف قلوبهم قبل أن يختلفوا، ويختلفون على ماذا ؟! لا يختلفون على معالي الأمور، وإنَّما على سَفْسَفِها، ولا تتصافح قلوبهم مهما طال الزَّمان وكرَّ الجديدان، ولا يدرون أنَّ وراء هذه الدَّار داراً، قَال الله تعالى فيها : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر].

كره الصَّحابة ﷺ للخلاف

ممَّا ورد في كراهة الصَّحابة ﷺ للخلاف ورجوعهم عنه حتَّى في مسائل الاجتهاد؛ حرصاً على وحدة الكلمة، ما أخرجه البخاريّ عن عَلِيٍّ ﷺ، قال : "اقْضُوا كَمَا كُنْتُمْ تَقْضُونَ، فَإِنِّي أَكْرَهُ الِاخْتِلَافَ حَتَّى يَكُونَ لِلنَّاسِ جَمَاعَةٌ، أَوْ أَمُوتَ كَمَا مَاتَ أَصْحَابِي"(١).

هذا وقد ظلَّ الخلافُ بين الصَّحابة ﷺ لا يراد به غير الحقّ، حتَّى جاء مِن بعدهم خلف اشتغلوا بخلافهم لمآرب أخرى، ولم تنفعهم تبصرة ولا ذكرى .

فقه الخلاف في النوازل

تسمحُ لنا النَّوازلُ في الاختلاف بشرط أَنْ تكونَ مِن المسائل الَّتي يَسُوغُ النَّظر فيها ويتَّسع الاجتهادُ معها، ولا يجوز أنْ تفتحَ هذه النَّوازلُ بَابَ الشِّقَاقِ والمنابَذَةِ بين المسلمين .

وفي صحيح البخاريّ قصَّـةٌ تبيِّن فِقْـه الخلاف في النَّوازل كيـف كان أيَّـام

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٠٨) كتاب فضائل الصَّحابة .

الصَّحابة ﷺ، فقد التقى ثلاثة مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ أحدهم كان يدعو للخليفة عليٍّ ﷺ وينصره، وهو عمَّار ﷺ، والآخران كانا قد اعتزلا الفتن، وهما : أبو موسى الأشعريّ ﷺ، وأبو مسعود البدريّ (عقبة بن عمرو الأنصاريّ)، وكان عليّ بن أبي طالب ﷺ قد أَرْسَلَ عمَّار بن ياسر إلى أَهْلِ الكوفة يَسْتَنْفِرُهُمْ للخروج معه إلى البصرة، وملاقاة أمِّهم أمِّ المؤمنين عائشة ﷺ، لتأْمِين عودتها إلى المدينة.

فلمَّا اجتمعا عَابا عليه إِسراعه في الوقوف مع عليّ ﷺ وملابسة الفتن، وعاب عليهما إِبْطَاءَهمَا واعتزالهما، ثمَّ قام أبو مسعود وكان موسِراً وأمر غلامه أن يأتي بحلَّتين، فأعطى إحداهما أبا موسى، والأخرى عمَّاراً !

فانظر إلى هذا الخلاف، انظر كيف يختلفون وَيَتَهَادُونَ! يختلفون في النَّوازل ومع هذا يتهادون، ويعرفون للأخوَّة حرمتها ومعناها، يختلفون ولا يورث الخلاف بينهم العداوة والبغضاء والفرقة.

وهذا هو واجب المسلمين اليوم عند الاختلاف، عليهم أن يتعلَّموا أدب الاختلاف، وفقه الاختلاف في النَّوازل، وكيف كان الاختلاف في الاجتهاد والانتصار للرّأي لا يؤثِّر في سلامة القلوب وائتلافها، ولا يشغلهم عن ما يجب عليهم شرعاً، مِنْ قَوْلِ الحقِّ والتَّواصي به والصَّبر عليه، وبذل النَّصيحة، وحسن الظَّنِّ، والرِّفق ولين الجناح، وعدم القطيعة والتَّنازع.

روى البخاري عن عمرو، قال : سمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ يَقُولُ :"دَخَلَ أَبو مُوسَى وَأَبو مَسْعُودٍ عَلَى عَمَّارٍ حَيْثُ بَعَثَهُ عَلِيٌّ إِلَى أَهْلِ الكُوفَةِ يَسْتَنْفِرُهُمْ ، فَقَالَا : مَا رَأَيْنَاكَ أَتَيْتَ أَمْراً أَكْرَهَ عِنْدَنَا مِن إِسْرَاعِكَ فِي هَذَا الأَمْرِ مُنْذُ أَسْلَمْتَ، فَقَالَ عَمَّارٌ : مَا رَأَيْتُ

مِنكُمَا مُنْذُ أَسْلَمْتُمَا أَمْراً أَكْرَهَ عِنْدِي مِن إِبْطَائِكُمَا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَكَسَاهُمَا حُلَّةً حُلَّةً، ثُمَّ رَاحُوا إِلَى المسْجِدِ"(١).

إنَّ فقه النَّوازل المعاصرة أحوج ما نكون إليه اليوم، ومع هذا تناساه كثير مِنَ النَّاس! فما أشدَّ حاجتنا إلى فقهاء مجتهدين ! يفهمون النَّوازل أصولها وفروعها، ظاهرها وباطنها، جليَّها وخفيَّها، ويفقهون الواقع، والواجب فيه، ويقدِّرون المصالح والمفاسد في الحال والمآل، ويستنبطون الأحكام من الكتاب والسُّنَّة، ومِن قياس هذه النَّوازل على ما يماثلها، ليدلّوا العباد إلى طريق الرَّشاد، ومقاصد السَّداد.

أنواع الاختلاف

الاختلاف في الأصل نوعان: اختلاف تنوّع، واختلاف تضادّ. واختلاف التَّنوُّع محمود، كالاختلاف في وجوه القراءات والتَّفسير الَّذي ليس عليه إجماع وغير ذلك من الخلاف المعتبر الَّذي ينبني على الدَّليل، وهو ما وقع به بعض الصَّحابة ﷺ، كما في القراءات الَّتي اختلفوا فيها حتَّى زَجَرَهُم النَّبيُّ ﷺ ، قَال ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ : " سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ خِلَافَهَا ؛ فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، وَقَالَ : كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلَا تَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا، فَهَلَكُوا"(٢).

فمن قوله ﷺ :" كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ "يفهم أنَّ اختلاف التَّنوُّع معتبر، ومِن تتمَّة

---

(١) البخاري "صحيح البخاريّ" (م٤/ ج٨/ ص٩٨) كتاب الفتن .

(٢) البخاري "صحيح البخاريّ" (م٢/ ج٤/ ص١٥١) كتاب الأنبياء .

قوله ﷺ يفهم أنَّ الاختلاف أيّاً كان يُذمُّ إذا صَحِبه بغيٌ، لأنَّه يفضي إلى الهلاك.

وكاختلافهم في قطع الأشجار، فقد قطع قوم وترك آخرون، قال تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ...۝٥ ﴾[الحشر].

ومنه اختلاف أنظار الفقهاء فيما اجتهدوا فيه من فروع الأحكام، وفضائل السُّنن، ومسائل الفقه المعتبرة، وفي هذا الخلاف قال رشيد رضا :" نتعاون فيما اتَّفقنا عليه، ويعذرُ بعضُنا بعضاً فيما اختلفنا فيه".

فالاختلاف في الاجتهاد معتبر، ولذلك قال ﷺ :" إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ "[(1)].

وما شجر بين الصَّحابة رضي الله عنهم بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه من هذا النَّوع، فقد اجتهدوا وسعهم، وَسَعوا بين أَجْر وأَجْرين، فَمَنْ أَصَابَ منهم فله أجران : أجر باجتهاده، وأجر بإصابته، ومَنْ أخطأ فله أجر على جهده في الاجتهاد، وحسن نيَّته.

ويدلّك على أنَّه اختلاف تنوّع أنَّك تجد أصحاب النَّبيِّ ﷺ اختلفوا ولم يتفرَّقوا، ولم يصيروا شيعاً، ولم يكن بينهم عداوة ولا قطيعة، ولم يكن قتالهم يوم الجمل مقصوداً، وإنَّما كان قدراً مقدوراً .

أمَّا اختلاف التَّضاد، فهو اختلاف حقيقيّ مَذْمُوم لا يأتي بخير، وهو اختلاف في الأصول والاعتقاد والتَّأويل ومسائل الإجماع، وغالباً ما يؤول إلى الخصومة والعداوة والافتراق، ويؤدِّي إلى التَّناحر والشِّقاق.

---

(١) البخاري "صحيح البخاريّ" (م٤/ ج٨/ ص١٥٧) كتاب الاعتصام.

وقد أمضى الله تعالى علينا الاختلاف قدراً، فقال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ [1]... ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود].

والاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ أخرج الله عَزَّ وَجَلَّ به أَهْلَ الرَّحمةِ من الاختلاف وَمَدَحهم، ومقتضى مَدْحِهم ذمُّ أهل الاختلاف. لكنَّ هذا الاختلاف اختلافٌ كونيّ وليس اختلافاً شرعيّاً، فنحن مأمورون بدفعه شرعاً.

النهي عن الاختلاف والأمر بالاجتماع أصلان عظيمان في القرآن

ذمَّ الله تعالى الاختلاف في كتابه، ونهى عن التَّفرُّقِ، وتهدَّد وتوعَّد مَنْ فَارَقَ جماعة المسلمين، وقصَّ علينا خبر أقوام تفرَّقوا واختلفوا لِنَعْتَبِرَ وَنَنْزَجِرَ عن مثل سبيلهم، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ...﴿١٥٩﴾ ﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرّوم]، وقال تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون].

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يذكِّر بقول النَّبيِّ ﷺ :"كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٢١٥) كتاب التّوحيد.

كما أخبرنا الله تعالى عمَّن قبلنا أنَّ اختلافهم وسبب هلاكهم لم يكن مِنْ قِلَّة عِلْم، ولكن بَغَى بعضهم على بعض، قَال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ...﴿١٧﴾ ﴾ [الجاثية] .

أي أنَّ الاختلاف والتَّفرُّق مصدره سوء النِّيَّة وفساد الطَّوِيَّة ورداءة السَّجيَّة في كثير من الأمر، ولا عجب؛ فالإنسان ظلوم جهول، وكم من نفوس ابتليت بالحسد والبغي والفساد والعلوّ في الأرض... فهل نَرِثُ أخلاقَ أقوامٍ بقيت قصصهم شاهدة عليهم؟! ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النّازعات].

وقد نبَّه النَّبيُّ ﷺ على ما يخاف على أمَّته مِنْ موافقة الأمم قبلها فيما اختلفوا فيه، حتَّى لا نخوض كالَّذي خاضوا، فنهلك كما هلكوا، روى أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ :

" لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِساً مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً (نَاحِية)، إِذْ ذَكَرُوا آيةً مِن القُرآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُغْضَبًا قَد احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ : مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَت الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِم الكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ القُرآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضاً، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ"(١) .

---

(١) أحمد "المسند" (ج٦/ ص٢٥٢/ رقم٦٧٠٢) وإسناده صحيح .

فالنَّبيُّ ﷺ نهى أمَّته عن الاختلاف، لأنَّ مَنْ قبلنا هلك بأشباه هذا : ضربوا كتاب الله بعضه ببعض. وفي مثل هذا جاء قوله ﷺ :" قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً "(١).

وفي قوله ﷺ كناية عن تمام بيانه، حيث لم يترك حجَّة بعده يستطيع أحد أن يأتي بها أو برهان، وفيه تحذير من الاختلاف.

ولا يخفى خطر الاختلاف والشِّقاق، فهو يوهن الأمَّة، ويذهب بهيبتها، ويزري بها عند أعدائها. وانظر كيف جعل الله تعالى التَّنازع بين المسلمين من أهمِّ أسباب فشلهم ، فقال :﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ ...﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] .

دلالة عطف النهي على الأمر

والنَّهي عن التَّفرُّق في الإسلام، يوجب الاجتماع والوئام؛ لأنَّ مقتضى النَّهي عن الخلاف والافتراق الأمْرُ بالوفَاقِ والاتِّفاق، ولذلك تجد في القرآن الكريم الأمر بالاعتصام والنَّهي عن التَّشقُّق والخصام، قَال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ...﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] .

وجاء الخِطَاب بعطف النَّهي (ولا تفرَّقوا) على الأمْر (واعتصموا) والغرض توكيد الأمر بالنَّهي، فالأمَّة منهيَّة عن التَّفرُّق مهما كان قليلاً ، لأنَّ ذلك يوهنها ويعصف بها.

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٣/ ص٢٧٨/ رقم١٧٠٧٧) وإسناده صحيح .

وأسلوب الخطاب هذا معلوم، ومنه قوله ﷺ :" يَسِّروا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا"(١) فقد عطف النَّهي عن التَّعسير على الأمر بالتَّيسير، وعطف النَّهي عن التَّنفير على الأمر بالتَّسكين، للإشعار بأنَّ الأمَّة منهيَّة عن أدنى تعسير وأقلِّ تنفير .

هذا وقد أُمِرْنا عند التَّنازع بالرّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، ولم نُؤْمَر بالافتراق والشّغب والتَّشْغيب وتهييج الشَّرّ، قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...۝٥٩ ﴾ [النِّساء].

إخبار النبيّ ﷺ عن افتراق أمّته والتنصيص على وحدتها

أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ أمَّة الإجابة سيصيبها ما أصاب الأمم السَّابقة من التَّفرُّق بعد الاجتماع، قَالَ النَّبيُّ ﷺ :"افْتَرَقَت اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً "(٢).

وهذا لا يؤثّر في وحدة المسلمين، فإنَّما ذكر النَّبيُّ ﷺ ذلك ليحذِّر من الافتراق، لما يترتَّب عليه من الفساد والضَّعف والهوان، وضياع أخوَّة الإيمان، ونقض عرى الإسلام .

كما بيَّن الله تعالى في كتابه أنَّ عامَّة المفترقين المخالفين هَلْكَى بعد أن تبيَّن لهم الهدى، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٠١) كتاب الأدب .

(٢) أحمد "المسند"(ج٨/ ص٣٠١/ رقم٨٣٧٧) وإسناده صحيح .

سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النِّساء] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال] .

هذا وقد جاء التَّنصيصُ على وحدة الأمَّة في الكتاب والسّنّة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون].

وقال النَّبيُّ ﷺ :"عَلَيْكُم بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُم وَالفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَم الجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ المُؤْمِنُ"(١).

وقال النَّبيُّ ﷺ :"إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ : أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ : قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ"(٢).

والأمر بالوحدة والاعتصام بحبل الله لم يُنْسَخ، بل هو تكليف قائم إلى قيام السَّاعة، ومصير الوحدة معلّق بأعناقنا جميعاً، فعلى النَّاس القيام بواجبات الوحدة.

---

(١) التّرمذي "سنن التّرمذي" (ج٤/ ص٤٦٥) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النَّووي" (م٦/ ج١٢/ ص١١) كتاب الحدود.

التعصّب إلى الفرق يزيد من الفرقة

لا ريب أنَّ كثرة الفرق والجماعات والتَّعصُّب لها يزيد مِنْ فرقة المسلمين ويعمل على تمزيق الصَّف، وضعف الأمَّة وهوانها، ويجعل أمْرَها إلى بَوَار. فإذا قيل : لكن الجماعات كانت في عهد النَّبيِّ ﷺ فلها أَصْلٌ في الإسلام، فهناك المهاجرون، والأنصار، والأشعريّون، وأهل الصّفّة، وأهل بدر، وأصحاب الشَّجرة (أهل بيعة الرّضوان)، وأصحاب الحديبية، والطّلقاء، والعتقاء ؟!

قلنا : فإذا كانت الجماعات في زماننا على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه ﷺ، فَنِعِمَّا هي. ونحن لا نجهل أنَّ في تاريخنا التَّعدُّد والتَّنوّع فهناك : الشَّافعيّة، والحنابلة، والمالكيّة، والحنفيّة، ولا نجهل أنَّ الله تعالى سمَّى مِنْ أصحاب النَّبيِّ ﷺ المهاجرين والأنصار والأعراب... لِحكَم، منها: تشريفهم، والثَّناء عليهم، وبيان فضلهم، وغرر خصائصهم، وطيب مغارسهم، ومكارم أخلاقهم، وكَرَم نِجَارهم، والدَّعوة إلى الاقتداء بهم، وغير ذلك، فهي تسميات مشروعة، ولكن إذا تُعُصِّب لها تصبح مردودة .

أخرج البخاري عن جَابِر بْن عَبْد الله رضي الله عنهما، قَالَ : " كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ (ضربه بيده) رَجُلٌ مِن الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِن الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنصَارِيُّ : يَا لَلْأَنصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ : مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟! قَالُوا : يَا رَسُولَ الله، كَسَعَ رَجُلٌ مِن الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِن الْأَنْصَارِ، فَقَالَ : دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"(1). ونحن نقول لمن يتعصَّب لجماعته مَا قاله ﷺ : " دَعُوهَا؛

---

(1) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص٦٥) كتاب التّفسير .

فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ".

والصَّحابة رضي الله عنهم وإن اختلفت تسمياتهم لم يكونوا فرقاً وجماعات، وإنَّما كانوا أمَّةً واحدة، وكانوا خير أمَّة وأكرمها على الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] وعقيدتهم واحدة، وقلوبُهم على قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لا شحناءَ بينهم ولا بغضاء، اجتمعت قلوبهم وإن تفرَّقت ديارهُم، فَهُم مِن أهل الرَّحمة الَّذين استثنى الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ...﴿١١٩﴾﴾ [هود].

وقد سمَّاهم الله تعالى جميعاً المسلمين: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ...﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ]، وسمَّاهم المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴿١٠﴾﴾ [الحجرات]، فانظر كيف جمعهم بالإسلام وأخوَّة الإيمان.

وفي التَّنزيل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصّلت] فلا أحد أحسن قولاً وعملاً ودرجة عند الله ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال إنَّه مُسْلِمٌ مِن المسلمين، لا مِن جماعة كذا وكذا.

والولاء والبراء لا يعني أن نوالي جماعة ونتبرَّأ مِنَ الجماعات الأخرى، بل الولاء أن نوالي الله تعالى، ورسوله ﷺ، والذّين آمنوا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴿٥٥﴾﴾ [المائدة]. وعن عَمْرو بن العَاص، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جِهَاراً غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: " أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي، يَعْنِي فُلَانًا، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا

وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"[1].

والبراء يكون من الكافرين، قَال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التّوبة].

وكتاب الله تعالى فِيه النَّهي عن التَّحزُّب في الدِّين إلى فرق مختلفة المشارب والموارد، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ...﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وقسَّم الله تعالى النَّاس إلى حزبين حصراً : حزب الله، وحزب الشَّيطان. أمَّا حزب الله فهم الَّذين يوالون الله تعالى ورسوله ﷺ والَّذين آمنوا، ولذلك امتدحهم الله تعالى وأكَّد نصرهم في الدُّنيا، فقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة] ، كما أكَّد فلاحهم في الآخرة، فقال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

أمَّا حزب الشَّيطان، فهم الَّذين اجتمعوا على معصية الله تعالى مِن أهل الأهواء والآراء وأصحاب الملل والنِّحل، ولذلك ذمَّهم الله تعالى وأكَّد خسارتهم

---

(١) متَّفق عليه : البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص٧٣) كتاب الأدب. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (م٢/ ج٣/ ص٨٧) كتاب الإيمان ، واللّفظ لمسلم.

في الدُّنيا والآخرة، فقال تعالى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة] .

فكيف نتحزَّب أحزاباً مختلفة المشارب والموارد ونذهب شَذَرَ مَذَرَ، وحزب الله تعالى واحد ؟!

وإنَّما نقول هذا ـ وهو أمر معلوم ـ مِن باب التَّذكير استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذَّاريات] فالمؤمن إذا ذُكِّرَ تَذَكَّر، وإذا رُغِّبَ رَغِبَ، فاتَّبع أحسن ما أنزل الله، وأبشر بخير : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ...﴿١٨﴾ ﴾ [الزّمر].

وإيَّاك أن تكون مِن أهل الاختلاف، ودعاة الفُرْقة، ممَّن اتَّبعوا السُّبل، وكدَّروا صفو الأخوَّة الإيمانيَّة. واتَّبع سبيل الرَّسول الكريم ﷺ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ...﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] فهو خير سلف لنا، وفي الصَّحيحين عن عائشة أنَّه ﷺ قال لابنته فاطمة رضي الله عنها لَمَّا رأى أجله قد اقترب : " فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أنا لَكِ"(١).

واعلم أنَّ سبيل الرَّسول هو سبيل المؤمنين، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النِّساء].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٤٢) كتاب الاستئذان ، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٦) كتاب فضائل الصَّحابة.

المسلم وليُّ المسلم، ناصِرٌ له في الحقِّ ولو بالدُّعاء، لا يخذله ولا يظلمه مهما شَجَرَ بينهما، أخرج ابن أبي الدُّنيا بسند صحيح عن شعبة، عن يحيى بن الحصين، قال : سمعت طارقاً، قال : " كان بين سعد رضي الله عنه وخالد رضي الله عنه كلام، فَذَهَبَ رجل يَقَعُ في خالد عند سَعْد، فقال سعد رضي الله عنه : مَهْ[1]، إنَّ ما بيننا لم يَبْلُغْ دِينَنَا "[2].

فانظر كيف يذبُّ سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه عن خالد بن الوليد رضي الله عنه مع أنَّه كان بينهما خلاف؛ فقد تربَّى في مدرسة الرَّحمة المهداة والنِّعمة المسداة، في مدرسة النَّبيِّ ﷺ ، القائل : " مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغِيبَةِ ، كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يُعْتِقَهُ مِن النَّارِ"[3] وقرأ فيها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ...﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات].

فالصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يتعايشون بالدِّين، ولذلك تراهم لم يُنْفِقُوا عمرهم بتصنيف الكتب وتَدْبِيجها وتَحْبِيرها؛ وإنَّما جعلوا الكتاب والسُّنَّة واقعاً في حياتهم، وتمثَّلوهما خُلُقاً يمشون فيه بين النَّاس؛ اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ ؛ فما اندَرَسَتْ آثارُهم، وما انقطعت أخبارهم، وما كفَّت الألسن عن الدُّعَاءِ والاسْتِغْفار لَهُمْ.

أتى سَعْدُ بْن هِشَام رضي الله عنه عَائِشَةَ، وسألها، وقال لها : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فقَالَتْ : " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؛ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ الله عز وجل :

---

(١) مَهْ : اسْمُ فِعلِ أَمْرٍ مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ ، ومَعْنَاه : اكْفُفْ عن هذا .

(٢) ابن أبي الدُّنيا "الصّمت" (ص١٣٧) .

(٣) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٦٠١/ رقم٢٧٤٨١) وإسناده حسن .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم] ؟ "[1]. وعلى هذه الأَخْلاقِ كانت خلائق الصَّحابة ﷺ.

هذا وينبغي للمسلم عند الخلاف أن يذلَّ لأخيه المسلم ويرحمه، فقد مدح الله تعالى الذُّلَّ في موضعين، الأوَّل : أن يذلَّ المسلم لوالديه : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ... ۝٢٤ ﴾ [الإسراء] والثَّاني : أنْ يذلَّ لأخيه : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ... ۝٥٤ ﴾ [المائدة] ، ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ... ۝٢٩ ﴾ [الفتح] .

فحريّ بالمسلم أن يدْرَأ بالحسنة السَّيِّئة، وأن يدفع بالَّتي هي أحسن، كما قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ... ۝٢٢ ﴾ [الرّعد]، ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾ [فصّلت]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ ﴾ [المؤمنون]، وأن يكظم غيظه ويعفو؛ فإنَّ ذلك من عمل المحسنين، قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ ﴾ [آل عمران].

وقد ندب الله تعالى إلى العفو وبيَّن فضله، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ... ۝٤٠ ﴾ [الشّورى]، وهذا نبيّ الله يوسف ﷺ بعد أن لقي مِنْ

(١) أحمد "المسند" (ج١٧/ ص٣٧٩/ رقم٢٤٤٨٢) وإسناده صحيح .

إخوته ما لقي، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف].

وقد جرت سنَّة الله تعالى أن يُبْتَلى الخيار بالشِّرار، والأبرار بالفجَّار، والعلماء بالجهلاء، فلا تَسْتَخِفَّنَّكَ جهالة الجهلاء، فإذا نَالَ منك أخوك فلا تُجِبْه؛ فالتَّقِيُّ مُلْجَمٌ.

الحاجة إلى فقه الخلاف

أوصى النَّبيُّ ﷺ وصيَّة غالية عند الخلاف ـ وكلُّ وصاياه ﷺ غَوالٍ ـ فقال ﷺ : " اقْرَؤوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عليه قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ؛ فَقُومُوا عنه"(١).

هذا الحديث عظيم الشَّأن، نهى فيه النَّبيُّ ﷺ عن الاختلاف في القرآن إذا كان لا يسوغ فيه الاجتهاد، أو تنشأ عنه فتنة أو فرقة أو عداوة أو شجار . وعلَّة النَّهي أنَّ قراءة القرآن فضيلة، ووحدة المسلمين فريضة، فلا يجوز تقديم الفضيلة على الفريضة.

والعبرة ـ كما هو معلوم ـ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فليس المراد في الحديث مناسبته، وإنَّما عموم الخلاف المذموم يجب تقديم وحدة الصَّف عليه.

ومن هنا نفهم لماذا حسم النَّبيُّ ﷺ دواعي الاختلاف وطوى بِسَاطَه، وأمر بالقيام. فما أشدَّ حاجتنا إلى تعليم فقه الخلاف في جامعاتنا، ونشر هذه الآداب النَّبويَّة في مدارسنا، وتمثّلها واقعاً في حياتنا !

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٦/ ص١١٥) كتاب فضائل القرآن .

الشفاء من كلّ خلاف مشكل وداء معضل

إنَّ مِن أعظم ما أصيبت به الأمَّة في يومنا هذا الجهل، فما أوقع كثيراً مِن النَّاس في الاختلاف والشِّقاق إلَّا فَرْطُ الجهل ونقصان العقل، وما جعلهم يتَّخذون رؤوساً جُهَّالاً إلَّا ضياعُ العِلْمِ بالكتاب والسُّنَّة.

فإذا تَظَالَمَ النَّاسُ واتَّبعوا السُّبل، وكانت الفتن، واختلفت الغايات، وتعدَّدت الرَّايات، فارْضَ لنفسك ما رضي القومُ به قبلك : كتاب الله، وسنَّة نبيِّه ﷺ، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين، فهذا الشِّفَاءُ مِنْ كلِّ خَطْبٍ مُعْضِل، ورُزْءٍ لَبسٍ مُشْكِل : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

وفي التَّنزيل نصٌّ قاطع في أنَّ جميع ما اختلفنا فيه يجب أنْ يكونَ حكمه مردوداً إلى الله تعالى، وهو الحاكم فيه وحده، قَال ﷻ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الشّورى].

ولا يجوز تحكيم الأفهام والأذهان لقولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ...﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف]، فالله تعالى أمر باتّباع ما أنزل، ونهى عن اتّباع ما عارضه من تقليد الآباء، وتقديم الأهواء، وحكم الجاهليّة الجهلاء. كما أمر نبيَّه بالحكم بينهم بما أنزل، ونهاه عن اتِّباع أهوائهم، فَقَال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة] .ولذلك قَالَ ﷺ :" تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَينِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"[1].

---

(١) رواه مالك بلاغاً في "الموطأ" (ص٣٥٥/ حديث ١٦٢٨) كتاب القدر ، والحاكم موصولاً في "المستدرك" (ج١/ ص٩٣) كتاب العلم ، وحسّنه الألباني في السّلسلة والمشكاة .

فالخلاف يُرْفَعُ بالرّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، وبفهم سلف هذه الأمَّة، والعلماء المخلصين، الَّذين لا يخلو منهم زمان، والَّذين أحال الله تعالى عليهم في كتابه المكنون بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾ [النّساء] وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النّحل].

وقد رأينا كيف أنَّ معاوية ﷺ دعا عليّاً ﷺ إلى كتاب الله يوم صفّين، وأنَّ عليّاً ﷺ لم يتوقَّف، وإنَّما رأى أنَّه الأولى بذلك، أخرج أحمد بسند صحيح أنَّ عَمْرو بن الْعَاص قال لِمُعَاوِيَةَ:

"أَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ بِمُصْحَفٍ، وَادْعُهُ إِلَى كِتَابِ الله، فَإِنَّهُ لَنْ يَأْبَى عَلَيْكَ، فَجَاءَ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم كِتَابُ الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران]، فَقَالَ عَلِيٌّ: نَعَمْ أَنَا أَوْلَى بِذَلِكَ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله"(١).

ومن الأمور الّتي يرفع بها الخلاف التَّحكيم، وذلك بأن يُنْتَدب رجلان مرضيّان فيحكمان فيما شَجَرَ بما أنزل الله تعالى، فيوم صفِّين حكَّموا صحابيّين جليلين، وهما أبو موسى الأشعريّ ﷺ، وعمرو بن العاص ﷺ.

ومِن الأمور الّتي يحسم بها الخِلاف المصالحة والتَّنازل، فقد صَالَحَ الحسن ﷺ معاوية ﷺ لمصلحة المسلمين، وتنازل له عن الخلافة، قطعاً لدابر الخلاف، وحقناً للدِّماء، وتحقيقاً لِرَجَاءِ النَّبيِّ ﷺ، فقد قال ﷺ: " إنّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ

(١) أحمد " المسند " (م١٢/ ص٣٩٩/ رقم١٥٩١٧).

الله أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(١). فإذا كان قد تنازل ﷺ عن الخلافة، أفلا يتنازل أحدنا لأخيه عمَّا دونها مِنْ عَرَضِ الدُّنيا؟!

ومِن الأمور الَّتي تُذْهِبُ الخلاف المناظرة، فقد رأينا كيف أرسل عليّ ﷺ ابنَ عبَّاس ﷺ إلى الخوارج لمناظرتهم، فخرج إليهم وأتاهم، وهم مجتمعون في دارهم قائلون، فسألهم عمَّا نقموه على ابن عمِّ رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟ وناظرهم وحَاجَّهم؛ فَحَجَّهم، ورجع منهم ألفان.

وهذه المناظرة ينبغي أن تكون بين العلماء من الفريقين، وحينها يجب أن يسكت مَنْ لا علم له، وقد أحسن مَنْ قال:" لو سَكَتَ مَنْ لا يَعْلَم لسقط الاختلاف". أمَّا إذا تكلَّم الرُّوَيْبِضَة، فسيطول كلامه ويقلُّ نظامه، فيأتي آخرُ كلامِه على أوَّله، ويُوسِع شُقَّة الاختلاف.

وممَّا يُعَالج به الخلاف القول الحسن، قَال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ...(٨٣) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...(٥٣) ﴾ [الإسراء].

وانظر كيف ضرب الله تعالى مثلاً للكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة الَّتي تؤتي أكلها، فالكلمة الطَّيِّبة لها ثمرها وأثَرُها، قَال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...(٢٥) ﴾ [إبراهيم].

---

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م٢/ ج٣/ ص١٧٠) كتاب الصّلح.

والكلمة الطَّيِّبة لها فضلها في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى :﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴿١٠﴾﴾ [فاطر]، وقال ﷺ :" الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ"[1].

وقد طُبِعَ النَّاسُ على الاستئناس بالكلمة الطَّيِّبة، فمن أراد الإصلاح فعليه أن يأتي النَّاسَ بالعلم والأخلاق معاً، ويسعهم بحُسْنِ خلقه، ويُوَاسِيَهم بِبَسْطِ وجهه.

" اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "[2].

---

(١) أحمد "المسند" (ج٨/ ص١٧٧/ رقم٨٠٩٦) وإسناده صحيح .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٣/ ج٦/ ص٥٦) كتاب صلاة المسافرين .

القسم الثامن
الفتن

معنى الفتنة

أصل الفتنة الابتلاء، مأْخوذ من فَتَنَ الفضَّة والذَّهب إِذا أَذابهما بالنَّار ليميز الرديء من الجيِّد. والفَتْنُ : الإِحْراقُ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[الذّاريات] ، ثمّ استعملت في كلِّ ابتلاء كما قال تعالى في أصحاب الأخدود : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج] .

وهناك نصوص على ألوان وصنوف من الفتن، قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ...﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال]، وقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ...﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] . وهناك فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ الّتي تُكفِّرُ إثمها الصَّلاةُ وَالصَّدَقَةُ...وسيأتي الحديث عنها، والبحث في هذا يتّسع.

وعامّة الفتن مردّها إلى نوعين : فتنة الشَّهوات، وفتنة الشُّبُهات، وقد جمعهما قوله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ

أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التّوبة].

فجمع جَلَّ جَلَالُهُ بين الاستمتاع بالخلاق وهو نصيبهم وحظّهم من الدّنيا وشهواتها، وبين الخوض في الشّبهات داء أهل الأهواء.

والفتنة : خاصَّة، وعامَّة. أمَّا الخاصَّة فهي البلاء الَّذي ينزل بالمسلم، أمَّا العامَّة فهي البلاء الَّذي ينزل بالمسلمين ويعمّهم، وينكِّل بهم، ويستأصل شَأْفتهم، ويقطع دابرهم.

المعاني التي يحتملها لفظ الفتنة في القرآن الكريم

من الفقه في الدِّين معرفة الوجوه والنَّظائر، فالكلمة في القرآن الكريم قد تَنْصَرِفُ إلى وجوه شتَّى، فكلمة الفتنة تأتي على وجوه، نذكر منها أنَّها تأتي بمعنى الشِّرك : ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ ...٢١٧﴾ [البقرة] ، والإضلال : ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ...٧﴾ [آل عمران]، والقتل: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ ...١٠١﴾ [النّساء]، والصَّدِّ والصَّرف : ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ٤٩﴾ [المائدة] والضَّلالة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ ...٤١﴾ [المائدة] والاعتذار والمعذرة : ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام]، والقضاء : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ ...١٥٥﴾ [الأعراف]، والإثم : ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ ...٤٩﴾ [التّوبة]، والمرض : ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التّوبة]، والعبرة : ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]، والعقوبة : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ... ﴿٦٣﴾ ﴾ [النّور]، والابتلاء والاختبار: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، والعذاب : ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت]، والإحراق : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الذّاريات]، والجنون : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ [القلم].

ظهور الفتن بموت الخليفة عمر رضي الله عنه

أخبر الصَّادق الأمين ﷺ أنَّ عمر رضي الله عنه كان باباً حائلاً بين الفِتَنِ والإِسلام، وأنَّه إذا مات دخلت الفِتَن، وهذا ما كان، أخرج الشَّيخان عن شَقِيق، عن حُذَيْفَةَ، يَقُولُ: " بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ عُمَرَ، إِذْ قَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الفِتْنَةِ؟ قَالَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ. قَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، وَلَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ، قَالَ : لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا ، قَالَ عُمَرُ : أَيُكْسَرُ البَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ : بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ عُمَرُ : إِذًا لاَ يُغْلَق أَبَدًا، قُلْتُ: أَجَلْ. قُلْنَا لِحُذَيْفَةَ : أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ البَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً، وَذَلِكَ أَنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ. فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ: مَنِ البَابُ ؟ فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنِ البَابُ ؟ قَالَ : عُمَرُ "[1].

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٦) كتاب الفتن . ومسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص١٦) كتاب الفتن.

فتنة الرّجل عن دينه

ذَمَّ اللهُ تعالى مَنْ يُوقِع الفتنة، وجعل فتنة الرَّجل عن دينه والاعتداء على عقيدته أشدّ وأعظم من الاعتداء على نفسه وقتله، قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...﴿١٩١﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ...﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة] فاحذر أن تُفْتَنَ أو تَفْتِنَ أحداً عن دينه، فالمصيبة في الدِّين من أعظم المصائب، ولذلك كان مِن دعاء النَّبيِّ ﷺ: "لا تجْعَلْ مصيبتنا في دِيننا"(١).

وفتنة الرَّجل المؤمن في دينه سنَّة مطَّردة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

فقد جرت سنَّة الله تعالى واقتضت حكمته ابتلاء أوليائه بأعدائه، ولذلك أنكر الله تعالى على مَنْ لم يصبر على ذلك، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ...﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت].

التحذير من الفتن

تَظَاهَرَتْ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى التَّحْذِيرِ مِن الفِتَنِ عموماً، والحثِّ على تجنّبها واعتزالها والهرب والنَّجاة منها، وعدم ملابستها أو الخَوضِ فِيهَا، وأنَّ شرَّها يكون حسب الدُّخول فيها، فَمِنْ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ...﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال]، وَمَا رَوَاه أبو هريرة عن

---

(١) التّرمذي "سنن التّرمذي" (ج٥/ ص٥٢٨/ رقم٣٥٠٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

النَّبيِّ ﷺ، قال : " تَكُونُ فِتْنَةٌ النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ اليَقْظَانِ، وَاليَقْظَانُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَسْتَعِذْ "[1].

وما رواه مسلم عن أبي بكرة أَنَّ رسُولَ الله ﷺ ، قال :" إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ، أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ : القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي فِيهَا، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلاَ فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ. قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ، وَلاَ غَنَمٌ، وَلاَ أَرْضٌ ؟ قَالَ : يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لِيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ! قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ : يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ"[2].

وروى أحمد عن أبي ذرّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال عن قتال الفتنة : " يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِن النَّاسُ قُتِلُوا حَتَّى يَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِن الدِّمَاءِ كَيْفَ أَنتَ صَانِعٌ ؟ قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قالَ : تَدْخُلُ بَيْتَكَ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله فَإِنْ أَنَا دُخِلَ عَلَيَّ ؟ قَالَ : تَأْتِي مَنْ أَنْتَ مِنْهُ[3]، قَالَ : قُلْتُ : وَأَحْمِلُ السِّلَاحَ ؟! قَالَ : إِذًا شَارَكْتَ (أي بالإثم) ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : إِنْ خِفْتَ أَنْ يَبْهَرَكَ

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٨) كتاب الفتن .

(٢) المرجع السّابق .

(٣) أي الزم أهلك ، وقيل مَنْ بايعته .

شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَائِفَةً مِنْ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ، يَبُوءُ بِإِثْمِكَ وَإِثْمِهِ"[1].

البيان بأن على الإنسان عِندَ الْفِتَنِ العمياء أن يكسر سيفه ويكون مقتولا لا قاتلا

روى أحمد عن أبي موسى، قال : قال رسول الله ﷺ : "إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِراً، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِن القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِن المَاشِي، وَالماشِي فِيهَا خَيْرٌ مِن السَّاعِي، فَاكْسِرُوا قِسِيَّكُمْ وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا بِسُيُوفِكُم الحِجَارَةَ، فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدِكُمْ بَيْتَهُ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ[2] "[3].

وروى أحمد عن محمّد بن مسلمة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دفع إليه سيفاً، وقَال : "قَاتِلْ بِهِ مَا قُوتِلَ العَدُوُّ، فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَاعْمَدْ بِهِ إِلَى صَخْرَةٍ فَاضْرِبْهُ بِهَا، ثُمَّ الزَمْ بَيْتَكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ، أَوْ يَدٌ خَاطِئَةٌ "[4].

ولعلّ الفتنة الَّتي أمر النَّبيُّ ﷺ باعتزالها، وحضَّ على أَلَّا يَلِجَها أَحَدٌ، وأن يكسر الإنسان فيها سيفه ويلزم بيته، ويكون مقتولاً لا قاتلاً، تلك الفتنة العامَّة العمياء الصّماء البكماء الَّتي لا يُعْرَفُ فيها المحقُّ من المبْطِل، أمَّا مَنْ عَرَفَ المحقَّ وكان معه ينصره فقد أصاب، ومَنْ كان مع الباغي فهو مخطِئ، كما قَال تعالى :

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٥/ ص٥٢٨/ رقم٢١٣٣٧) وإسناده صحيح .

(٢) يريد ﷺ قوله تعالى : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) أحمد "المسند" (ج١٥/ ص١٨/ رقم١٩٦١٨) وإسناده صحيح .

(٤) أحمد "المسند" (ج١٤/ ص٢٥/ رقم١٧٩٠٢) وإسناده حسن .

﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي ...﴾ [الحجرات: ٩]. وتتأوّل الأحاديث على غير ذلك، فقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فالمسألة لا تخلو من خلاف وتفصيل وتأصيل.

واعلم أنَّ الإصلاح بين الطّائفتين المؤمنتين مقدَّم على قتال الباغي منهما، لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾ [الحجرات].

ومَنْ نَظَرَ نَظَرَ مُحْكَم العقل الحَصِيْف إلى الآيتين، عَرَفَ مِنَ الحقائق والدَّقائق ما يشوق ويزهو على الجمان ويفوق، فقد بيَّن الله تعالى في الآيتين عظيم شأن الإصلاح بين الطَّائفتين المؤمنتين، فأمر به ثلاث مرَّات مبالغة في التَّأكيد عليه، وسمّى الطّائفتين مؤمنين مع الاقتتال، ولم يَنْفِ عنهما صِفَةَ الإيمان.

الدعاة إلى الفتن هم الدّعاة إلى النار

حذّر النَّبيُّ ﷺ من فِتْنَة عَمْيَاء صَمَّاء كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يعمى فيها الإنسان عن رؤية الحقّ، ويصمّ عن سماعه، وفيها مِنَ الظلمات مَا يُلْبِسُ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وعلى تِلْكَ الْفِتْنَةِ جَمَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِهَا يدعون النَّاس إلى الهلكة.

فمن حديث حذيفة رضي الله عنه " قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَبَعْدَ هَذَا الخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةَ، تَعَلَّمْ كِتَابَ الله وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَبَعْدَ هَذَا الخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ، عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ النَّارِ، وَأَنْتَ أَنْ

تَمُوتَ يَا حُذَيْفَةُ، وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ "[1].

الفتن لا تزال إلى يوم القيامة

ليس غريباً أن تتآزر نصوص الكتاب والسُّنَّة على الأمر بالإصلاح بين المؤمنين، لأنَّ الفتن لا تزال في أمَّته ﷺ ما بقيت الدُّنيا، وبَأْسهم بينهم واقع إلى قيام السَّاعة، وهلاكهم بعضهم ببعض، وهذا مِنْ أعظم ما يتهدَّدهم؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُنِعَ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فقد سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه ثنتين ومنعه واحدة.

قال ﷺ: " سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاَثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا "[2].

وروى البخاري عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ... ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ "[3].

وروى أحمد عَنْ ثَوْبَانَ مولى رسُول الله ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: " وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "[4].

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٥٧٨/ رقم٢٣١٧٥) وإسناده صحيح.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص١٤) كتاب الفتن.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م٣/ ج٥/ ص١٩٣) كتاب التّفسير.

(٤) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٣٠٩/ رقم٢٢٣٥١) وإسناده صحيح على شرط مسلم.

وقد وضع السَّيف فيهم بقتل الخليفة عثمان ﷺ، فلم يزل حتَّى يومنا هذا، وسيظلّ إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، وهذا مِن علامات نبوَّته ﷺ، فالأمر واقع كما أخبر ﷺ ، فقد عَمَّت الفتن وعَمَتْ، والحال يشهد لذلك.

تغبيط أهل القبور وتمني الموت عند نزول الفتن خشية ذهاب الدّين

عقد البخاريّ في كتاب الفتن باباً بعنوان :(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ) وذكر فيه حديثاً عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ :" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ"(١) .

وقد يقول قائل : كيف يسوغ له أن يتمنَّى الموت الَّذي هو أعظم المصائب عند ظهور الفتن، مع أنَّـه يكره لَه أن يتمنَّى الموت لضرٍّ نَزَلَ بِـهِ ، لقول النَّبيِّ ﷺ : "لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُم المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ "(٢) .

والجواب، جاء النَّهي عن تمنِّي الموت إذا نزل به ضرٌّ في أمور دنياه ومعاشه، أمَّا إذا خشي على دينه، وكان الموت أَهْوَنَ عليه من ذهاب الدِّين، فلا كراهة في ذلك، والله أعلم. وأخرج الحاكم من حديث عبد الله بن الصَّامت ﷺ أنَّ أبا ذرّ ﷺ ، قال له : " وَيُوشِكُ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ عِشْتَ إِلَى قَرِيبٍ، أَنْ يَمُرَّ بِالْجَنَازَةِ فِي السُّوقِ فَيَرْفَعُ الرَّجُلُ رَأْسَهُ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي عَلَى أَعْوَادِهَا "(٣) .

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٤) كتاب الفتن.

(٢) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص١٣٠) كتاب التَّمنِّي .

(٣) الحاكم "المستدرك" (ج٤/ ص٤٤٧) كتاب الفتن، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرّجاه، وقال الذّهبي في التَّلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

من أسباب الاختلاف وظهور الفتن

واعلم أنَّ وراءَ اعتلال القلوب واختلافها ووقوعها في مضلَّات الفِتَن أسباب، منها : **شياطين الإنس والجنّ** .

فإيقاع العداوة بين النَّاس مِصْيَدَة وحِبَالة من حبائل الشَّيطان، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ... ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء]. وجاء التَّعبير بالفعل المضارع : (يوقِع) والفعل المضارع (يَنْزَغ) لإفَادة التَّجدُّد، فهو ما يزال يفسد ويهيّج ويحرِّش بين النَّاس ويجدِّد في حيله ولا يتوقَّف.

ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ :"إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"[1] أي بحملهم على العداوة والفتن، ولذلك فمن عادى مُسْلِماً، فإنَّما استزلَّه الشَّيطان .

والشَّيطان هو من يستحقُّ العداوة، فهو عدو لنا كما أخبر تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ ...﴿٦﴾ ﴾ [فاطر]. ولا يدَّخر الشَّيطانُ وُسْعاً في فتنة بني آدم، ولا يَضنُّ بإضلالهم، قَال تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ...﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النّساء]، ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص].

وقد حذَّرنا الله تعالى من إبليس الَّذي يسعى غاية جَهْده في صَدِّ النَّاس عن

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٩/ ج١٧/ ص١٥٦) كتاب صفة القيامة .

الصِّراط المستقيم ، فقال مخبراً عنه : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وقوله : (لأقعدَنَّ) تضمين، لأنَّه حَصَلَ معنى في هذا الفعل مِنْ غير ذكر له، وإنَّما تضمَّنه؛ فالفعل (لأقعدنَّ) يتضمَّن معنى لألزمَنَّ، والمعنى: لألزمَنَّ صراطك المستقيم لا أبرحه، والقعود يكون طارئاً متجدِّداً، واللُّزوم يفيد الدَّوام والثَّبات والاستمرار، وهذا المعنى أفاده التَّضمين، الَّذي هو ضرْب مِن الإيجاز البليغ في البيان، وفنّ من فنونه.

فإبليس قاعد على الصِّراط المستقيم ملازم له مواظب عليه مواظبة لا يفتر عنها، فلا يَدَعُ جهداً في إطغاء وإغواء بني آدم، وقد ذكر الله تعالى في غير موضع أنَّ إبليس أخبر بذلك، كقوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] وقوله : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ [النِّساء] وقوله : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

وأخبر النَّبيُّ ﷺ محذِّراً إيّانا أنَّ إبليس له سرايا، وأنَّ مركزه البحر، ومنه يبعث سراياه في جوانب الأرض لفتنة النَّاس، فقال ﷺ : " إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى البَحْرِ، فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً "(١) .

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٩/ ج١٧/ ص١٥٦) كتاب صفة القيامة .

وإبليس وجنوده لهم حيل في التَّلبيس على النَّاس وإضلالهم، قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ ... ﴿٢١﴾ ﴾ [النّور]، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس].

وأعلمنا النَّبيُّ ﷺ أنَّ مع كلِّ إنسان شيطاناً (وهو القرين) لنحذر من فتنته ووسوسته، فقد قال ﷺ يوماً لعائشة ﵂ : " مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ، أَغِرْتِ ؟ فَقُلْتُ : وَمَا لِي لاَ يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ، فَقَالَ : رَسُولُ الله ﷺ : أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ ؟ قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله، أَوَمَعِي شَيْطَانٌ ؟! قَالَ: نَعَمْ . قُلْتُ : وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ : وَمَعَكَ يَا رَسُولَ الله ؟! قَالَ : نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ"(١).

والحاصل التَّحذير مِنْ فتن إبليس ومكايد الشَّيطان ورد في الكتاب والسُّنَّة في غير موضع، فلا يستخفَّنَّكم الشَّيطان: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر].

وقد أمر الله تعالى بالتَّعوّذ مِنَ الشَّيطان عند قراءة القُرآن ، فقال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النَّحل] فإذا كان الله تعالى قد أمر بالتَّعوّذ من شرِّ الشَّيطان عند قراءة القرآن، فكيف في غيره ؟!

وقد ورد الأمر بالاستعاذة من الشَّيطان في غير هذا الموضع، قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ ...﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٩/ ج١٧/ ص١٥٨) كتاب صفة القيامة .

شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ [النَّاس] .

وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ يدلّك على تنوّع الشَّيطان، فالشَّيطان نوعان : نوعٌ يَراك وهو شيطانُ الجنِّ، ونوع تراه وهو شيطان الإنس. ولعلَّ شيطانَ الإنس أشدُّ خطراً على بني آدم؛ لأنَّ شيطان الجنِّ إذا ذكرت الله تعالى ولَّى وخنس ، بخلاف شيطان الإنس.

وقد جمع الله تعالى بينهما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ...﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وأرشد الله تعالى إلى دفع أذى وشرِّ وسوسة شيطان الجنِّ بالاستعاذة بالله تعالى منه، وأرشدنا إلى دفع أذى شيطان الإنس بالصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عنه، والدَّفع بالَّتي هي أحسن.

واعْلَمْ أنَّ الْمُعْرِضَ عن ذكر الله تعالى يقيِّض له شيطاناً يضلّه عن الصِّراط السَّوي، ويخيِّل له أنَّه على الهُدى، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزّخرف] والبحث في هذا يتَّسع ويطول .

ومِن أَسباب الوقوع في الفتن : **كيد الكائدين من المشركين والمنافقين والزَّائغين** . فكم هم الَّذين يصدُّون عن السَّبيل مِن المشركين ويبغونها عِوجاً : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا

عِوَجًاۚ ...﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم]. وكم هم الَّذين يسعون لإفساد الصَّفِّ من المنافقين : ﴿ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ...﴿٤٧﴾ ﴾ [التّوبة]. وكم هم الَّذين يبغون لنا الغوائل من أهل الزَّيغ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ...﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران]، والدَّاهِيَةُ الشَّنْعاءُ، والغارة الشَّعواء، أنّه لا يخلو منهم زمان ولا مكان ولا عَصْر ولا مِصْر.

ومن أسباب الفتنة : **عدم موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً** . قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال]. فالله تعالى يخبرنا بأنَّ الكفَّار بعضهم أولياء بعض، وأنّه إذا لم يوال بعضنا بعضاً كما يفعل هؤلاء، تقع فتنة وفساد كبير؛ لوجود الموالاة والوحدة والقوَّة بينهم، ووجود المعاداة والتَّفرُّق والضَّعف بيننا.

ولذلك امتدح الله تعالى الصَّحابة على موالاتهم بعضهم بعضاً، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ...﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال].

وأوجب الله تعالى على المؤمنين والمؤمنات أنْ يوالوا بعضهم بعضاً، فقال : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ...﴿٧١﴾ ﴾ [التّوبة].

وقد دعا النَّبيُّ ﷺ إلى الوحدة والتّعاون بين المؤمنين في غير حديث، فقال ﷺ: " إنَّ المؤمنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَشَبَّكَ ﷺ أَصابِعَهُ "(١).

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٢٣) كتاب الصّلاة .

ومن أسباب غيظ القلوب واختلافها، ووقوع الفتن : **التَّشدُّد والتَّنطُّع والغلو في الدِّين** . والتَّشدُّد في الدِّين مخالف لما أمر الله تعالى به من رَفْعِ الحَرَج واليُسْر والتَّخفيف، قال ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...(٧٨) ﴾ [الحجّ]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ...(١٨٥) ﴾ [البقرة]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ...(٢٨) ﴾ [النّساء]، ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...(٦٢) ﴾ [المؤمنون]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطّلاق] .

كما أنَّ التّشدّد مخالف لأمر النَّبيِّ ﷺ بالتَّيسير وترك التَّنفير، قَال ﷺ : "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا"[(١)]. فالدِّين يُسْر، قال ﷺ:" إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ هذا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِن الدُّلْجَةِ"[(٢)]، وقال النَّبيُّ ﷺ :" أحبُّ الدِّين إلى الله الحنيفيَّة السَّمحة "[(٣)] .

والتَّنطُّع في الدِّيـن هلكة ، كما قَـال النَّبيُّ ﷺ : " هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ "[(٤)] قالها

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص٢٥) كتاب العلم .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٥) كتاب الإيمان .

(٣) ذكره البخاري معلّقاً في كتاب الإيمان في "الصَّحيح" (م١/ ج١/ ص١٥) ووصله في كتاب " الأدب المفرد "(ص١٣٨/ رقم٢٨٧) ووصله أحمد في " المسند "(ج٢/ ص٥٢٢/ رقم٢١٠٧) بإسناد حسن .

(٤) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٨/ ج١٦/ ص٢٢٠) كتاب العلم .

ثلاثاً . أي الغالون في التَّأويل، المتعمِّقون في أقوالهم وأفعالهم .

والغُلُوّ في الدِّين ، والتَّشدُّد فيه غير الحقِّ نهى الله تعالى عنه ، بقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ...﴿٧٧﴾﴾ [المائدة] ونهى عنه النَّبيُّ ﷺ ، وبيَّن أنَّ عاقبته الهلكة، فقال ﷺ : "إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالغُلُوِّ فِي الدِّينِ"(١) . ويقابل الغلوَّ في الدِّين التَّفريط به، ودين الله بين الجافي المقصِّر عن الحدِّ، والغالي المجاوز الحدّ .

ومن أسباب الاختلاف والفتن : **أخذ العلم عن غير أهله**. قال ﷺ :" إنَّ الله لَا يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعاً، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِم، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ"(٢) والأحاديث والشَّواهد كثيرة، والعلماء غرباء لكثرة الجهلاء.

ومن الأسباب : **القول بالرّأي، واتِّباع الهوى.** خلا عُمَرُ بن الخطاب ﷺ ذات يَوْم فجعل يحدِّث نفْسَه، فأرْسَل إلى ابن عبَّاس، فقال :" كيف تختلف هذه الأمّة، فكتابها واحد، ونبيُّها واحد، وقبلتها واحدة ؟! قال ابنُ عبَّاس :

يا أَمِيْرَ المؤمنينَ، إنَّا أُنْزِلَ علينا القُرآنُ، فقرأناه، وعَلِمْنا فِيْمَ نَزَلَ، وأنّه يكون بَعْدَنَا أقوامٌ يقرؤون القُرآنَ لا يعرفون فِيمَ نزل؛ فيكون كلّ قوم فيه رأي، فإذا كان لقومٍ فيه رأيٌ اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا. فَزَبَرَهُ عُمَرُ رضي الله عنه وَانْتَهَرَهُ(٣) ،

---

(١) أحمد "المسند" (ج٣/ ص٣٨٧/ رقم٣٢٤٨) وإسناده صحيح .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص١٤٨) كتاب الاعتصام .

(٣) لعلَّه نهره استعظاماً لا إنكاراً ، فعمر ﷺ يعرف أنَّ ما قاله الحقّ .

فَانْصَرَفَ ابن عبَّاسٍ، ثمَّ دعاه بعد، فَعَرَفَ الَّذي قال، ثم قال : إيه أَعِدْ"[1].

واعلم أنَّ مَنْ قدَّم رأيه على ما جاءه مِن الهدى، فإنّما يتَّبع الهوى، ولا يتَّبع الوحي، قال تعالى : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النّجم].

واتّباع الهوى ضلال، فقد شَهِدَ الله تعالى لِمَنْ طلب الهداية بغير الكتاب والسُّنَّة واتَّبع هواه بالضَّلال، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية] .

وأنَّ مَنْ لا يجيب الرَّسول ﷺ فإنّما يجيب هواه، وأنَّ ذلك غاية الضَّلال والظُّلم والخسران : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ...﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

ومن الأسباب : **رفع العلم وانتشار الجهل.** فلا شكَّ أنَّ مَنْ قلَّ علمه قلَّ إعذاره للنَّاس، ومَنْ كَثُرَ جَهْلُه كَثُر لغَطُه، ومَنْ كَثُرَ لغَطُه كثُر غَلَطُه، ولذلك ذمَّ الله تعالى الجهل وأهله في غير موضع من كتابه، فقال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام]، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّوم].

وشبَّه الله تعالى الجهَّال بالأنعام (الإِبل والبقر والغنم) ولم يقتصر ، بَل

---

(١) البيهقي "الجامع لشعب الإيمان"(ج٤/ ص٣٨٠/ رقم٢٠٨٦) وقال المحقّق: رجاله ثقات.

وجعلهم أضلَّ سبيلاً من الأنعام، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

قلت: ولو نظرت إلى الأنعام لوجدت فيها من الوداعة والودِّ والدِّفء والمنافع والجمال مَا لا تجده عند كثير مِن الجهَّال، الَّذين امتلأت قلوبهم غيظاً وحسداً وحقداً، وهذا بلاء لا يرفع إلَّا بالهداية والعلم.

كما أخبر الله تعالى أنَّ شرَّ الدَّواب عنده الجهَّال، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال].

وأخبر أنَّ كثيراً مِن الإنس والجنِّ يدخلون جهنَّم بسبب جهلهم وغفلتهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وخاطب الله تعالى نبيَّه ﷺ مُعَرِّضاً بالجاهلين، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام] والخطاب وإنْ كان للنَّبيِّ ﷺ عينه، إلَّا أنَّ المراد به غيره؛ فالله تعالى قد أعاذه، وحاشا للنَّبيِّ ﷺ أن يكون منهم. ووعظ الله تعالى نوحاً عليه السلام، فقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]، وقَال موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة].

وأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالإعراض عن الجاهلين، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]. وامتدح عباده بالإعراض

عن الجاهلين ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وكفى ذمّاً بالجهل وتقبيحه أنَّ كلب الصَّيد الجاهل لا يحلُّ أكل صيده، فقد اشترط الفقهاء لحلِّ الصَّيد أن يكون الكَلْبُ مُعَلَّماً لا جاهلاً ، لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ...﴿٤﴾ ﴾ [المائدة] .

وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ مِن أَشراط السَّاعة أن يرفع العلم (العلم بالكتاب والسُّنَّة)، ويثبت الجهل، ويكثر القتل، قال النَّبيُّ ﷺ "إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ أَيَّاماً يُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ، وَالْهَرْجُ القَتْلُ"[(1)] .

وقال النَّبيُّ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِي عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لا يَدْرِي القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلاَ المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ، فَقِيلَ : كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ قال: الْهَرْجُ، القَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ"[(2)] والبحث في هذا يتّسع.

وخلاصة القول الجهّال أموات غير أحياء، لا يهتدون بنصح، ولا ينتفعون بذكرى، ولم يكن على الأنبياء والرُّسل أثقل منهم، فهم أعداء الحقّ، وأعداء أنفسهم، وقد أحسن القائل :

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٨٩) كتاب الفتن .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٣٥) كتاب الفتن .

لنْ يَسْمَعَ الأحمقُ مِـــنْ واعِـظٍ في رَفْعِـهِ الصَّـوتَ وفي هَمْسِـــهِ
لن تَبْلغَ الأعـداءُ مِـــن جَاهِـــلٍ مَـــا يبلغ الجاهِلُ مِـــنْ نفسِـــهِ

وشرّ الجهّال لا ينقضي أبد الآباد، والبليّة لا يخلو زمان منهم، وإذا حدثت الفتنة وكانوا فيها، فإنَّ أعقل العقلاء من العلماء الأجلاء لا يستطيع تسكينها.

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ أَوْ نَضِلَّ، أَوْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا "[1].

المنجى من الفتن والمخرج من المحن

أرشدنا الله تعالى في كتابه إلى ما يعصمنا من الفتن، وأوّل العواصم **الاعتصام بالله وبكتابه**، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النِّساء]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ].

والاعتصام بالكتاب يحتاج إلى أنْ نتدبَّر آيَ القرآنِ، ففيه نبأ ما كان قبلنا وحكم ما بيننا، وأن نَنْظُرَ سُنَّةَ النَّبيِّ ﷺ وما فيهما من بيان، فما عَلِمْناه نعمل به، وما جهلناه نردُّه إلى العلماء الموثوق بدينهم، فليس بعد الإيمان أحسن من الفهم عن الله ورسوله، ولذلك قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النّحل].

---

(١) أحمد "المسند" (ج١٨/ ص٢٧٨/ رقم٢٦٤٩٥) وقال المحقّق: إسناده صحيح. وأخرجه التّرمذي في "السّنن" (م٥/ ص٤٩٠/ رقم٣٤٢٧) كتاب الدّعوات، وقال: حسن صحيح.

والاحتكام إلى الكتاب والسّنّة يحمي المجتمع عند الاختلاف؛ فهو يحكم الأهواء، ويجمع الكلمة، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ...﴿١٠﴾ ﴾ [الشّورى] ، وقال تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [النّساء] والرَّدُّ إلى الله تعالى ردٌّ إلى كتابه، والرَّدُّ إلى الرّسول ﷺ هو سؤاله في حياته، والنَّظر في سنَّته بعد وفاته.

والرّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة ليس نافلة، وإنَّما هو حَدُّ الإيمان، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النّساء]. وقد أخبر الله تعالى أنَّه ليس وراء حكمه إلَّا حكم الجاهليّة، قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

واعلم أنَّ الأمور الَّتي تختلف فيها الأمَّة إذا لم تردَّ إلى الله والرَّسول لا يعرف فيها الحقُّ، ولا يتبيّن فيها السَّبيل، ورحم الله تعالى الإمام مَالِك حَيْثُ يقول :" لَا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا".

ومن أهمّ أسباب النّجاة من الفتن : **لزوم العلماء ورثة الأنبياء**، فهم في النَّوازل أئمَّة الهدى، وعند الاختلاف مصابيح الدُّجى؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...﴿٨٣﴾ ﴾ [النِّساء].

فاسمع واعقل عن العلماء الحُلماء، فتنجو حين لا ينجيك إنسان، ولا تكن

مع هؤلاء الّذين فارقوا العقل وعارضوا النَّقل، وقال الله تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك]، ولذلك نفى الله تعالى عن قَوْم عَادٍ الأَسْماعَ والأبصار والعقول لَمَّا لم ينتفعوا بهَا، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف].

ومن أسباب النَّجاة: **الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة**، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة]. فالصَّبر يحمل على كظم الغيظ، والعفو عن النَّاس، والإحسان إليهم، والصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وما اسْتُدْفِع شرٌّ، ولا استُجْلِبَ خيْر، بمثل الصَّبْر والصَّلاة؛ فالصَّلاة صِلة بالله تعالى، والصَّابرون وجبت لهم معيَّة الله تعالى، فظفروا بها بخير الدّنيا وخير الآخرة، وفي التّنزيل، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ ...﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان]. ولا يخفى خروج الاستفهام إلى معنى الأمر، أي اصبروا.

ومن أسباب النَّجاة : **الدّعاء والاستغفار والتّوبة**، قال تعالى : ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ...﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام].

فهذا نبيُّ الله يونس عليه السلام لَمَّا التقمه الحوت، ووقع في محنة يا لها مَا أَضَرَّها، دعا الله تعالى بدعاء فكفاه بأسها ووقاه شرَّها، قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ

مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]. وحتّى لا يتوهَّم متوهِّم أنَّ هذا الدُّعاء خاصّ بنبيِّ الله يونس ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا نبيّ الله تعالى أيّوب ﷺ يدعو الله فيكشف الله تعالى ما به من ضرّ، قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ ...﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء].

ومِن أسباب النَّجاة: **التَّعوّذ من الفتن.** فقد أرشد النَّبيُّ ﷺ أمَّته إلى ما يعصمهم من الفتن، قال ﷺ: " تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"(١). ولذلك كان عمر ﷺ، يقول: " رَضِينَا باللهِ رَبّاً، وَبِالإِسلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، نَعُوذُ باللهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ"(٢). وكان عمّار ﷺ يقول: " أعوذُ بالله من الفتن"(٣).

والتّعوّذ من الفتن مشروع ومطلوب ولو تيقّن المرء أنّه على الحقّ المبين؛ لأنَّ الفتن قد تفضي إلى أمور يتبرّأ منها.

أمَّا حديث "اسْأَلوا الله الفتنةَ؛ فإنَّ فيها حصادَ المنافقين" فلا يصحّ، فقد أخرجه أبو نعيم وفي سنده ضعيف ومجهول من حديث عليّ ﷺ بلفظ: " لا

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٧/ ص٢٠٢) كتاب الجنّة.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٤) كتاب الفتن.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١١٥) كتاب الصّلاة.

تكرهوا الفِتْنَةَ في آخر الزمان؛ فإنَّها تبير (تهلك) المنافقين "[1].

ومن أسباب النَّجاة : **إخلاص العمل لله تعالى، والنُّصح لمن ولَّاه الله تعالى أمرنا، ولزوم جماعة المسلمين**، فهذه خِصَال ثلاث تنفي الغلَّ عن قَلْبِ المسلم، قال النَّبيُّ ﷺ :" ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبداً : إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ "[2].

أي أنَّ لزوم جماعة المسلمين سبب في أن تشمله دعوة الإسلام وتكنفه، وتحيط به إحاطة السُّور، فالجماعة رحمة كما قال النَّبيُّ ﷺ:" وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ "[3]. وقال النَّبيُّ ﷺ :"الدِّينُ النَّصِيحَةُ[4]، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لله، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ المسلِمِينَ وَعَامَّتِهِم "[5].

ومن أسباب النَّجاة : **أن نتعاون على البرِّ والتَّقوى، وألّا نتعاون على الإثم والعدوان**؛ امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ

---

(١) قال ابن الدّيبع : " أخرجه أبو نعيم ، وفي سنده ضعيف ومجهول "تمييز الطَّيِّب مِن الخبيث" (ص٢٢١/ رقم١٦١١). وقال الحافظ : " أخرجه أبو نعيم وفي سنده ضعيف ومجهول " فتح الباري" (ج١٣/ ص٣٦) . وقال الألباني: منكر "الضَّعيفة"(ج١٢/ ص٧٣٧/ رقم٥٨٣٥).

(٢) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٣٢/ رقم٢١٤٨٢) وإسناده صحيح .

(٣) أحمد "المسند" (ج١٤/ ص١٧٦/ رقم١٨٣٦٢) وإسناده صحيح .

(٤) حديث "الدِّين المعاملة" دائر على ألسنة العامّة ، وليس بحديث، فليس له ذكر حتَّى في كتب الأحاديث الموضوعة . قال الألباني في مقدّمة الضّعيفة : ولا أصل لذلك، ولا في الأحاديث الموضوعة "الضّعيفة " (ج٥/ ص١١).

(٥) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م١/ ج٢/ ص٣٧) كتاب الإيمان .

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِۚ ...﴿٢﴾﴾ [المائدة].

ولذلك ذَهَبَ جُمْهُورُ الفُقَهَاءِ إِلَى حُرْمَةِ بَيْعِ السِّلاح زمن الفتنة للبغاة وأهل الفتنة، لما في ذلك من تعاون على الإثم والعدوان، ومفاسد لازمة ومتعديّة ومجرّدة ومزيدة، جَرْياً على قاعدة الأمور بمقاصدها، والحكم للغالب، ودَرْء المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح، لاسيَّما إذا كانت المصالح خاصَّة والمفاسد عامَّة مطلقة.

فالمسلم عليه أن يكون مع الخيار لا مع الشِّرار الَّذين لا يُرجى خيرهم ولا يُؤْمَنُ شرُّهم، قَالَ ﷺ :" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى. قَالَ : فَخِيَارُكُم الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ الله تَعَالَى. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى. قَالَ : فَشِرَارُكُم الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، البَاغُونَ، البُرَآءَ العَنَتَ "(١).

وهذا عثمان ﷺ لَمَّا نزل به ما نزل، دخل عليه عُبَيْدُ الله بْن عَدِيّ، وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَقَالَ :" إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ وَنَزَلَ بِكَ مَا تَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ ؟! فَقَالَ : الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ، فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاؤُوا، فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ "(٢).

وفي هذا الأثر التَّحذير من الفتنة، والحضُّ على شهود الجماعة خاصّة في زمن الفتن؛ حرصاً على جمع الكلمة ووحدة الصَّف، فصلاة الجماعة ضاعف الله تعالى أجرها لأنّها من مظاهر وحدة المسلمين. وقول عثمان ﷺ سنَّة متَّبعة ماضية؛ لحضِّ النَّبيِّ ﷺ على اتِّباع سنَّته، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعده.

---

(١) أحمد " المسند " (ج١٨/ ص٥٩٩/ رقم٢٧٤٧٤) وإسناده حسن .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ج١/ ص١٧١) كتاب الأذان .

فَتَمَثَّلْ أخلاقَ أبرّ النَّاس قلوباً وألينهم جانباً، وتعلَّم كيف تُعامِلُ غيرك، وكيف تسعى في ركاب الحقِّ دَهْرَك، واجعل قول عثمان ﷺ شعاراً لك :" فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ، فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاؤُوا، فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ ". وكن مرحوماً لا محروماً، وأوسع النَّاس حلماً إذا أوسعوك جهلاً، لله درُّك يا عثمان مَا أَحْلمك ! وصدق القائل:

والنَّاسُ صِنْفَانِ: مَوْتَى في حياتِهم   وآخرون بِبَطْنِ الأرض أحَيــــاءُ

ومن أسباب النَّجاة: **القولُ الحسن**، فالقول الحسن يَسُدُّ مداخِلَ الشَّيطان ويبطل مكائده، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء].

فالمسلم ينتقي أطيب الكلام وأحسنه، ويتخيّر أجمل الألفاظ الّتي تصفي له ودّ أخيه؛ حتَّى لا يدع للشَّيطان سبيلاً، ولذلك أثنى الله تعالى على المؤمنين، فقال: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجّ].

وقد ثبَّت الله تعالى الصَّحابة ﷺ على القول الطَّيِّب حتَّى في الخصومة مع أعدائهم، فقد تعلَّموا في مدرسة النَّبيِّ ﷺ، فيوم بدر، لَمَّا أخذ أبو سفيان يَرْتَجِزُ: إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَلَا تُجِيبُوا لَهُ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا نَقُولُ ؟ قَالَ: قُولُوا: الله مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ "[1].

وانظر ما علَّق الله تعالى على التَّقوى والقول السَّديد مِنْ صَلاحِ العمل

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص٢٧) كتاب الجهاد.

وغفرانِ الذّنوب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ...﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ومن أسباب النَّجاة: **الفرار إلى الله**، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ...﴿٥٠﴾ ﴾ [الذّاريات]، فالسّعيد مَنْ فَرَّ إلى الله تعالى، والشَّقي مَنْ فَرَّ مِن الله إلى سواه.

ومَنْ يعصمنا مِنْ أَمْر الله ﷻ إن أراد بنا ضَرّاً أو نفعاً، وأين المفرّ مِن حكمه وقدره ولا ملجأ منه إلّا إليه: ﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ ...﴿١١﴾ ﴾ [الفتح].

ومن أسباب النَّجاة: **الفرار من الفتن**، فهذا نبيّ الله تعالى يوسف عليه السلام لمّا دعته امرأة العزيز فَرَّ مِن هذه الفتنة، قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ...﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف].

والفِرَارُ مِن الفِتَنِ مِن الدِّينِ، فقد عقد البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه باباً، قال: (مِن الدِّينِ الفِرَارُ مِن الفِتَنِ) وذكر فيه حديثاً عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِن الْفِتَنِ "(١).

ولمّا استشهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، نزل الصَّحابيُّ الجليل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م١/ ج١/ ص١٠) كتاب الإيمان.

البادية فِراراً بدينه مِنَ الفتن؛ لما ورد من الإذن في اعتزالها، أخرج البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ :" يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ، ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ، تَعَرَّبْتَ[1] ؟ قَالَ : لَا، وَلَكِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ "[2].

قلت : ولو أنَّ كلَّ إنسان فَرَّ مِنَ الفتن، أو لزم بيته، مَا كانت فتنة، فإذا وجدت النَّاس مختلفين، ورأيتهم يتقاذفون بأرواحهم نحو الفتن ولا جماعة لهم ولا إمام، فاعتزلهم، والزم بيتك حتَّى تنجلي الفتنة، ويطلع قمرُها، فتمشي مبصراً، فذلك أسلم لدينك ودنياك، أخرج أحمد عن عَبْد الله بن عَمْرو، قَالَ :

" بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ ذَكَرُوا الْفِتْنَةَ ـ أَوْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ ـ قَالَ : إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا ـ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ـ قَالَ : فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي الله فِدَاكَ ؟! قَالَ : الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ[3]، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ "[4].

اللّهمّ إنّي أعوذ بك مِنْ سوء الفتن والبلابل والمحن، " وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ "[5].

---

(١) التّعرّب : الإقامة في البادية ، والسّكنى مع الأعراب .

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٤) كتاب الفتن .

(٣) أي الزم ما يخصّك من إعالة أهلك والقيام بمصالحهم، ولا تتعرّض لأمر العامَّة .

(٤) أحمد "المسند" (ج٦/ ص٤٣٣/ رقم٦٩٨٧) وإسناده صحيح .

(٥) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص١٥٩) كتاب الدّعوات .

ومن أسباب النَّجاة : **تقوى الله ﷻ**، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ ﴾ [الطّلاق] ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ﴾ [الطّلاق]، ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ...۝٢٩ ﴾[الأنفال] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ... ۝٢٨ ﴾ [الحديد].

ومن تقوى القلوب التَّثبت من الأخبار والتَّحقُّق مِنَ الآثار، وقد سبقت أدلَّته، فأغنى عن إعادته. فإذا ثار الشَّر بين النَّاس، ورأيت النَّاس يتهافتون عليه، ويقعون في الهلكة، فلا تكن إمَّعة تميل حيث الرّيح تميل، وكن ورعاً تقيّاً منّاعاً للشَّرِّ، داعياً إلى الخير، فرَّاجاً للعسر، جلّاباً لليسر، ليِّن العريكة مع أهل الإيمان.

ومن أسباب النّجاة : **التّوكّل على الله ﷻ**، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطّلاق]، فانظر كيف جعل الله تعالى جزاء التَّوكُّل عليه واللّجوء إليه بأن يكون الله حسبه وكافيه، وكفى بالله حسيباً ! لكن لكلِّ شيء وقت لا يتعدَّاه، فلا تستبطئ فرج الله.

ولو عَلِمَ النَّاسُ منزلة التَّوكُّل على الله تعالى ما توكَّل عبد على سواه، فطوبى لعبد سمع ووعى وتوكَّل في كلٍّ على المولى.

والقرآن الكريم مشحون بالآيات الّتي تدعو إلى التّوكّل على الله تعالى في المُلِمّات والمُهِمَّاتِ والبلاء واللَّأْوَاءِ، قال تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩ ﴾ [آل عمران]، ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ۝٧٩ ﴾

[النّمل]، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النّساء]، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال]، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان].

وأثنى الله تعالى على الصّحابة رضي الله عنهم، فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]، وامتدح المؤمنين، فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال] . وقد أحسن القائل:

اللهُ حَسْبُكَ مِمَّا عُذْتَ مِنْـهُ بِـهِ   وَأَيْـنَ أَمْنَـعُ مِمَّـنْ حَسْبُـه اللهُ

ومن أسباب النَّجاة : **الثّقة بالله** عز وجل. قال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النَّجم].وقد علَّمنا النَّبيُّ ﷺ درساً في حُسْنِ الظَّنِّ بالله تعالى لَمَّا قال لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا"(١) أي بالنّصرة والتأييد.

ولَمَّا قال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله أُتينا، قال ما حكاه الله تعالى عنه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [التّوبة]. ولمّا قال أصحاب موسى عليه السلام إنّا لمدركون، قال : ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشّعراء].

ومن أسباب النَّجاة : **العودة إلى صادق الأخوَّة الإيمانيَّة**، ومن لوازمها أن يوالي بعضنا بعضاً ، فإذا رأيت أخوَّة بلا إيمان فاعلم أنَّها مصلحة ، وإذا رأيت إيماناً

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٩٠) كتاب المناقب.

بلا أخوَّة فاعلم أنَّه إيمانٌ ناقص.

ومن لوازمها ألّا يشوبها شيء من الحقد والضّغن والكراهية والتَّحاسد والتَّدابر لأتْفه الأسباب وأهونها، فما أقبح القلب العليل، والفكر الكليل! وما أجمل سلامة الصَّدر، والودَّ القويم! وكفى ناهياً وواعظاً قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشّعراء].

وقد جمع الصَّحابة رضي الله عنهم بين الصُّحبة والأخوَّة، ولم يَبْقَ لنا إلَّا الأخوَّة، فلنكن إخواناً، وأيّ خير فيمن لا أخوَّة له ؟! قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]، وقال ﷺ: " وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا "[(١)].

واعلم أنَّ عباد الله متى كانوا إخواناً، جمع الله تعالى بينهم، وألَّف بين قلوبهم، ومتى لم يكونوا كذلك، فرَّق الشّيطان شملهم، وألقى العداوة بينهم.

من معالم الهدى في الفتن

من معالم الهدى في الفتن اجتنابها والابتعاد عنها، فقد نهى النَّبيُّ ﷺ عن السَّعي في الفتن، فقال ﷺ: " إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً[(٢)] "[(٣)].

---

(١) البخاريّ "صحيح البخاري" (م٤/ ج٧/ ص٨٨) كتاب الأدب.

(٢) كَلمة للتَّلَهُّف، وقد توضَع مَوْضِعَ الإعْجاب بالشيء: "لسان العرب" (ج١/ ص٢٥٦).

(٣) ابن أبي داود "سنن أبي داود" (ج٥/ ص٢٠/ رقم٤٢٦٢) كتاب الفتن، وإسناده صحيح وصحّحه الألباني في " الصّحيحة" (م٢/ ص٧٠٣/ رقم٩٧٥) المكتب الإسلامي، وصحّحه في "مشكاة المصابيح" (ج٣/ ص١١/ رقم٥٤٠٥).

ويلاحظ التوكيد اللَّفظي، وفائدته تقرير المؤكَّد وتمكينه في النَّفس مبالغة في تأكيد الابتعاد عن الفتنة. وحريّ بمن ابتُلي بها أن يصبر على الأذى، فإن صبر فطوبى له، فليس أطيب حينها مِن الصَّبر وسعة الصَّدر !

ويلاحظ في الفتن انشغال النَّاس بها، وترك العبادة، فمن معالم الهدى حينئذ الانقطاع إلى عبادة الله، ولذلك قال ﷺ: " العِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ "[1].

وسبب فضل العبادة في الهرج وكثرة الثَّواب أنَّ أكثر النَّاس ينشغلون عنها ويغفلون ويذهلون . فمن فرَّ بدينه واعتصم بالله تعالى، ولزم أمراً قد أغفله النَّاس، فأجره كأجر المهاجر إلى النَّبيِّ ﷺ، وفيه فضيلة ظاهرة للمهاجرين، وما فازوا به مِن الأجر العظيم.

وقد جاء فضل الهجرة صريحاً في الكتاب والسُّنَّة، فمّما جاء في التَّنزيل، قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النّساء] .

ومَّا جاء في السُّنَّة ما أخرجه مسلم عن ابْنِ شَمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ من حديث عمرو بن العاص ﷺ عندما جاء يبايع النَّبيَّ ﷺ وأراد أن يشترط أن يُغْفَرَ له ، فقال له النَّبيُّ ﷺ :

" أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا،

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٩/ ج١٨/ ص٨٨) كتاب الفتن .

وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ"[1]. فهذه الأعمال الثلاثة تُسْقِطُ الذُّنوبَ الَّتي تقدَّمَتْهَا وتجبُّها كلَّها.

ومن معالم الهدى أن يجتنب المسلم العجلة والخفَّة والإسراع إلى الفتن، ويَلْزَم التُّؤَدَة والتَّأني والرِّفق والسَّكينة والأَناة، فالعجول زاده الخطأ، فَقَلَّ مَنْ عَجِلَ في أمر إلَّا أخطأ قصد السَّبيل.

أخرج البخاري في الأدب المفرد وصيَّة للخليفة عليّ رضي الله عنه بإسناد صحيح عن حكيم، قَال سمعت عَلياً رضي الله عنه، يقول :" لا تَكُونُوا عُجُلاً[2]، مَذاييعَ[3] بُذُراً[4]، فَإِنَّ مِن وَرائِكُم بَلاءً مُبْرَحاً مُكلحاً[5]، وأموراً متماحِلةً رُدُحاً"[6] .

بدأ عليّ رضي الله عنه وصيَّته بالنَّهي عن العجلة في ملابسة الفتن، لأنَّ الفتنة مَنْ تشوَّف وتطلَّع إليها تدعوه إلى الوقوع فيها، وتصيبه بشرورها، قال صلى الله عليه وسلم:" سَتكُونُ فِتَنٌ : القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِن القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِن الماشِي، وَالماشِي فِيهَا خَيْرٌ مِن السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لها تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ "[7].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " إنها ستكونُ هَنَات وأمور مشبهات ،

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م١/ ج٢/ ص١٣٨) كتاب الإيمان.

(٢) من العجلة .

(٣) جمع مذياع ، وهو من أذاع الشّيء .

(٤) لا يكتم سرّاً .

(٥) يجعل النَّاس كالحين عابسين .

(٦) البخاري" الأدب المفرد" (ص١٥٥/ رقم٣٢٧) كتاب حسن الخلق ، باب العيَّاب .

(٧) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٤/ ص١٧٧) كتاب المناقب .

فعليك بالتُّؤَدَةِ؛ فتكون تابعاً في الخير، خير من أن تكونَ رأساً في الشَّرِّ "[1].

ومن معالم الهدى والعصمة أن يمسك المرء لسانه سيَّما في زمن الفتن؛ فالفتنة مَبْدَاها باللِّسان، ووقع اللِّسانِ فيها أشدُّ مِنَ السِّنان، وقد سَأَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ النَّبيَّ ﷺ، وقال له يا رسُولَ الله، ما النَّجاةُ؟ قال: " أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ "[2].

وعن عبد الله بن مسعود الهذلي ﷺ، قال: "والله الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ، مَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى طُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ"[3].

ومن معالم الهدى معرفة سبيل المجرمين من سبيل المؤمنين خوفاً من الوقوع في سبيلهم، وقد فصَّل الله تعالى في كتابه السَّبيلين؛ ليستبين العبد الخير مِنَ الشَّرِّ، والضَّلال من الهدى، والمعروف من المنكر، والسُّنَّة من البدعة، والحلال مِن الحرام، والجاهلية من الإسلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ... ﴿١١٥﴾﴾ [النّساء].

وليس لأحد حجَّة، فقد هدى الله الإنسان النَّجدين، وبيَّن له سبيل الخير والشَّرِّ، وطريق السَّعادة والشَّقاء في الدَّارين، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) ابن أبي شيبة "مصنف ابن أبي شيبة" (ج٨/ ص٦٠٤) كتاب الفتن.

(٢) أحمد "المسند" (ج١٦/ ص٢٤٤/ رقم٢٢١٣٦) وإسناده حسن.

(٣) أبو نعيم "حلية الأولياء" (م١/ ص١٣١) رواه الطّبراني موقوفاً بإسناد صحيح.

[البلد]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان] .

ومن معالم الهدى أن تَأْتِي إِلَى النَّاسِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُؤْتُوهُ إِلَيْكَ، وَأن تدع النَّاس ممَّا كَرِهْتَ لِنَفْسِكَ، ففي حديث الفتنة الَّتي يرقّق بَعْضُهَا بَعْضاً، قال النَّبيُّ ﷺ :" وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ"[1].

وقفات وبعثات الفتنة

قال حذيفة بن اليمان ﷺ :"إنَّ للفتنة وقفات وبعثات[2]، فإن استطعْتَ أنْ تموتَ في وقفاتِها فافْعَلْ"[3].

مثل الفتنة

كان يقال: مثل الفِتْنَة كَمثل الدِّرْهَم الزِّيْف يَأْخُذهُ الأَعْمَى وَيَرَاهُ البَصِيرُ .
وضربوا مثلاً للفتنة بثلاثة نفر اصْطَحَبُوا فِي سَفَرٍ، فَسَارُوا لَيْلاً فَاجْتَمَعُوا إلى مَفْرِقِ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: يَمْنَةً فَأَخَذَ يَمْنَةً فَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَقَالَ الآخَرُ: يَسْرَةً فَأَخَذَ يَسْرَةً

---

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّوويّ" (م٦/ ج١٢/ ص٢٣٣) كتاب الإمارة.

(٢) وقفاتها إغماد السّيف، وبعثاتها سلّه وإشهاره .

(٣) ابن أبي شيبة "مصنّف ابن أبي شيبة" (ج٨/ ص٥٩٣)، وابن حمّاد "الفتن" (ج١/ ص٧٥).

فَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَقَالَ الثَّالِثُ : أَلْزَمُ مَكَانِي حَتَّى أُصْبِحَ فَآخُذ الطَّرِيقَ فَأَصْبَحَ فَأَخَذَ الطَّرِيقَ.

من شهد الفتنة كارها ومن غاب عنها فرضيها

بكراهية القلب للمنكر تَبْرَأُ ذِمَّة العبد إن لم يستطع الإنكار بيده ولسانه، قال النَّبيُّ ﷺ :" إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا، كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا "[1].

الله الله في الدّماء!

كرَّم الله تعالى بني آدم، فقال عز وجل : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء] وزاده تكريماً بتقواه، فقال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

ولذلك عظَّم الله تعالى قَتْلَ المؤمن، فقال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النّساء]. وقال ﷺ : " لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ "[2].

---

(١) أبو داود "سنن أبي داود" (ج٤/ ص١٢٤/ رقم٤٣٤٥) وحسَّنه الألباني في المشكاة (ج٣/ ص١٤٢٢/ رقم٥١٤١) .

(٢) التّرمذي "سنن التّرمذي" (ج٤/ ص١٦) أبواب الدِّيات، رواه مرفوعاً وموقوفاً ورجّح الموقوف. وصحّحه الألباني في "غاية المرام" (ص٢٥٣/ رقم٤٣٩).

فَمِنْ وَرَطَاتِ الأمورِ الَّتي يصعب المخرج منها أن تصيب دماً حراماً بِغَيْرِ حِلِّه، ولذلك قال ﷺ :" لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً" [1].

فاللهَ اللهَ في الدِّماء، فإنَّها أَوَّلُ مَا يُقْضَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ لعظم أمرها، وشناعة شرِّها، قال ﷺ :" أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ"[2]. ومَن امتُحِنَ بِإِهْرَاقِ مِلْءِ مِحْجَمٍ مِنْ دَمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، فسيعرف شناعة ذلك ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطّارق].

فليحذر مَنْ يقترف بجهله إثماً مبيناً وظلماً عظيماً، ويذهل عن قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ...﴿٩٢﴾ ﴾ [النّساء]، وقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة].

أفلح من كفَّ يده

أفلح وَرَبِّ الكَعْبَةِ مَنْ كَفَّ فكَّيه وكفَّيه في الفتنة، روى الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﷺ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ ، قال : " وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ أَمْرٍ قَدِ اقْتَرَبَ، أَفْلَحَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ "[3] أي في الفتنة.

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٣٥) كتاب الدّيات.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النّووي" (م٦/ ج١١/ ص١٦٧) كتاب القسامة.

(٣) أحمد "المسند" (ج٩/ ص٢٨٣/ رقم٩٦٥٢) وإسناده على شرط الشّيخين، وصحّحه الألباني في "المشكاة" (ج٣/ ص١١/ رقم٥٤٠٤) وقال رواه : أبو داود وإسناده صحيح.

الخاتمة

مِنْ أَحَبِّ الخُطَى إلى الله تعالى خُطَى تَسْعَى في رَأْبِ الصَّدع، وإصلاح ذات البين، ولمّ الشَّعَث، وجمع الشَّمل.

إنَّ الإصلاح مِن عمل المرسلين، قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]. وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: "اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ"[1].

ولا يتصدَّر لإصلاح الحال والمآل إلَّا الَّذين وفَّقهم الله تعالى وَصَفَتْ قلوبُهم. والآيات الكريمة والأحاديث الشَّريفة تدلّ على أنَّ الإصلاح أحبّ إلى الله تعالى ورسوله من الخلاف، وفي مدح النَّبيِّ ﷺ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما ما يشهد لذلك، قال ﷺ: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ"[2].

وإذا ذُكِر الإصلاحُ ذُكِرت عائشة رضي الله عنها زوج سيِّد المصلحين وإمَام المرسلين ﷺ، فهي تعلم أنَّ الله تعالى نَدَبَ إلى الإصلاح بين النَّاس، وقال: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ ...﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة]، وبيَّن ثوابه، فقال: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ

---

(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٦٦) كتاب الصّلح.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (م٤/ ج٨/ ص٩٩) كتاب الفتن.

﴿ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤ ﴾ [النّساء].

وانظر كيف قَرَنَ الله بين التَّقوى والإصلاح، فقال : ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ ﴾ [الأعراف]، وقَرَنَ بين الإيمان والإصلاح، فقال: ﴿ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ ﴾ [الأنعام] فلا يقوم به إلّا مؤمن تقيّ .

وما زال هناك مَـنْ يكذِّب المصلح ، ويصدِّق المفسد، وقد قَـال النَّبيُّ ﷺ : " لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْراً، أَوْ يَقُولُ خَيْراً "[(١)].

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ ﴾ [آل عمران].

اللهُمَّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيَّامنا يوم لقائك، اللهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ.

اللَّهمَّ احشرْنا مع زمْرة نبيِّنا وتحت لواء حبيبنا ﷺ، واجعل عملنا هذا ذخيرة نجدها : ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا ... ٣٠ ﴾ [آل عمران]، وآخر دعوانا ﴿ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾ [يونس].



(١) البخاري "صحيح البخاري" (م٢/ ج٣/ ص١٦٦) كتاب الصّلح.

المصادر والمراجع

١ـ آداب الزّفاف : محمّد ناصر الدّين الألباني. دار عمر بن الخطّاب، ط٣.

٢ـ أثر علل الحديث في اختلاف الفقهاء : ماهر ياسين. دار عمّار، عمّان ، ط٢، ١٤٣٠هـ.

٣ـ أحكام القرآن : ابن العربي ، تحقيق علي البجاوي . دار إحياء الكتب العربيّة ، ١٣٧٧هـ.

٤ـ إحياء علوم الدّين : أبو حامد ، محمّد الغزالي .دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ .

٥ـ أخوّة الإسلام فوق مستوى الخلافات : محمّد الحكمي . مكتبة الإرشاد، اليمن، ومكتبة جدة، السعودية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٦ـ إرواء الغليل : الألباني .المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٧ـ أسباب النّزول : النّيسابوري .دار الفكر، بيروت ـ لبنان ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨ ـ استشهاد عثمان ووقعة الجمل : د. خالد الغيث .دار الإيمان ، إسكندريّة ، ط٢.

٩ـ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. محمّد الاسكندراني. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٠ـ أصحاب الرّسول ﷺ: محمود المصري. مكتبة الصّفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ .

١١ـ إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان : ابن قيم الجوزيّة ، تحقيق محمّد الفقي . دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

١٢ـ اقتضاء الصّراط المستقيم: ابن تيمية . دار ابن حزم ،ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٣ـ الإتقان في علوم القرآن: السّيوطي. دار الكتب العلميّة بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٤ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصّحابة : بدر الدّين الزّركشي ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٥ـ الأدب المفرد : البخاري، تحقيق علي عبد الباسط. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٦ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البرّ، تحقيق علي البجاوى، مكتبة نهضة مصر.

١٧ـ الإصابة في تمييز الصّحابة : ابن حجر العسقلاني. دار الكتب العلميّة، بيروت.

١٨ـ الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل : بهجت عبد الواحد . دار الكتب العلميّة ، بيروت، ودار الفكر، عمّان، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩ـ الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة : محمّد الجياني ، تحقيق د. محمّد حسن. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٢٠ـ الإمام عليّ رابع الخلفاء الرّاشدين: محمّد رضا، تحقيق د. أحمد عوض. المكتبة العصريّة،بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢١ـ الأنصار في العصر الرّاشدي : د. حامد الخليفة. مكتبة الصّحابة، الشّارقة، ومكتبة التّابعين، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٢ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: ابن كثير، شرح أحمد شاكر، تحقيق محمّد صبحي، مؤسّسة الرّسالة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢٣ـ البحر المحيط : أبو حيّان التّوحيديّ . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٢٢هـ .

٢٤ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد : ابن عجيبة الأندلسي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٥ـ البداية والنّهاية : ابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٦ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن : محمود بن حمزة الكرماني ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلميّة، لبنان ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٧ـ البعث والنشور : البيهقي، تحقيق عامر أحمد .مركز الخدمات والأبحاث الثقافيّة، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٨ـ البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوي. الشّركة اللّبنانيّة للكتاب، بيروت ، ١٩٦٨م.

٢٩ـ التّاريخ الأوسـط والضّعفاء الصّغير : البخاري ، ضبط د. يحيى مراد . دار الكتب العلميّـة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣٠ـ التّربية عند الإمام الشّاطبي: د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ .

٣١ـ التّطبيق الصّرفي: د.عبده الرّاجحي. دار النّهضة العربيّة، بيروت ، ١٤٠٤هـ .

٣٢ـ التّعليقات الحسان على صحيح ابن حبَّان : الألباني ، دار باوزير ، جدة ،ط١، ١٤٢٤هـ .

٣٣ـ إلجام العوام عن علم الكلام: محمّـد الغزالي، تحقيق محمّد البغدادي، دار الكتاب العـربي، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٤ـ الجامع لشعب الإيمان : البيهقي، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد. الدّار السّلفيّة،الهند، إصدار وزارة الأوقاف، قطر، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٣٥ـ الجرح والتّعديل : عبد الرّحمن بن أبي حاتـم الرّازي ، تحقيق مصطفى عبد القادر . دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٣٦ـ الجواب الكافي فيمن سُئل عن الدّواء الكافي : ابن قيّم الجوزيّة ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة المكرّمة، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٧ـ الحاوي في الفتاوي : جلال الدّين السّيوطي. دار الكتب العلميّـة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٨ـ الحجّة على تارك المَحجّة : إسماعيل محمّد الأصبهاني، تحقيق محمّد المدخلي. دارالرّاية، الرّياض، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٩ـ الخلفاء الرّاشدون : د. أمين القضاة. دار الفرقان، عمّان، ط١، ١٤٢٠هـ.

٤٠ـ الدّرر اللوامع على همع الهوامع: أحمد بن الأمين الشّنقيطي. دار المعرفة، بيروت.

٤١ـ الدّولة الأمويّة المفترى عليها : د. حمدي شاهين. دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.

٤٢ـ الرّحيق المختوم: المباركفوري. مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٤٣ـ الرّدّ على من أخلد إلى الأرض: السّيوطي، تحقيق خليل الميس. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٤٤ـ الرّصف لما روي عن النّبيّ ﷺ من الوصف : ابن العاقولي، محمّد الواسطي، تحقيق محمّد الشّافعي. دار الكتب العلميّة، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٥ـ الرِّقة والبكاء : ابن أبي الدّنيا، تحقيق محمّد خير. دار ابن حزم ، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٦ـ الرّوح : ابن القيّم الجوزيّة ، تحقيق د. السيّد الجميلي .دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط٧، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٧ـ السِّراج المنير : محمود صالح البغدادي .دار عمّار ،عمّان ، ط١، ١٤٣٠هـ.

٤٨ـ السَّمطُ الثَّمين : محبّ الدِّين الطَّبري، مكتبة الكلّيّات الأزهريَّة، القاهرة.

٤٩ـ السّنّة : لأبي بكر الخلّال، تحقيق د. عطيّة الزّهراني، دار الرّاية، الرّياض ، ط١، ١٤١٠هـ.

٥٠ـ السنن الكبرى: البيهقي. دائرة المعارف، حيدر أباد، الهند، ١٣٥٤هـ.

٥١ـ السنن الكبرى : النّسائي، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٥٢ـ السّيّدة عائشة أمّ المؤمنين: عمرو الشّاعر. مكتبة النّافذة، الجيزة، ط١، ٢٠١٠م.

٥٣ـ السّيّدة عائشة وتوثيقها للسّنّة: جيهان رفعت. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ.

٥٤ـ السِّيدة عائشة : عبد الحميد طهماز. دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٥٥ـ السّيف المسلول على مَنْ سبَّ الرّسول: تقي الدّين علي السّبكيّ، تحقيق إياد الغوج. دار الفتح، الأردن ، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥٦ـ الشّفا: القاضي عياض، تحقيق نوّاف الجرّاح. دار صادر بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

٥٧ـ الصّارم المسلول على شاتم الرّسول ﷺ : ابن تيمية، خرّج أحاديثه أحمد شعبان .مكتبة الصّفا ، القاهرة ، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٥٨ـ الصّحوة الإسلاميّة بين الجحود والتّطرّف : د. يوسف القرضاوي . مؤسّسة الرّسالة، ط٦، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٩ـ الصّحيح المسند من فضائل الصّحابة: مصطفى العدوي. دار ابن عفّان، الخبر، ط٢، ١٤١٩هـ

٦٠ـ الصّدّيقة بنت الصّدّيق : عبّاس محمود العقّاد .دار المعارف ، مصر.

٦١ـ الصَّمت وحفظ اللِّسان : ابن أبي الدّنيا ، تحقيق د. محمّد عاشور. دار الاعتصام، القاهرة ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٦٢ـ الصّواعق المحرقة: الهيثمي، تحقيق عبد الوهّاب عبد اللّطيف، مكتبة القاهرة، ط٢، ١٣٨٥هـ .

٦٣ـ الطّبقات الكبرى: ابن سعد. دار بيروت، ودار صادر، بيروت، ١٣٧٧هـ .

٦٤ـ العقائد الإسلاميّة : السّيّد سابق .دار الكتاب العربي، بيروت.

٦٥ـ العواصم من القواصم : ابن العربي، تحقيق محبّ الدّين الخطيب. المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٦٦ـ الفتاوى الكبرى : ابن تيمية، تحقيق محمّـد عبد القادر، ومصطفى عبد القادر . دار الكتب العلميّة، بيروت ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٦٧ـ الفتـن : نعيم بن حمّاد ، تحقيق سمير الزّهيري . مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ .

٦٨ـ الفتنة بين الصّحابة : محمّد حسّان. مكتبة فيّاض، المنصورة، ط١، ١٤٢٨هـ .

٦٩ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنّحل : ابن حزم الأندلسي ، وضع حواشيه أحمد شمس الدّين. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٧٠ـ الفقه على المذاهب الأربعة : عبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلميّـة، بيروت، ١٤١٠هـ .

٧١ـ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن : ابن قيّم الجوزيّة. دار ومكتبة الهلال، بيروت .

٧٢ـ الكامـل في ضعفاء الرّجال : عبد الله بن عدي الجرجاني ، تحقيق د. سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٧٣ـ الكشف المبين : أحمد بن محمّد الثّعلبي . دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٧٤ـ الكفاية في علم الرّواية: الخطيب البغداديّ، أحمد بن عليّ. المكتبة العلميّة، المدينة.

٧٥ـ المبشرات بانتصار الإسلام : د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة ، القاهرة، ط٢،١٤٢٠هـ .

٧٦ـ المدخـل إلى توثيق السّنّة : د. رفعت فوزي . مؤسّسـة الخانجي، مصر، ط١، ١٣٩٨هـ.

٧٧ـ المستدرك على الصّحيحين: الحاكم .مكتبة ومطابع النّصر الحديثة، الرياض.

٧٨ـ المستقبل لهذا الدّين : سيّد قطب. دار الشّروق ، ط٦، ١٤٠٣هــ ١٩٨٣م.

٧٩ـ المسند : أحمد بن حنبل، شرحه أحمد شاكر وحمزة الزّين. دار الحديث، القاهرة ، ط١، ١٤٢٦هـ

٨٠ ـ المصنّف : الصّنعاني، تحقيق الأعظمي. المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ .

٨١ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية : ابن حجر العسقلانيّ ، تحقيق عبد القادر عبد الكريم. دار العاصمة، ودار الغيث، الرّياض، ط ١، ١٤٢٠هــ ٢٠٠٠م.

٨٢ ـ المعجم الأوسط : الطّبراني ، تحقيق محمد حسن الشّافعي. دار الفكر، عمّان، ط١ ١٤٢٠هـ.

٨٣ ـ المعجم الكبير : الطّبراني، تحقيق حمدي السّلفي. مطبعة الوطن العربي، ط١، ١٤٠٠هـ.

٨٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمّد فؤاد. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ .

٨٥ ـ المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربيّة ، دار عمران، مصر، ط٣.

٨٦ـ المغني في الضّعفاء: الذّهبي، تحقيق حازم القاضي. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ

٨٧ـ الملامح الجغرافيّة لدروب الحجيج : سيّد عبد المجيد بكر . تهامة ، جدّة ، ط١، ١٤٠١هـ .

٨٨ ـ المنار المنيف في الصَّحيح والضَّعيف : ابن قيِّم الجوزيَّـة ، تحقيق أحمد عبد الشَّافي. دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ١٤٠٨هــ ١٩٨٨م.

٨٩ ـ المنجد في اللّغة والأعلام : دار المشرق، بيروت ، ط٢٨، ١٩٨٦م .

٩٠ـ الموضوعات : ابن الجوزي، عبد الرّحمن محمّد. المكتبة السّلفيّة، المدينة المنوّرة، ط١، ١٣٨٦هـ .

٩١ـ الموطأ : مالك بن أنس. جمعية المكة الإسلامي، القاهرة ، ١٤٢١هـ.

٩٢ـ النّاسخ والمنسوخ : ابن العربي المالكي . دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٩٣ـ النّحو وكتب التّفسير : د. إبراهيم عبد الله. المنشأة العامّة ، طرابلس ، ط٢، ١٩٨٤م.

٩٤ـ النّكت على العمدة : الزّركشي. مكتبة الرّشد، الرّياض، ط١، ١٤٢٣هـ .

٩٥ـ بحر العلوم : السمرقندي ، د. محمود مطرجي. دار الفكر ، بيروت.

٩٦ـ بدائع الفوائد : ابن قيّم الجوزيّة. مكتبة نزار مصطفى ، مكّة المكرّمة، ط٢،١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٩٧ـ برد الأكباد عند فقد الأولاد : ابن ناصر الدّين الدّمشقي ، ضبط مشهور حسن. دار ابن عفان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٩٨ـ بستان الواعظين ورياض السّامعين: ابن الجوزي، تقديم د. السّيّد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٩٩ـ تاريخ ابن خلدون : ابن خلدون. مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩١هـ .

١٠٠ـ تاريخ الإسلام : د. حسن إبراهيم. دار الفكر ، ط١٣، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٠١ـ تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام : الذّهبي ، تحقيق د. عمر عبد السّلام. دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٠٢ـ تاريخ الأمم والملوك : محمّد بن جرير الطّبري، مكتبة أروميّة.

١٠٣ـ تاريخ الخلفاء: السّيوطي. دار القلم، بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٠٤ـ تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي. مؤسّسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .

١٠٥ـ تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي. دار الكتب العربي، بيروت.

١٠٦ـ تاريخ خليفة بن خيّاط : خليفة بن خيّاط العصفري. مؤسسة الرّسالة، بيروت، ودار القلم، دمشق، ط٢، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٠٧ـ تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر ، تحقيــق عمر العمروي . دار الفكر ، ط١، ١٤١٨هـ.

١٠٨ـ تاريخ واسط : أسلم بن سهل، تحقيق كوركيس عواد .عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٠٩ـ تاريخنا المفترى عليه : القرضاوي. دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦م.

١١٠ـ تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة ، تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة العصريّة، ط١، ١٤٢٤هـ

١١١ـ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق السّيد أحمد . المكتبة العلميّة، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ

١١٢ـ تحقيق مواقف الصّحابة في الفتنة: د. محمّد أمحزون. دار طيبة ومكتبة الكوثر، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١١٣ـ تذهيب تهذيب الكمال : الّذهبي. دار الفاروق الحديثة، القاهرة ، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١١٤ـ تفسير الطّبري : الطّبري، تهذيب د. صلاح الخالدي. دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ .

١١٥ـ تقريب التّهذيب : ابن حجر، تحقيق محمّد عوّامة. دار الرّشيد، سوريا، ط٤، ١٤١٢هـ .

١١٦ـ تلبيس إبليس: ابن الجوزي. مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، ط٤، ١٤١٧هـ.

١١٧ـ تلقيح فهوم الأثر: ابن الجوزي . شركة دار الأرقم ، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٨ـ تمييز الطّيّب من الخبيث: عبد الرّحمن بن الدّيبع. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ

١١٩ـ تهذيب الأسماء واللّغات : النّووي ، تحقيق علي محمّد. دار النّفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ .

١٢٠ـ تهذيب تسهيل العقيدة الإسلاميّة : أ.د عبد الله الجبرين . دون دار نشر، ط١، ١٤٢٥هـ.

١٢١ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التّوحيد : سليمان بـن عبد الله ، تحقيق زهير الشاويش. المكتب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ .

١٢٢ـ جامع الدّروس العربيّة : مصطفى الغلاييني. المكتبـة العصريّة ، بيروت ، ط١، ١٣٩٣هـ.

١٢٣ـ جامع العلوم والحكم : ابن رجب الحنبلي، تحقيق د. محمّد الأحمدي. دار السّلام، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٢٤ـ جامع بيان العلم وفضله : محمّد بن عبد البرّ، حقّقه أبو الأشبال الزهيري . دار ابن الجوزي، الدّمّام ، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٢٥ـ جلاء الإفهام: ابن قيّم الجوزية ، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٤٢٩هـ .

١٢٦ـ جواهر الأدب: الهاشمي، مؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ .

١٢٧ـ حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين: مجموعة من العلماء. وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٢٨ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أحمد بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق سعيد سعد الدّين .دار إحياء التّراث العربيّ ، بيروت ، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٢٩ـ حياة محمّد ﷺ : محمّد حسين هيكل، مطبعة السّنّة المحمّديّة، القاهرة، ط١٣.

١٣٠ـ دراسات في عهد النّبوّة والخلافة : د. عبد الرّحمن شجاع. دار الفكر ، اليمن، ط١، ١٤١٩هـ

١٣١ـ دلائل النّبوّة : البيهقي ، تحقيق عبد المعطي قلعجي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٢ـ ديوان أبي الطّيّب المتنبّي: شرح عبد الرّحمن البرقوقي، تحقيق عمر الطّبّاع. دار الأرقم، بيروت

١٣٣ـ ديوان الإمام الشّافعيّ : شرح د. عمر الطّبّاع. دار الأرقم، بيروت.

١٣٤ـ ديوان الباكيتين: شرح د. يوسف عيد . دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٥ـ ديوان أمير المؤمنين علي ﷺ : شرح د. عمر الطّبّاع. دار الأرقم، بيروت.

١٣٦ـ ديوان حسّان بن ثابت ﷺ : تحقيق عبد الله سنده. دار المعرفة، بيروت ، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٣٧ـ ديوان مجد الإسلام : أحمد محرّم. مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٣٨ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام : ابن تيمية. دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٣٩ـ روائع البيان : محمّد علي الصّابوني. مكتبة الغزالي، دمشق، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٤٠ـ زاد المسير في علم التّفسير : ابن الجوزي . دار الفكر ، بيروت لبنان ، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٤١ـ زاد المعاد : ابن قيّم الجوزيّـة، تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسّسة الرّسـالة، بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٤٢ـ زهر الآداب وثمر الألباب: القيرواني، تحقيق د. زكي مبارك. دار الجيل، بيروت، ط٤.

١٤٣ـ سلسلة الأحاديث الصّحيحة : الألباني .المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥هـ . والدّار السلفيّة، الكويت،ط١، ١٣٩١هـ. ومكتبة المعارف، الرّياض، ط١، ١٤١٦هـ.

١٤٤ـ سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة: الألباني. مكتبة المعارف، الرّياض، ط ١، ١٤٢١هـ.

١٤٥ـ سنن ابن ماجة : ابن ماجة، تحقيق د. بشّار عوّاد. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ .

١٤٦ـ سنن أبي داود : أبو داود ، تحقيق محمّد عوّامة . دار القبلة، مكّة، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٤٧ـ سنن الترمذي :الترمذي، تحقيق : أحمد شاكر. مطبعة مصطفى البابي ، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ.

١٤٨ـ سنن النسائي : شرح جلال الدّين السيوطي. المكتبة العلميّة، بيروت.

١٤٩ـ سير أعلام النّبلاء: الذّهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسّسة الرّسالة بيروت.

١٥٠ـ سير النّبلاء : الحافظ الذّهبي، تحقيق سعيد الأفغاني ، دار الفكر، بيروت ، ط٢، ١٣٩٠هـ.

١٥١ـ سيرة السّيّدة عائشة أمّ المؤمنين ﷺ : سليمان النّدوي.دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ .

١٥٢ـ سيرة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: د. علي الصّلابي، دار الكتاب الثّقافي، الأردن .

١٥٣ـ شذرات الذّهب: ابن العماد، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير، دمشق ، ١٤٠٦هـ .

١٥٤ـ شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: ابن عقيل. دار الفكر، بيروت، ١٤١١هـ.

١٥٥ـ شرح العقيدة الطّحاويّة : ابن أبي العزّ الحنفي، خرّج أحاديثه محمّد ناصر الدّين الألبانيّ. المكتب الإسلاميّ، ط ٥، ١٣٩٩هـ.

١٥٦ـ شرح المعلّقات العشر: أحمد الشّنقيطي. دار المعرفة، بيروت ، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٥٧ـ شرح ديوان كعب بن زهير ﷺ : أبو سعيد السكريّ .الدار القوميّة ، القاهرة.

١٥٨ـ شرح رياض الصّالحين: محمّد بن صالح العثيمين. دار الوطن،ط١، ١٤١٦هـ.

١٥٩ـ شرح نهج البلاغة : عبد الحميد بن أبي الحديد. دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٦٠ـ شفاء العليل : ابن القيّم الجوزيّة. دار المعرفة، بيروت.

١٦١ـ شهيد الدّار عثمان بن عفّان ﷺ : أحمد محمود. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٦٢ـ صحيح ابن حبان : محمد بن حبان، تحقيق : شعيب الأرنؤوط. مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.

١٦٣ـ صحيح الأدب المفرد : البخاري ، تحقيق الألباني، دار الصديق، ط٤، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

١٦٤ـ صحيح البخاري : محمّد بن إسماعيل البخاري. دار الفكر، ١٤٠١هـ .

١٦٥ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته : محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي.

١٦٦ـ صحيح السّيرة النّبويّة : الألباني. المكتبة الإسلاميّة، عمّان، ط١، ١٤٢١هـ.

١٦٧ـ صحيح سنن ابن ماجة : الألبانيّ. مكتب التّربية، ط ١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٦٨ـ صحيح سنن التّرمذيّ : الألبانيّ. مكتبة التّربية، الرّياض، ط١، ١٤٠٨هـ .

١٦٩ـ صحيح سنن النّسائي : الألباني. مكتبة التربية، الرّياض، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧٠ـ صحيح مسلم بشرح النّوويّ : يحيى بن شرف. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٧١ـ صفوة التّفاسير : الصّابوني. دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤، ١٤٠٢هـ .

١٧٢ـ صور من حياة الصّحابة: د. عبد الرّحمن. دار النّفائس، بيروت،١٤١٢هـ.

١٧٣ـ صيد الخاطر: ابن الجوزي. المكتبة التّجاريّة، مكّة المكرّمة، ط٤، ١٤١٦هـ.

١٧٤ـ ضعيف سنن التّرمذي: ضعّف أحاديثه الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ.

١٧٥ـ ضوابط التّكفير: عبد الله القرني. مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٧٦ـ طهارة بيت النُّبوَّة: خالد الشّايع. دار الجلالين، الرّياض، ط١، ١٤١٤هـ.

١٧٧ـ عائشة ﵂ معلّمة الرّجال والأجيال: محمّد علي قطب. مكتبة القرآن، القاهرة.

١٧٨ـ عائشة ﵂ والسّياسة: سعيد الأفغاني. دار الفكر، بيروت.

١٧٩ـ علم أصول الفقه: عبد الوهّاب خلاف. دار القلم، الكويت.

١٨٠ـ عمرو بن العاص ﵁: عباس محمود العقاد. شركة نهضة مصر، ط٢، ٢٠٠٥م.

١٨١ـ عمرو بن العاص ﵁: بسّام العسلي. دار النّفائس، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

١٨٢ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

١٨٣ـ فتاوى الشّيخ كشك: عبد الحميد كشك. دار المختار الإسلاميّ، القاهرة.

١٨٤ـ فتاوى علماء البلد الحرام: د. خالد الجريسي. مؤسّسة الجريسي، الرّياض، ط٣، ١٤٢٧هـ.

١٨٥ـ فتح الباري: ابن حجر. دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ.

١٨٦ـ فتح القدير: محمّد بن علي الشّوكاني. دار الخير، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٨٧ـ فتنة مقتل عثمان ﵁: د. محمّد الغبّان. مكتبة العبيكان، الرّياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٨٨ـ فصل الخطاب في مواقف الأصحاب: محمّد الغرسي. دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٨٩ـ فضائل مكّة: عاتق البلادي. دار مكّة، مكّة المكرّمة، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

١٩٠ـ فقه السّنّة : السّيّد سابق .دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٠٧هـ .

١٩١ـ فقه السّيرة النّبويّة : د. محمّد سعيد البوطي .دار الفكر المعاصر ، بيروت، ط٢٦ ، ١٤٢٧هـ .

١٩٢ـ فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن : ابن الجوزيّ ، تحقيق رشيد العبيدي. مطبعة المجمع العلميّ، بغداد ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩٣ـ في رحاب التّفسير : عبد الحميد كشك. المكتب المصري الحديث، القاهرة.

١٩٤ـ قصّة أعظم زوجة : أحمد باويلان. دار الحضارة، الرّياض ، ط١، ١٤٢٧هـ .

١٩٥ـ كتاب أزواج النّبيّ ﷺ: محمّد الدّمشقي. دار ابن كثير، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٩٦ـ كتاب الأذكياء : ابن الجوزي ، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، بيروت ، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٩٧ـ كتاب الأربعين في مناقب أمّهات المؤمنين رحمة الله عليهنّ أجمعين : ابن عساكر، تحقيق: محمّد مطيع، غزوة بدير. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٩٨ـ كتاب التّاريخ الكبير : البخاري. دار الكتب العلميّة، بيروت ، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٩٩ـ كتاب الثّقات :ابن حبّان، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، ط١، ١٣٩٥هـ .

٢٠٠ـ كتاب الزّهد : أحمد بن حنبل. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٣٩٨هـ .

٢٠١ـ كتاب الضّعفاء : العقيلي، حمدي بن عبد المجيد. دار الصميعي، الرّياض، ط١، ١٤٢٠هـ .

٢٠٢ـ كتاب الضّعفاء الصّغير : محمّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمود إبراهيم. دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٠٣ـ كتاب الضّعفاء والمتروكين : ابن الجوزي، تحقيق عبد الله القاضي. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٠٤ـ كتاب العلل ومعرفة الرّجال: أحمد بن حنبل، تحقيق د. وصي الله بن محمّد.المكتب الإسلاميّ، بيروت، ودار الخاني، الرّياض، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

٢٠٥ـ كتاب المجروحين : ابن حبّان، تحقيق محمود إبراهيم، حلب، دار الوعي، ١٣٩٥هـ .

٢٠٦ـ كتاب المراسيل : عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي ، تعليق أحمد عصام. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٠٧ـ كتاب خصائص أمير المؤمنين عليّ ﷺ: النّسائي، تحقيق أبو إسحاق الحويني. دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٠٨ـ كتاب رياض النّفوس : عبد الله المالكي. دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط٢، ١٤١٤هـ.

٢٠٩ـ كتـاب عيون الأخبار : ابن قتيبة الدّينوريّ. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢١٠ـ كتاب فضائل الصّحابة : أحمد بن حنبل، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ .

٢١١ـ كشف الشّبهات : محمّد بن عبد الوهّاب، شرح محمّد بن العثيمين. دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢١٢ـ كنز العمّال : المتّقي الهندي. مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢١٣ـ لسان العرب : ابن منظور. دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢١٤ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدّة . دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢١٥ـ لمعة الاعتقاد : محمّد صالح العثيمين، تحقيـق أشرف عبد المقصود. مكتبة دار طبريّة، ومكتبة أضواء السّلف، الرّياض، ط٣، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢١٦ـ مجمّع الزّوائد ومنبع الفوائد : علي بن أبي بكر الهيثميّ، تحقيق حسـام الّدين القدسي. مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢١٧ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ابن تيمية. مطابع الرّياض، الرّياض، ط٢، ١٩٦١م.

٢١٨ـ محمّد رسول الله ﷺ : محمّد الصّادق. دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ .

٢١٩ـ مختصر إتحاف السّادة المهرة : البوصيري، تحقيق سيّد كسروي. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٢٠ـ مختصر الشّمائل المحمّديّة : التّرمذي، تحقيق الألبانيّ. مكتبة المعارف، الرّياض، ١٤٢٢هـ .

٢٢١ـ مختصر الصّواعق المرسلة : ابن قيّم الجوزيّة، تحقيق سيّد إبراهيم. دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٢٢ـ مروج الذّهب : المسعودي .مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٢٣ـ مرويّات معاوية في تاريخ الطّبري : د. خالد الغيث. دار الإيمان، إسكندريّة.

٢٢٤ـ مسند أبي داود: أبو داود ، تحقيق د. محمّد التركي. دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ .

٢٢٥ـ مسند أبي يعلى الموصلي : أحمد بن علي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد. دار المأمون للتّراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٢٦ـ مسند البزار (البحر الزّخّار): أحمد بن عمرو البزار، حقّقه جماعة. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م.

٢٢٧ـ مسند عائشة أمّ المؤمنين من المسند المُعتليّ بأطراف المسند الحنبليّ : ابن حجر العسقلاني، تحقيق عطاء الله السّندي. دار المعرفة، بيروت، ط١،١٤١٦هـ .

٢٢٨ـ مشكاة المصابيح: الخطيب، تحقيق الألباني، المكتب الإسلاميّ دمشق، ١٣٨٢هـ.

٢٢٩ـ مصنّف ابن أبي شيبة : عبد الله بن أبي شيبة. دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٣٠ـ معاوية بن أبي سفيان ﷺ: د. علي الصّلابي. دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

٢٣١ـ معاوية بن أبي سفيان ﷺ صحابيّ كبير: منير الغضبان، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ.

٢٣٢ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن : السّيوطي، تحقيق علي البجاوي. دار الفكر.

٢٣٣ـ معجم أسامي الرّواة : الألبانيّ .دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ .

٢٣٤ـ معجم إعراب ألفاظ القرآن: د. محمّد سيّد. مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.

٢٣٥ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي. دار صادر، بيروت.

٢٣٦ـ معجم شيوخ الطّبري : أكرم الفالوجي . الدّار الأثريّة، عمّان ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٣٧ـ معرفة علوم الحديث : الحاكم. المكتبة العلميّة، المدينة المنوّرة، ط٢، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٢٣٨ـ مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الأنصاريّ. المكتبة العصريّة، صيدا، ١٤١٦هـ.

٢٣٩ـ مقدمة ابن خلدون : عبد الرّحمن بن محمّد. دار الجيل، بيروت.

٢٤٠ـ من الإعجاز اللّغوي في القرآن الكريم: محمّد متولي.ط١ ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٤١ـ من كنوز السّنّة : محمّد علي الصّابوني، دار الصّابوني ، ط٥ ، ١٤٠٦هـ .

٢٤٢ـ منهاج السّنّة النّبويّة : ابن تيمية. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٤٣ـ موسوعة أطراف الحديث النّبويّ: محمّد السّعيد. عالم التّراث، بيروت، ط١ ، ١٤١٠هـ ـ .

٢٤٤ـ موسوعة أمّ المؤمنين عائشة : د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

٢٤٥ـ ميزان الاعتدال في نقد الرّجال: الذّهبي، تحقيق علي البجاوي. دار الفكر.

٢٤٦ـ نساء أنزل اللهُ فيهنَّ قرآناً : د. عبد الرّحمن عميرة. دار اللّواء، الرّياض، ط٣، ١٤٠٣هـ .

٢٤٧ـ نصب الرّاية لأحاديث الهداية : عبد الله بن يوسف الحنفي. دار القبلة جدّة، ط٤، ١٤١٨هـ .

٢٤٨ـ نهج البلاغة : محمّد عبده .دار أسامة، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٤٩ـ نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين : محمّد الخضري بك. مكتبة الرّسالة، عمّان .

٢٥٠ـ نيل الأوطار : محمّد بن علي الشّوكاني .دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٢٥١ـ وأد الفتنـة : أحمد الشّوابكة، دار عمّار، عمّان، ط١ ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

١ـ **اكتساح السّحر**: تقديم ومراجعة أ.د. راجح الكردي، دار الفرقان، ط١، عمّان، ١٩٩٠م.

٢ـ **قصّة يوسف ﷺ في القرآن الكريم**: تقديم ومراجعة: أ.د. أحمد نوفل، أ.د. محمود السّرطاوي، أ.د. أحمد شكري. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٣ـ **شهيد الدّار عثمان بن عفّان** ﷺ : تقديم ومراجعة أ. د. محمود السَّرطاوي. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٤ـ **وأد الفتنة** : دراسة نقديّة لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفِّين على منهج المحدِّثين. تقديم ومراجعة: أ.د. محمود السَّرطاوي، أ.د. أحمد نوفل، أ.د محمّد العمري. دار عمّار، عمّان، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٥ـ **غرر البيان من سورة يوسف ﷺ في القرآن** : دراسة قصصيّة ولمسات بيانيّة. تقديم ومراجعة: أ.د. أحمد نوفل، أ.د. محمود السّرطاوي، د. صلاح الخالدي. دار الفاروق، عمّان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٦ـ **الأثر الثّمين في نصرة عائشة ﷺ أمّ المؤمنين** : تقديم ومراجعة : أ.د. عبد النَّاصر أبو البصل ، أ.د. محمود السّرطاوي ، أ.د. أحمد نوفل ، د. محمّد ملكاوي ، أ.د. عبد المقصود حامد . دار الفاروق، عمّان، ط١، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

